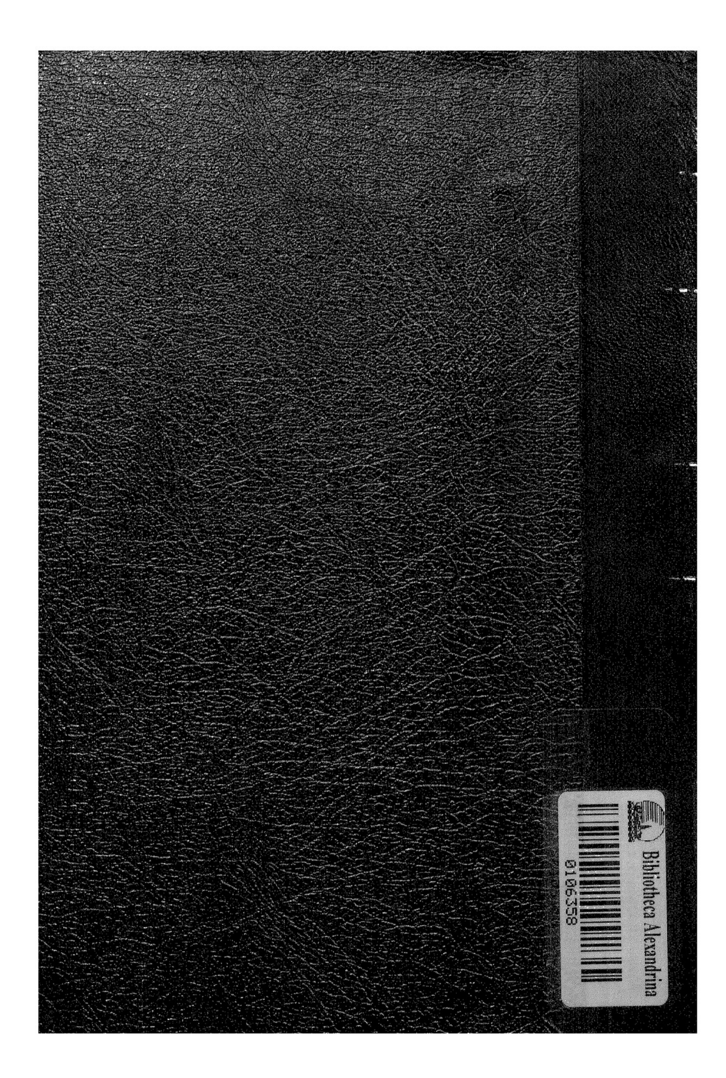
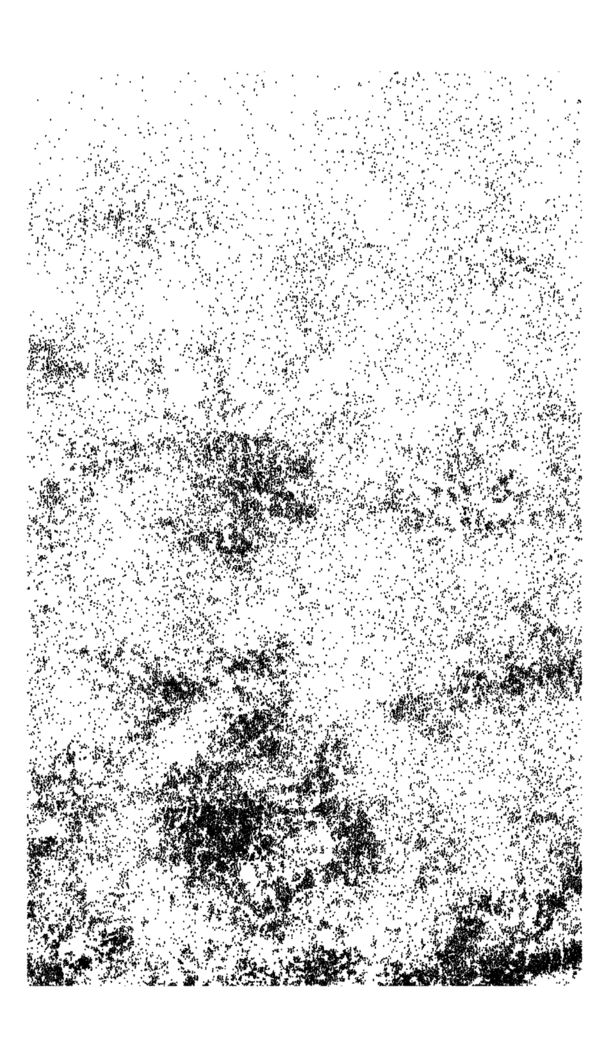






بنچامين فرانكلين

صورة عالم، كاتب، فيلسوف، إنسان

بقلم

عباس محمود العقاد

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلي باشا القاهرة

١٩٥٥

محتويات الكتاب

صفحة

هذا الكتاب وهذا الرجل

بقلم حسن جلال العروسى

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين

يصدر هذا الكتاب يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٥٦ قصدا وعمدا ، لا مصادفة ولا اعتباطا ؛ ففى مثل هذا اليوم من مائتين وخمسين عاما (١٧ من يناير سنة ١٧٠٦) ولد بنجامين فرنكلين العبقرى الأمريكى الفذ ، العالم ، الكاتب ، السياسى ، الدبلوماسى : الفيلسوف ، الانسان الذى لا يقال فيه خير مما قاله كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد مؤلف هذه الدراسة الرائعة .

اليوم يحتفل العالم كله باحياء ذكرى فرنكلين وتكريمه بنشر تعاليمه وفلسفته الانسانية فى ميثاق تعاهد فيه مواطنو خمسين دولة مختلفة على تخليد ذكرى الرجل الكبير بالعمل على نشر المبادىء السامية التى استهدفها فى حياته . فدعوا الى العمل — فى نطاق دولى لايعرف الحدود والتخوم — على انماء الثقة المتبادلة بين الأفراد ، واحترام الكرامة الانسانية ، ومحو العنصرية ، وتدعيم التفاهم المشترك ، وتبادل احترام العقائد المختلفة ، والتمسك بالحرية فى مختلف صورها ، والدعوة الى اتاحة الفرص المتكافئة للجميع ... الخ . ما أعلنته هذه الجماعة من مبادىء وقيم خلقية هى صميم المثل العليا التى تستلهم من سيرة بنجامين فرنكلين.

وهذا التكريم لذكرى فرنكلين سبقته مظاهر عديدة من مظاهر التمجيد والتخليد فسميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية والأدبية ، ولعل القارىء يدرك أن هذه المؤسسة بالذات انما سميت باسمه ولم يكن ذلك لمجرد تخليد ذكراه فحسب بل لأن القائمين بها

رأوا — وبحق — أن فى نسبتها اليه ايضاحا للأهداف التى تسعى الى تحقيقها فى خدمة السلام والأخوة الانسانية عن طريق الثقافة وتقريب مستويات المعرفة الصحيحة والادراك السليم .

ومن أحدث مظاهر التكريم لهذا الانسان العظيم ما قررته جامعة (ييل) أخيرا من نشر جميع ما كتبه فرنكلين فى حياتيه العامة والخاصة، فى مجلدات ضخمة ستنشر تباعا . وقد حذت جامعة (ييل) فى هذا الشأن حذو جامعة برنستون فى نشر « أوراق » توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الفيلسوف .

ان فى قراءة سير العظماء متعة وثقافة والهاما ، وأحسب أن شبابنا فى مراحل تكوينه لايستطيع أن يستغل أوقات فراغه بشكل أفضل من الاقبال على قراءة الجيد من سير العظماء ، واستلهام عظات حياتهم فى استكشاف طريقه فى الحياة . والسيرة التى نقدمها اليوم حرية بالتأمل والدراسة . وحسبك من قصة حياة أن يكون صاحبها بنجامين فرنكلين، وأن يكون كاتبها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذلك المفكر العملاق الذى تجاوبت عبقريته مع عبقرية من سبقوه ، فكانت هذه الدراسات الفنية العميقة — التى عرفت بالعبقريات — والتى أضافت ثروة أدبية كبيرة الى المكتبة العربية .

تمهيد

بقلم

عباس محمود العقاد

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لايثنون على أحد الا بمقدار ، وقلما يثنون بمقدار .

حياه فولتير فسماه « فرنكلين المجيد الحكيم »(١) .

وحياه دافيد هيوم فقال : « انه الفيلسوف الأول والأديب الأول الذى جذب أنظار أوربة الى البلاد الأمريكية »(٢) .

وحياة المصلح الناقد صمويل روميلى فقال بعد زيارته : « بين المشاهير الذين اتفق لى أن رأيتهم فى حياتى ، يلوح لى أن فرنكلين — بسيماه وحديثه — أجدرهم بالتنويه ، فطلعته الأبوية وبساطته فى هيئته وكلامه ، وجدة ملاحظاته ... تركت فى نفسى رأيا فيه أنه من صفوة الرجال الذين وجدوا فى كل زمان »(٣) .

وقال بلزاك : « انه اخترع عمود الصواعق ، واخترع القفشة ، واخترع الجمهورية » .

وخاطبه رئيس قومه واشنطون فقال : « اذا كان التبجيل اكراما للخير ، واذا كان الاعجاب اكراما للنبوغ ، واذا كان التقدير للوطنية والحب للانسانية ، خليقة أن تلهم عقل الانسان الرضا والغبطة ، فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التى لاتذهب سدى »(٤) .

---

(١) Poor Richard

(٢) بنيامين فرنكلين تأليف برنارد كوهن

(٣) مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر
Famous American Men of Sciencely by Crowther

(٤) الأمريكى الأول تأليف برلنجيم Burlingame

وقال رئيس قومه فرنكلين روزفلت وهو يحيى ذكراه بعد مائة وخمسين سنة : « ان بنيامين فرنكلين الذى تدين له الجامعة — جامعة بيل — بالكثير ، قد أدرك أيضا أن المبادىء الأساسية فى العلم والأخلاق وآداب الاجتماع على خلودها تتجدد بالتطبيق والتنفيذ على حسب المعيشة من جيل الى جيل ، واننى على يقين أنه لو كان معنا اليوم لقرر أن الواجب الأكبر على الفيلسوف والمعلم أن يحققا المثل العليا للحق والخير والعدل بقسطاس الحاضر لا بقسطاس الزمن الغابر .. » [1] .

هؤلاء يحملون غصن التحية .

وأناس آخرون يثنون عليه وهم لايحملون غير الميزان ، وقد يحسنون حمله باليمين وباليسار .

قال ليونل الفين Lionel Elvin فى كتابه رجال أمريكا :

« كان للحياة فى نفسه حب وعلاقات شتى ، وكان يحسن المتعة باللغو ، ويجتذب اليه القلوب ويملكها بتلك المودة التى تنجم من القناعة العميقة والصفاء القرير . وحق أنه كان الى العطف أقرب منه الى الشعور اللاعج ، والى الفطنة أقرب منه الى القريحة الشعرية ، والى الأخلاق العملية أقرب منه الى السريرة الصوفية ، والى الاصلاح أقرب منه الى الثورة والانقلاب ، والى أن يعد فى زمرة أبناء الدنيا أقرب من أن يعد فى زمرة الأنبياء . ولو أنه قذف به الى جزيرة خالية لكان مسلكه فيها كمسلك روبنسون كروزو ولم يكن مسلكه ثمة كمسلك اسكندر سلكيرك من تصنيف كوبر ، وان اختلاف الرأى فى عرض هذا الخلق على معيار النقد ليتوقف على مزاج الناقد وتقديره ، وانما أساس النقد كله أن فرنكلين قد أفرط فى التوحيد بين الفضيلة والنجاح المحترم ، أو كما كتب على هامش ترجمته : ما من شىء كالفضيلة يكفل للمرء حظه ... ولكن مما يوضع له فى الكفة الأخرى أنه — اذا لم يكن قد عبر

---

(١)كتاب برنارد كوهن

عن أرفع الآفاق وأبعد الأعماق فى الطبيعة الانسانية — قد جعل بفضل علمه وحبه لخير بلاده الأمريكية ، كما جعل الدنيا كلها ، مكانا أصلح للعيش فيه ، وقد صعد بمجهوده فى سلم وطنه الجديد ، وقذف بكل ما عنده فى معركة الديمقراطية التى تقابل المجتمع الخاضع لسلطان الاستبداد ، وآمن بأن الناس جميعا ينبغى أن يكونوا — فى كل مكان — راضين سمحين أحرارا مثقفين ، وان العمل لمثل هذه الغاية وحسن الابانة عنها ليس بالمطلب الصغير ولا بالأمر الهين .. »

ومن الذين يثنون عليه من لايحملون غصن التحية ولا يحملون ميزان الحساب ، ولكنهم يحتكمون الى هوى العاشق وشوق المفتون ، ويقولون بلسان قائلهم لورنس نبى الجسد فى القرن العشرين :

« اننى لأعجب به » .

« أعجب بشجاعته الدءوب قبل كل شيء ، ثم أعجب بحصافته ، ثم ببصره النافذ فى غمائم البروق والرعود والكهربا ، ثم بفكاهته الدارجة : كلها خصال الرجل العظيم الذى لم يكن قط أكبر من مواطن عظيم » .

ثم يقول ، أو تقول شيعته كلها بلسانه : « انه ... طابع ، فيلسوف ، عالم ، مؤلف ، وطنى ، زوج صالح ، مواطن ، فما باله لايكون نموذجا يقاس عليه ؟

« أتراه رائدا ؟ يا للرواد !

« لقد كان بنيامين رائدا من أكبر الرواد فى الولايات المتحدة ، ولكننا لانستطيع آن نسلك معه . فما هو جانب الخطأ فيه ؟ وما هو جانب الخطأ فينا ؟

« اننى لأذكر فى صباى كيف كان أبى يشترى الكتاب الذى يسمى التقويم وتظهر على غلافه صور الشمس والقمر والنجوم ، وتتخلله النبوءات عن الحروب والمجاعات ، ومعها فى الزوايا نوادر وأضاحيك تمازجها العبر والعظات ، وقد كنت أضحك ضحكتى الصغيرة الغريرة

من تلك المرأة التى تعودت أن تعد الكتاكيت قبل انفراج البيض عنها وما الى هذه الفكاهات ، وعلمت من ثم أن الأمانة أفضل سياسة بشىء من تلك الغرارة . وكان مؤلف هذه الشذور ريتشارد المسكين ، وكان ريتشارد المسكين بنيامين فرنكلين ، كاتبا ما كتب فى فلادلفيا قبل أكثر من مائة عام . وربما كنت حتى اليوم لا أسيغ تلك العبر والعظات ، ولا أزال ضائقا بها كأنها الشوك فى لحم الصبى الصغير . ولأننى لا أزال أومن بأن الأمانة أفضل سياسة أرانى أبغض السياسة بحذافيرها . وانه لسواء عندى أن تعد الكتاكيت قبل مولدها وأن تعدها منهوما بمنظرها بعد خروجها من البيضة . ولقد لبثت السنوات الطوال وعانيت الوخزات التى لاعداد لها كى أخلص من ذلك السلك الشائك الذى أقام به ريتشارد المسكين أسوار الأخلاق » .

وقبل ذلك يقول لورنس عن فرنكلين والروح الانسانية : « انالروح الانسانى غاب ألفاف ، وفرنكلين يقتطع منه حيزا يحرثه ويدير عليه حائط البستان » (١) .

وهذا هو الشرط الناقص فى معيار لورنس نبى الجسد فى القرن العشرين ، أو نبى النزوات الحسية على التعبير الصحيح .

فلا يوافق ذوقه نظام متكشف لضوء النهار ، ولابد من الألفاف المتشابكة على غير نسق معلوم ، ولابد من الزوايا المظلمة واللفحات المضطربة هنا وهناك ، ولابد من صدع الحائط حول البستان ليزول البستان اسما وسمة ، ولا يبقى غير الغابة ذات الألفاف ، وذات السباع ، وحبذا لو اتسعت للأفاعى مع السباع !

ولا يطلب من كل عظيم أن يكون وفقا لشروط لورنس فيما يستحق به المحبة والعاطفة المشتعلة . حسب العظيم أن يكون وفقا لاعجابه وتعظيمه بسبب أو سببين ، وقد كان فرنكلين وفقا لشروط اعجابه بأسباب

---

(١) دراسات فى الآداب السلفية الأمريكية تأليف لورنس D.H. Lawrence

كثيرة : شجاعة وحصافة وبصر نافذ خلل الغمام ، وفكاهة دارجةووطنية جديرة بالاعظام والاكرام .

ولا نكتم عن أنفسنا أننا نرضى عن معيار لورنس فى تقدير العظمة بعض الرضا ولا نحس فى صميم الوجدان أننا ننكره كل الانكار .

أتكون عظمة بغير نار مقدسة ؟

كلا . لا غنى عن هذه النار المقدسة فى عظمة عظيم ، وليس من حق النظام ولا النور أن يسلبها تلك النار التى لا يقر لها قرار .

الا أن العبقرية كلها نار مقدسة ، والعبقرية كلها لا يقر لها قرار مع اضطرام تلك النار .

وفرنكلين على وفاق هذا الشرط بغير شذوذ ولا استثناء ، فلا دخان ولا شرر ولا قعقعة من الوقود المتأجج بين الضرام .

ولكن النار هناك فى الموقد المصون .

لا صاعقة تنقض على الحطام بين البروق والرعود ، ولكن العمود هناك يتلقى الصاعقة فى أمان .

والتفرقة بين النارين حتم فى مقام الكلام على عبقرية فرنكلين . أليس هو صاحب الموقد الذى نحس ناره ولا نحس دخانه وشرره ؟ أليس هو صاحب العمود الذى يستنزل الصاعقة ويروضها بعد الجماح رياضة الفارس الخبير ؟

ان العبقرية التى يعجب بها لورنس كالنار التى تلتهب فى المدخنة ثم تطير الحرارة منها بين الجدران وبين الهواء والهباء .

ولم تذهب هذه النار بين يدى فرنكلين ، لأنه صاحب الموقد الذى اخترعه ليحفظ النار ويبثها على السواء بين الجدران ، وليرسل منها الى الفضاء ما تستغنى عنه الأبدان .

والصاعقة لم تذهب كذلك بين يديه ، ولكنه ساسها وقادها وأسلس زمامها ، فهى صاعقة فى طريقها بين السماء والأرض ، ولكنها من قبيل العبقرية التى خلقت لفرنكلين !

ويوشك أن يكون التشبيه هنا واقعة محتومة لا مجاز فيها ، ويوشك أن يكون الموقد وعمود الصاعقة من اختراع هذا العبقرى لأنهما أشبه النيران بعبقريته الطيعة الرفيقة : عبقرية تعجب النفوس والعقول ، ولكنها لاتروع ولا تهول .

لهذه العبقرية محلها بين العبقريات فى كل زمن ، ولعلها أولى بالمحل الأول فى هذا الزمن خاصة . لأنه زمن لاتعوزه عبقريات اللهيب والدخان، وقد تعوزه المئات من عبقريات النور والهداية والأمان .

ومن رسائل هذه العبقرية فى هذا الزمن أنه زمن ضاعت فيه الشخصية الانسانية بين التخصص والكثرة العددية ، وكلاهما «فناء» لمزايا الانسان أشبه بفناء « النرفانا » فى عقائد المنهزمين المنكرين للحياة .

ان « التخصص » قد جار على « الشخصية الانسانية » فلم يترك فى كل امرىء الا جزءا من انسان مستغرقا فى جزء من المعرفة وجزء من العناية بالعالم الواسع الذى يعيش فيه ، وليس أضر ولا أوخم من هذه التجزئة فى الزمن الذى ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة العالم الانسانى بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الانسان كله للمساهمة فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس فى أصداف المحار .

وان هذه العبقرية التى تعددت جوانبها وتشعبت شواغلها ، مع الاتزان والاعتدال وحسن الاحاطة والاجمال ، لهى الترياق الذى يشفى من هذه الآفة ، والقدرة التى تستنهض الهمة لمحاكاتها ، ثم لاتيئسها من بلوغ الغاية فى المحاكاة ، لأنها — بطبيعتها — تعجب النفوس والعقول ولكنها لا تروع ولا تهول .

وقد جارت الكثرة العددية على معالم الشخصيه الانسانية فوق هذا

الجور الذى ابتليت به من داء التخصص والانحصار ، وقد تجدى هذه العبقرية جدواها التى لا تشبهها جدوى العبقريات الأخرى فى انصاف « الشخصية » الممتازة من طوفان الكثرة العددية . لأنها من هذه الكثرة خرجت ، ولهذه الكثرة عملت ، وعلى هذه الكثرة عولت فى كل مرحلة من مراحل النجاح وعلى كل درجة من درجات السمو والارتفاع ، فلم يمنعها ارتفاعها من غمار الكثرة العددية أن تكون من زمانها الى هذا الزمان مثلا نادرا « للشخصية » الفذة التى لا تضيع فى غمار .

والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية ، لم نحفل فيها بسجل الأرقام ولا باحصاء الأيام ، ولم نكتبها لنبدأ فيها بسنة الولادة ونختمها بسنة الوفاة ونمضى فيها مع التقويم شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، ولكننا كتبناها كما نكتب تراجمنا عامة لنعرض فيها لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها ، وقد يتابعها القارىء فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا احصاء الأيام ، وانما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك اذا شاء ، أو يبقيها على حد سواء .

وسنبدأ « الصورة » بترجمة مجملة ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم حدود النظر الى الاطار الذى يحيط بملامحها وقسماتها ، ثم تتبعها بصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعمها وأوسعها ، مع صعوبة التعميم والاحاطة بهذه الشخصية الفذة التى لم تدع شأنا من شئون عصرها الا اشتغلت به فى وقت من الأوقات ، ثم ندع لها أن تتكلم بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذى نسمعه منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها .

ولنبدأ بالترجمة : ترجمة العالم الكاتب السياسى الفيلسوف الانسان.

الجزء الأول
عن فرانكلين

معالم الطريق

كتب فرنكلين سيرته التى سماها المفكرات وسميت فيما بعد بالترجمة الذاتية ، وبدأها وهو ينوى أن يخص بها أبناء أسرته للاستفادة بها فى شئونهم العائلية ، ثم اطلع عليها بعض أصدقائه فأعجبوا بها وأشاروا عليه باتمامها وتعميم نشرها ، ولكنها لم تنشر فى حياته ولم يحصل عليها الناشرون كاملة الا بعد مساومات ومفاوضات طويلة ، مع الذين جمعوا أجزاءها فى فرنسا حيث ظهر الجزء الأول منها للمرة الأولى مترجما الى اللغة الفرنسية .

وقد كتبت هذه الترجمة على أربعة أجزاء فى أوقات متعددة وأماكن متفرقة .

كتب الجزء الأول منها فى انجلترا وهو فى الخامسة والستين من عمره ، واشتمل بعد تاريخ أسلافه على تاريخ حياته من مولده فى سنة ١٧٠٦ الى زواجه سنة ١٧٣٠ .

وكتب الجزء الثانى فى باسى بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة (أى سنة ١٧٨٤) .

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات (١٧٨٨) على أثر عودته الى فلادلفيا وبلغ به حوادث سنة ١٧٥٧ حين كان فى الحادية والخمسين .

والمظنون أنه أضاف اليها الجزء الرابع ما بين أواخر سنة ١٧٨٩ وأوائل سنة ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة .

ولا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة ، لأنها حديث شائق عن رجل مشهور محبوب يروى قصة حياته ، ويحسن روايتها على النسق الذى يهم كل قارىء

وقارئة كأنها قصة للتسلية ، وكأنها فى الوقت نفسه قصة القارىء فى حياته الانسانية التى تتشابه بين جميع الناس على اختلاف الحوادث والأوقات .

وهذه الترجمة تصور صاحبها أصدق تصوير فيما ذكره من أخباره وأعماله وفيما يستخلصه القارىء من بين السطور على غير قصد من المؤلف ، لأن أسلوبه فيها يفسر الناحية المهمة فى شخصية فرنكلين وفى عوامل نجاحه وسهولة مسلكه بين الناس فى كل مكان عمل فيه ، من وطنه الى انجلترا الى فرنسا ، ومن بيئة الصناع الفقراء الى بيئة الملوك والأمراء والنبلاء ، ومن طوائف الأميين وأشباه الأميين الى طوائف العلماء والحكماء وقادة الآراء .

ان الرجل لم يكسب هذا المسلك السهل بالملق والموافقة ، لأنه كان يبدى رأيه على أتمه اذا خالف سامعيه ، وكان لايثنى على أحد بغير أسلوب العالم الذى يعنى كل ما يقوله وان تلطف فى التعبير ، ولكنه كسب هذا المسلك السهل بتسليمه للضعف الانسانى حيث لاتجدى المكابرة ، فكان يعرف عيوبه ولا يداريها ، وكان حكمته التى كتبها فى تقويمه « نظف أصابعك قبل أن تنظر الى بقعى .. » شعارا له يتبعه ولا يلزم أحدا أن يتبعه مثله . فاذا كتب عن عيوبه خيل الى القارىء أنه برىء من تلك العيوب ، واذا شرح أعماله وتكلم عن أسباب نجاحه لم يكتم القارىء أنه فخور بها كما يصنع الكثيرون من أدعياء التواضع وانكار الذات ، ولكنه يتكلم عنها ويدع القارىء يفهم أنه قادر على مثلها اذا أراد ، وأن الأسباب التى استعان بها مبسوطة بين يديه لأنها فى ميسوره ومقدوره .

ومن مفتتح الترجمة الى ختامها يجرى المؤلف على هذا الأسلوب الصريح بغير تكلف ولا مداجاة ، فيقول فى مفتتح الترجمة انه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التى تملك الشيوخ فى أخريات أيامهم دون أن يضجر أحدا من سامعيه ، لأنهم أحرار فى السماع أو الاعراض ،

وانه لا يكتم عن القارىء أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلا على سبيل الاعتذار « بلا فخر ولا ادعاء » ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء !.. وبمثل هذا الأسلوب يجرد الفخر من شوكته المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب ، ويقف « بانسانيته » الضعيفة القوية بين أيدى اخوته من الناس .

ويستخلص القارىء من الترجمة صفة أخرى كان لها ولا ريب أثرها العظيم فى ألفة فرنكلين للناس وألفة الناس اياه ، فان القارىء ليفهم من الصفحات الأولى أنه يعيش مع « مخلوق اجتماعى » من فرعه الى اصبع قدمه . وقد قيل قديما وحديثا ان الحاسة العائلية أساس الحاسة الاجتماعية وقرارها الذى ترجع اليه فى الأعماق ، وهذه الحاسة العائلية أو هذه الحاسه الاجتماعية هى التى تنضح بها كل صفحة من صفحات الترجمة من بدايتها الىنهايتها ، فانه علىعلمه بفقر آبائه وأجداده ، وعلى عزيمة الهجرة الأبدية التى اعتزمها مؤثرا دار الهجرة على مواطن الآباء والأجداد ، وعلى كثرة الشواغل التى تشغل السفير الأمريكى عند حكومة الدولة البريطانية فى ابان الخلاف والشقاق ، لم يمنعه هذا كله أن يبحث عن تواريخ أسلافه البسطاء وأن يتحرى منها كل ما أمكنه العثور عليه وأن يثبته كما انتهى اليه بغير صقل ولا تزويق وبغير حشو ولا ادعاء .

ويستطيع القارىء من قراءة السطور وما بينها أن يفهم أن «بنيامين» قد ورث من كل سلف مذكور حمل اسم فرنكلين بنية قوية ومزاجا كأقرب ما يكون المزاج الانسانى الى الاعتدال ، فسلك سبيله بين الناس بغير عقدة خفية وبغير خبيئة مطوية ، واستعان بتلك البنية على احتمال ما يعيا به الكثيرون من خلائق الناس التى تطاق أو لا تطاق ، ولا وجه لاستغراب النجاح من رجل عليم بالضعف الانسانى مقتدر على المعذرة مطبوع على الحاسة الاجتماعية ، سليم الأعصاب ، غير مضطرب المزاج .

ونحن لا نريد فى هذا الفصل — بداهة — أن ننقل الترجمة كلها أو

نلخصها ، ولا نريد كما ذكرنا فى التمهيد أن نستقصى هذه الترجمة فى سائر فصول الكتاب ، لأننا آثرنا أن نتكلم على جوانب الصورة التى ترسم لنا ملامح فرنكلين ، وندع الكلام عن وقائع الحوادث وأرقام السنين ، فيعنينا فرنكلين العالم كيف كان عالما ، وفرنكلين الكاتب كيف كان كاتبا ، وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف كيف كان فى مناهجه السياسية وفى آرائه الفلسفية ، وكيف كان فرنكلين الانسان بعد ذلك انسانا حقا فى جميع تلك الجوانب أو جميع تلك الملامح من الصورة الشاملة ، ولا يعنينا ماعدا ذلك من التاريخيات التى لا تصحبها «نفسية» من هذه النفسيات .

نحن لانريد أن ننقل الترجمة أو نلخصها ، ولكننا لا نستطيع مع هذا أن نغفلها وندع النقل منها فى كتاب عن «شخصية» الكاتب الذى ألفها... فما ننقله هنا من الترجمة فانما هو الجزء الذى يكفى للابانة عن أسلوبه والجزء الذى تنفرد الترجمة به فلا يشاركها فيه مصدر آخر من مصادر السيرة التاريخية ، وذلك هو الجزء الذى يتكلم فيه فرنكلين عن سلفه الى مولده وطفولته واختياره لصناعته على آسال من سوابق أولئك الأسلاف ، ثم تتبع هذا الجزء بالاشارة الى خطوات هذه الحياة الحافلة بين أرقام السنين ، لأنها سجل يراجع عند الضرورة كلما دعت الحاجة اليه فى متابعة فصول الكتاب ، ولا يفوتنا أن نعد من أسباب هذا الاكتفاء أن مفكرات فرنكلين ليست من قبيل التراجم التى تختصر وتلخص فيغنى عنها الاختصار والتلخيص ، لأنها بنية حية وليست أشتاتا من الحوادث يمسكها السمط ويأتى من يشاء فيقطع السمط حيث يشاء ، ولكنها تؤخذ جانبا جانبا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة ، وهذا هو جانبها الذى اخترناه لنقله بغير تصرف فيه ، للسبب الذى قدمناه .

قال فرنكلين فى النسخة الأولى من مفكراته :

« هنا سأرضى تلك النزعة المألوفة فى الشيوخ : نزعة التحدث عن

أنفسهم وأعمالهم الماضية ، دون أن أزعج بها غيرى ممن يحسبون — رعاية للسن — أنهم مطالبون بالاصغاء اليّ ، اذ كان فى وسعهم أن يقرأوا أو يدعوا القراءة متى شاءوا . وسأعترف أخيرا بأننى سأرضى غرورى لأننى ان أنكرته لم يصدقنى أحد . والحق أننى ما سمعت ولا قرأت قولة لقائل فى التمهيد لكلامه انه لا يريد أن يدعى أو يغتر ... الا رأيت بعد ذلك ضربا من الادعاء أو الغرور يأتى على الأثر . وان كثيرا من الناس ليبغضون الغرور فى الآخرين مهما يكن من وفرة نصيبهم منه ، ولكننى تعودت أن أفسح له مكانا كلما التقيت به ، لعلمى أنه يفيد أحيانا من يغترون ومن يتصلون بهم فى جوارهم ، وليس من العبث اذن أن يشكر الانسان ربه على ما يسديه اليه من الغرور بين سائر النعم التى يستمتع بها فى حياته .

« والآن أقول بعد حمد الله متطامنا بين يديه اننى مدين بما نعمت به من السعادة لحكمته الرحيمة التى هدتنى الى الوسائل التى توسلت بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها ، وان يقينى بهذا يدعونى الى الأمل ، وان كنت لا أعلم الغيب ، أن تلك الحكمة الرحيمة سوف تتولانى لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصيبنى من خيبة الرجاء كما يصيب الآخرين . اذ لا يعلم مصيرى غير الله القدير على أن يجعل فى كل شىء بركة حتى العذاب .

« ان المذكرات التى أسلمها الى أحد أعمامى المعنيين مثلى باستطلاع الأخبار والنوادر عن أسلافى قد زودتنى ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف ، وقد علمت من هذه المذكرات أن العائلة سكنت القرية بعينها — قرية أكتون فى نورثامبتون شاير — ثلثمائة سنة ولا يعلم كم من السنين أقامت فيها قبل ذلك ، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرنكلين ، الذى كان علما على طائفة من الناس ، لقبا لها يوم ذهب الناس جميعا يقرنون أسماءهم بالألقاب فى سائر أنحاء المملكة .

« وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فدانا مستعينين مع غلتها بصناعة

الحدادة التى احترفتها الأسرة الى أيامه ، وكان أكبر الأبناء يتدرب من نشأته على هذه الصناعة : عادة جرى عليها الآباء من القدم ونهج هو وأبى على مثالهم فيها .

« ولما ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة فى قرية أكتون وجدت فيها تسجيلات لمولدهم وزواجهم ووفاتهم منذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة ، وعلمت من تلك التسجيلات أننى كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متعاقبة ، وكان جدى توماس الذى ولد سنة ١٥٩٨ معمرا عاش فى أكتون حتى أقعدته السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبرى من اقليم « أكسفورد شاير » ليعيش مع ابنه جون الذى كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبى هذه الصناعة ، وقد توفى جدى ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨ .

« وسكن ابنه الأكبر — توماس — فى منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التى باعت الميراث — هى وزوجها المسمى فيشر من ولنجبورو — لمستر استيد مالك الأرض الآن .

« وقد كان لجدى أربعة أبناء شبوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا ، وسأخبرك بما علمته عنهم بعيدا من مراجعى وأوراقى معتمدا على ما وعته الذاكرة . فان لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فانك واجد فيها مزيدا من التفصيلات .

« نشأ توماس حدادا بصحبة أبيه ، ولكنه كان ذكيا فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع اخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة ، فتدرب على كتابة العقود ونبه شأنه فى أمور البلد وأصبح وعليه المعول فى توجيه المسائل العامة بنورثامبتون وقريته التى روت لنا أخبارا كثيرة عنه ، وذاع صيته فى اكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات فى السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولدى بأربع سنوات ، وتدل سيرته التى تلقيناها من شيوخ أكتون كما أذكرها

على أمر عجب لشــدة الشبه بينها وبين سيرتى ، ولو أنه مات فى نفس اليوم الذى ولدت فيه لخطر لك أننى تقمصت روحه !

« ونشأ جون صباغا يشتغــل على ما أظن بصبغ الصوف ، ونشــأ بنيامين صباغا للحرير متتلمذا فى الصناعة بلندن . وكان رجلا ألمعيا أذكره جيدا لأنه جاءنا اذ كنت طفلا ليزور والدى فى بوستون ، وسكن معنا بالمنزل بضع سنوات ، وقد عمر طويلا ، وحفيده صمويل فرنكلين يعيش فى بوستون اليوم ، وقد ترك بعــده مجلدين من نظمه يشتمــلان على مقطوعات منظومة لمناسباتها موجهة الى أصدقائه وأقاربه ، ومنها واحدة وجهها الى »[1] .

« واخترع طريقة للاختزال علمنى اياها ولكننى لم أستعملها قط ونسيتها الآن . وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين أبى ، وكان تقيا جدا شديد المواظبة على حضور العظات من أبلغ الوعاظ يسمعها ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها . وكان كذلك مشــغولا بالسياســة كثيرا ولعــل اشــتغاله بها كان أكثر ممــا يلائم مركــزه . وقد عثرت له فى لنــدن على مجمــوعة للكراســات التى صــدرت فى موضــوعات المســائل العــامة من ســنة ١٦٤١ الى ســـنة ١٧١٧ ضــاع منهــا بعضــها كما يتبين من ترقيمها وبقى منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون مجلدا بين متوسط وصغير ، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه وأشترى منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها الىّ ، ويظهر أن عمى تركها عند سفره الى أمريكا اذ كان قد جاوز الخمسين من عمره ، ودوّن على هوامشها كثيرا من تعليقاته وملاحظاته .

« لقــد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين الســابقين الى قبول مذهب

---

(١) لم تنشر الأبيات فى نسخة المفكرات الأولى ، وعلم من أوراق أخرى أنها نصيحة باجتناب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطرة .

الاصلاح ولبثت على المذهب البروتستانتى خلال حكم الملكة مـارى وتعرضت للمتاعب أحيانا من جراء غيرتها فى مقاومة البابوية ، وكان لديهم نسخة انجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعهـا فى داخل كرسى ينطوى وينبسط ويضعه جدى الأكبر على ركبتيه كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئا من آياته ، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب لينبههم الى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قادما من بعيد ، فينطوى الكرسى فى هذه الحالة ، ويختفى الكتاب المقدس فيه كما كان . وقد أنبأنى بهذه القصة عمى بنيامين وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الانجليزية الى أيام شارل الثانى التى حدث فيها فصل بعض القساوسـة لانحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية ، فاسـتقلوا بنحلتهم فى (نورثامبتون شاير) وانضوى اليهم بنيامين وجوشيا وظلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية .

وتزوج أبى — جوشيا — صغيرا فانتقل بزوجته وأطفاله الثلاثة الى نيو انجلاند بأمريكا حوالىسنة ١٦٨٢ لصدور القانونبتحريم قيام النحل المخالفة للكنيسة فى البلاد الانجليزية ، وأقنع طائفة من صحبه بالهجرة الى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنت فى وطنه ، فاقتنع هو وصحبه بضرورة الهجرة أملا فى التحرر من الحجر على عقـائدهم ، وولـد له من زوجته الأولى أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى فتم عددهم سبعة عشر ، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على مائدته عاشوا حتى أصبحوا رجالا ونساء وتزوجوا جميعا . وكنت أنا أصغر الأبناء وأصغر الأطفال جميعـا ماعـدا طفلتين أصـغر منى ، وولـدت فى بوستون بنيوانجلاند .

« وزوجته الثانية — أمى — هى آبيا فولجر بنت بطرسفولجر أحد السابقين من المهاجرين الى نيوانجلاند ، وأشار اليه كوتون ماثر اشارة مشرفة فىتاريخه لكنيسة ذلك الاقليم فقالعنه — اذا لم تخنىالذاكرة — : انه رجل انجليزى صالح مثقف .

« وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة فى مناسباتها لم تطبع منها غير واحدة اطلعت عليها منذ سنوات ، وقد نظمها فى سنة ١٦٧٥ على النسق الذى كان متداولا مألوفا يومذاك ووجهها الى القائمين بالحكم فى ذلك الحين حاثا فيها على حرية الضمير منافحا عن عقيدة العماديين وجماعة الصحابيين وغيرها من النحل التى كانت عرضة للحجر والاضطهاد ، وعزا فيها مصائب الحرب الهندية والمصائب الأخرى التى ابتليت بها البلاد الى تلك السيئة البغيضة التى يصب الله غضبه على مرتكبيها ، داعيا الى الغاء القوانين التى سنت للتضييق على ضمائر الناس ، وقد لاح لى أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللائقة والرجولة الكريمة فى الذود عن الحرية ، وانى لأذكر سطورها الستة الأخيرة حيث يقول : اننى لأمقت المذمة من كل قلبى ، وأناديكم من مدينة شربورن التى أقيم فيها موقعا باسمى ، غير مسىء الى أحد منكم ، أنا بطرس فولجر.. »

« وتتلمذ اخوتى الكبار جميعا فى صناعات مختلفة ، وأدخلت أنا مدرسة الأجرومية فى الثامنة من عمرى وأراد والدى أن ينذرنى للكنيسة لأننى عاشر أبنائه ، وقد كان استعدادى المبكر لتعلم القراءة — ولا بد أنه كان مبكرا جدا لأننى لا أذكر زمنا كنت فيه أجهلها — موافقا لنبوءة أصدقائه الذين اعتقدوا أننى خليق بمستقبل حسن فى الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصده . وقد أقره عمى بنيامين على رأيه واقترح أن يهب لى كل ما عنده من مجاميع العظات الدينية ، ولكننى بقيت فى المدرسة مدة لا تزيد على السنة نقلت خلالها من وسط الفصل الى مقدمته ثم نقلت من هذا الفصل الى الفصل الذى يليه كى أنتظم فى الفصل الثالث عند نهاية السنة .

« على أن والدى وجد أثناء ذلك أن التعليم الجامعى كبير النفقة لاينهض بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التى تلائم المتعلمين ، وسرد هذه الأسباب على مسمع منى لأصدقائه تسويغا

لنقلى من مدرسة الأجرومية الى مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنويل ناجح فى صناعته لوداعته وطيب معشره ، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة فى وقت وجيز ولكنى أخفقت فى تعلم الحساب ولم أتقدم فيه ، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة لمساعدة والدى فى صناعته وهى صناعة الشمع والصابون التى لم يكن قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيوانجلاند لأن رزقه من الصباغة لم يقم بنفقة العائلة الكبيرة لقلة الحاجة اليها فى نيوانجلاند ، فعملت فى قطع الفتائل للشمع وصب السائل فى القوالب وملاحظة الدكان وايصال الرسائل والطلبات .

« ونفرت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل فى البحار ، ولكن والدى أبى على هذا العمل ، وظللت — لقربى من الماء — متعلقا بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المألوف كلما اجتمعت فى زورق أو قارب مع زملائى من الصبية أن يعهدوا الى فى تسييره وبخاصة فى الحالات المتعسرة ، وتكررت قيادتى لهم فى غير تلك الحالات فكنت أقودهم الى بعض المناوشات التى أذكر هنا مثلا منها لما فيه من الدلالة على الدوافع العامة وان لم يكن مثلا لحسن تدبيرها وتصريفها .

كان فى جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند حافته ساعة المد لنصطاد السمك الصغار ، وطال ترددنا على تلك الحافة حتى توحلت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعنّ لى أن نبتنى عليها رصيفا نستخدم فى بنائه كوما من الحجارة معدا لاقامة منزل جديد بجانب المستنقع وصالحا كل الصلاح لبناء الرصيف الذى نريده ، وعلى هذا جمعت بعض الرفاق — بعد انصراف العمال فى المساء — وأخذنا فى نقل الحجارة كأننا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحيانا على نقل الحجر الواحد حتى نقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء العمال صباح اليوم التالى فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت

الى الرصيف الذى بنيناه ، وبحثوا عن الجناة فعرفونا وشكونا الى آبائنا ، ولم ينفعنى عند أبى اعتذارى له بأنه عمل نافع ، لأنه قال لى انه ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

« وأحسبك تواقا الآن الى الالمام بشىء من صفاته وأخلاقه . فاعلم أنه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج الجسم قوى الأركان ، ذكيا يرسم رسما حسنا ويجيد العزف على آلات الموسيقى بعض الاجادة ، وله صوت مقبول يتغنى به حين يوقع المزامير على القيثار كما تعود فى المساء بعد الفراغ من أعمال النهار فيطربنا جدا أن نصغى اليه ، وكانت له براعة فى تناول الأدوات والآلات يستخدم منها ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه . غير أن المزية الواضحة التى كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأى فى تناول المسائل الخاصة والعامة ، وان تكن شواغله العائلية لم تدع له قط وقتا للعمل فى هذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جميعا فى القيام بتعلمها والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائدة . الا أننى أذكر جيدا أن أناسا من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فينة بعد فينة لاستشارته فى شئون البلد أو شئون الكنيسة التى ينتمى اليها ويتقبلون منه الرأى والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أناسا من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويحتكمون اليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعو الى مائدته صديقا أو جارا من ذوى الفطنة يتحدث اليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضوعا يفتق أذهان الأطفال ويلفتنا بهذه الوسيلة لما ينبغى من الخير والعدل والحكمة فى تدبير شئون الحياة » .

هذه النبذة من مفكرات فرنكلين معينة لنا — على وجازتها — فى تصوير الجانب الموروث من تكوينه واستعداده وعامة أخلاقه ، وتتلخص فى قوة البنية واستقامة الطبع وسداد الفطنة والاعتراف بالواقع مع الشجاعة واباء الضيم والتأهب للمخاطرة ايثارا لها على الخضوع للمذلة، وقد تكون هذه النبذة الوجيزة معينة لنا فى تصوير الاستعداد الاجتماعى

الذى ينتقل بالوراثة مع كيان البنية ولكنه لايظهر فى المجتمعات كافة على درجة واحدة ، بل يتوقف ظهوره على مؤاتاة الحوادث والبيئات ، ومن هذه الموروثات الفطرية الاجتماعية حسن الاستعداد للسلوك مع الناس من الأنداد والرؤساء وحسن الاستعداد للفهم والمعرفة وحسن الاستعداد للحكم على عوارض الحياة ما كان منها عاما مشتركا وما كان منها خاصا محصورا فى شئون المرء وذويه ، وقد تكون الدراية بالصناعات من المعادن « المصنوعة » كما يؤخذ من اسمها ولكنها لاتكسب فى جميع البيئات على السواء ولا تكسب فى البيئة الواحدة على درجة واحدة ، وقد يطول البحث فى وراثة المزاج الذى يعين صاحبه على مطالب الحياة الاجتماعية هل هو موروث كله أو هو مكسوب كله من البيئة الاجتماعية. غير أننا نخال أن البحث قليل فى صلاح المرء للسلوك مع الناس وحسن التصرف فى علاقاته الاجتماعية كلما اعتدل مزاجه وسلم تكوينه واستقامت فطرته . فلا شك هنا فى معاونة الأخلاق الموروثة للأخلاق الاجتماعية ولا فى التفرقة بين الصالحين للحياة وغير الصالحين لها كائنة ما كانت شروط المجتمعات على الأحياء .

بهذه الوراثة — وراثة الصلاح للحياة — ولد فرنكلين وعاش الى ختام حياته فى سنه العالية ، وقد كان هذا المزاج الموروث فيه أشبه بالبنية الصالحة لاهتضام كل طعام واستخراج كل ما فيه من غذاء ، فما كان عسيرا على غيره أن يهتضمه ويستفيد منه لم يكن عسيرا عليه أن يجعله غذاء صالحا على ما يعيبه من غثاثة أو مرارة ، ولم يكن يعيبه أن يهيىء ذلك الغذاء لغيره بعدوى الحكمة المطبوعة والسجية السمحة ، وقد يصنع ذلك مع الزملاء المنافسين كما يصنعه مع الرؤساء والمرؤوسين ، ونادرته مع جفرسون — وهو من أعظم زملائه فى قيادة الثورة الأمريكية — مثل لهذا الخلق المطبوع على الترويض والتهوين : ترويض الطبائع العصية وتهوين المشكلات الصعاب .

فقد عز على جفرسون أن يعارضه آباء الاستقلال فى كل كلمة كتبها

فى الاعلان الذى أذيع به استقلال الأمة الأمريكية ، وجلس كئيبا حانيا رأسه بين يديه لايدرى ماذا يصنع بتلك الملاحظات المتناقضة وكيف يكتب ما يرضاه هذا الفريق وذاك الفريق وهم يجددون الملاحظة مع كل تعبير ، ولا ملامة عليهم فى التدقيق الشديد لأنه اعلان تاريخى توزن فيه كل كلمة بموازين الحقوق والأرواح .

فخرج فرنكلين من تلك الجلسة الغائمة بفكاهة من فكاهاته السمحة هونت على جفرسون ما كان يلقاه ونشطت به الى تجديد العناء فى الحذف والابدال والاصغاء .

قال فرنكلين : انها قصة جون تومبسون تعاد من جديد .

وسأل جفرسون : من جون تومبسون هذا ؟

فعاد فرنكلين يقول : جون تومبسون هذا صديق قديم كان يتتلمذ على معلم مشهور بصناعة القبعات ثم خطر له أن ينفرد بالعمل ويفتتح له دكانا يكتب له اعلانا جامعا يجتذب اليه طلاب القبعات . فكتب الاعلان وقال فيه : « ان جون تومبسون قبعاتى يصنع القبعات ويبيعها نقدا »... وراح يعرض الاعلان على أصدقائه ليسألهم رأيهم فيه ، فقال له أولهم : انه لا حاجة به الى كلمة « قبعاتى » ما دام فى الاعلان أنه يصنع القبعات ويبيعها ، وقال له الصديق الثانى ان الناس لايهمهم انه صانع القبعة ما داموا يجدونها أمامهم معروضة للبيع ، وقال له الثالث انه من السخف أن يقول (يبيعها نقدا) ما دام معروفا عنه أنه لم يكن من أصحاب المصارف التى تقرض على الحساب ، وقال له الرابع انه ما من أحد ينتظر منه أن يتبرع له بالقبعة احسانا أو هدية ، فما حاجته أن يقول انه يبيع القبعات ؟ وبقى الاعلان هكذا بعد كل هذه التنقيحات: (جون تومبسون. قبعات) ... فقال له الصديق الخامس انه لاحاجة الى كلمة قبعات ما دامت صورة القبعة مرسومة فى الاعلان ... وانتهت النصائح والتعديلات ببقاء اسم جون تومبسون والى جانبه صورة قبعة ... وهكذا تنتهى بلاغة البلغاء كلما عرضوها على الناس للتنقيح وابداء الآراء

وهذه القصة — وحدها — كلمات فارغة لا يقرأها أحد ويظن أنها تساوى أن ينفق فيها وقت استماعها ، ولكنها فى ذاكرة فرنكلين وضعت فى موضعها فصلحت لتفريج أزمة ودفع سآمة وتجديد نشاط فى نفس عظيمة ، ولم يستطع فرنكلين أن يصنع بها هذه المعجزة لأنه يعرف حكاية تروى ، وانما استطاع المعجزة لأنه اتخذ من تلك الحكاية أداة للطبيعة السمحة المفطورة على تذليل الصعاب وتقدير المعاذير وقبول الدنيا على علاتها ، وأخذ الناس جملة بما طبعوا عليه من الهنات .

ونحن لا يفوتنا فى معرض الكلام على الأخلاق الفطرية ، أو الأخلاق الموروثة ، أن نقرر تلك الحقيقة المشهودة التى يتوقف عليها انصاف « الشخصية الانسانية » وتقويم كل ترجمة من تراجم العظماء بقيمة صاحبها ، ونعنى بتلك الحقيقة المشهودة أن الخلق الموروث لا يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من فضل الفرد فى الانتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التى ينتفع فيها بتلك المزايا . فاذا استطاع الفرد فى الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التى كانت نافعة لآبائه قبل جيل أو جيلين فلا بد من فضل له فى حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل اليه من تراث الأقدمين ، واذا كان الحطام الموروث قابلا للضياع أو كان الغالب عليه أنه يضيع ولا يبقى فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع الحطام اذا آلت الى المفرط فيها والعاجز عن صيانتها ، وقد توضع الفطنة فى غير موضعها فتضر ولا تنفع ، وتجور الشهوات على الجثمان القوى فتنهكه ، وقد يكون الشعور بالقوة من بواعث الشطط والتمادى فى الغواية وقد كان مساك الاعتدال فى خلائق الآباء والأجداد .

وفرنكلين لم يضيع ما ورث ولم يحتفظ به كما ورثه ، بل نماه وثبته وقواه ، وعاش الى ختام أيامه بثروته النفسية وعليها أضعاف مضاعفة من ثمرات السنين .

رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو فى السبعين فكتب الى صديق له يقول : « انه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط ، وبدنه أضخم مما يناسب طوله ، وعيناه رماديتان نفاذتان كالصلب الحديد. وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال . لا يلبس الشعر المستعار وشعره الطبيعى مرسل يتدلى على كتفيه ، ومن الغريب أنه لم يخطه الشيب الا قليلا مع أنه فى السبعين .. وقد تحدث الى أعظم العظماء فى العالم ولكنه كان يصغى الى تعليقاتى الغريرة كأنها تستحق الاصغاء حقا ، وقد أبديت ملاحظتى هذه بعد انصرافه لصديقى ايد روتلدج فضحك وقال لى : « اياك أن تخطىء فهمه . ان الدكتور فرنكلين كان مهتما حقا وأنت لاتعرف ، فانه ليهتم بكل شيء وكل انسان .. ويعنيه من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك »[1] .

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شيء وبكل انسان هو موطن العجب والاعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر المديد ولم تبخل على مهمة منها بحقها من العناية ولا على أحد بحقه من المبالاة ، وبقى الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه لا يهتم بشيء ولا يكترث لخطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب.

وليس أكثر من الحوادث والأنباء التى اعترضت هذه الحياة فى مراحل طريقها ، بل طرقها العديدة . وليس من اللازم للتعريف به أن نحصيها ونرتبها على حسب تواريخها ، فكل ما يهمنا فى ترجمة العظيم من حوادثه وأنبائه أن تصور لنا جانبا من جوانب شخصيته وسرا من أسرار عظمته واقتداره ، وسنتحرى ذلك فيما سنكتبه عن فرنكلين العالم وفرنكلين الكاتب وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف ، ونكتفى بالسلسلة التالية من أرقام السنين ومعالم الطريق لمراجعة المواقيت كلما

---

(١) هذه النادرة ونادرة القبعات من كتاب بن فرنكلين من فلادلفيا القديمة تأليف مرجريت كوسين .
Ben Franklin of Old Philadelphia by M. Cousins

دعت الحاجة اليها فى مناسباتها ، وهذه هى كما نقتبسها من تقويم سيرته فى كتاب رجال أمريكا تأليف ليونل الفين ، وهو تقويم واف فى بابه لمن يتتبع مراحل الطريق من هذه السيرة :

سنة	
١٧٠٦	ولد فى السابع عشر من يناير فى بوستون .
١٧١٤	قضى سنة فى مدرسة الأجرومية .
١٧١٤—١٧١٦	فى مدرسة تجارية .
١٧١٦	مساعدا لأبيه فى عمله .
١٧١٨	تلميذا لأخيه من أبيه ، جيمس ، فى صناعة الطباعة .
١٧٢١	ينشيء جيمس فرنكلين صحيفة «ذى انجلاند كورانت» رابع صحيفة فى المستعمرات .
١٧٢٢	بنيامين فرنكلين يحرر الصحيفة أثناء حبس أخيه لانتقاداته السياسية .
١٧٢٣	أخوه لا يحسن معاملته فيهجر بوستون الى فلادلفيا ويعمل فى الطباعة .
١٧٢٤	يغرى بالسفر الى لندن لشراء اللوازم ويتخلى عنه صاحب عمله الحاكم كيث ولا يبعث اليه برسائل التوصية التى وعده بها ، ويعمل فى الطباعة .
١٧٢٥	ينشر كتابه الأول نقدا لبعض الآراء الدينية .
١٧٢٦	يعود الى فلادلفيا ليعمل فى دكان ، ولكنه يعود الى الطباعة .
١٧٣٠	ينفرد بحيازة مطبعة ، ويتزوج .
١٧٣٠—١٧٤٨	طباع ناجح مطرد النجاح . يصدر تقويم ريتشارد المسكين وصحيفة بنسلفانيا جازيت ، ويتولى شئونا

سنة	
	مهمة فى حياة فلادلفيا العامةولا سيما مشروعاتاصلاح المدينـة وخدماتها الاجتمـاعية . يشـتغل بمباحثه ومخترعاته العلمية ويؤسس فى سنة ١٧٤٣ جمـاعة الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها .
١٧٤٨	يعتزل العمل محتفظا بمورد سنوى منـه يكفل له معيشته .
١٧٤٩ — ١٧٥٢	تجاربه الكهربية الأولى ، واثباته للكهربية فىالصواعق، واختراعه لعمود الصاعقة ، وشهرته العلمية الواسعة .
١٧٥١	نائب عن فلادلفيا فى هيئتها النيابية .
١٧٥٣	نائب مدير لمصلحة البريد فى المستعمرات .
١٧٥٤	ينوب عن بنسلفانيا فى مؤتمر ألبانى للمسـتعمرات ويقترح تكوين الاتحاد .
١٧٥٥	منظم تموين البعثة التى قادها الجنرال برادوك فى قتال الفرنسيين والهنود الحمر .
١٧٥٧	سافر الى لندن للنيابة عن الشعب فى خلافه مع ملاك الاقطاع فى بنسلفانيا .
١٧٦٢	عاد الى أمريكا .
١٧٦٤	سافر الى انجلترا مرة أخرى .
١٧٦٦	نوقش علنا بمجلس النـواب فى مطالب الأمريكيين بصدد القانون المعروف بقانون الدمغة .
١٧٦٧ — ١٧٧٥	تزداد شكوكه فى سياسة وزراء جورج الثالث ويزداد اقتناعه بضرورة اعلان المستعمرات لاستقلالها ، ويثابر مع ذلك على بحوثه العلمية وتتصل صداقته العلمية والسياسية والفلسفية بالعالم « بريستلى » ، ويتصل العطف بينه وبين بيرك خطيب الأحرار .

سنة	
١٧٧٥	يعود الى وطنه ، ويختار عضوا للمؤتمر القومى الثانى وعضوا فى لجنته المنوط بها تحرير اعلان الاستقلال ، ويباشر اعداد العدد العملية للمقاومة .
١٧٧٦	أرسل مع اثنين للنيابة عن بلده فى فرنسا .
١٧٧٧	نجاح عظيم ، وشهرة سياسية وفلسفية ودبلوماسية فى فرنسا .
١٧٧٨	عقد المعاهدة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وفرنكلين هو المندوب الأمريكى الوحيد فى فرنسا .
١٧٨٣	أحد المندوبين فى مفاوضات الصلح مع بريطانيا العظمى ، ويتم توقيع معاهدة الصلح بباريس .
١٧٨٥	يعود الى وطنه ، ويتقلد رياسة بنسلفانيا .
١٧٨٧	مندوب فى لجنة الدستور .
١٧٨٨	يعتزل الحياة العامة .
١٧٩٠	توفى فى السابع عشر من شهر أبريل .

العالم

اذا وجب أن نكتفى بصفة واحدة لفرنكلين تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملكات والمواهب التى أعانته على جميع أعماله وآرائه فتلك هى صفة العالم .

يقول كروثر فى كتابه عن مشاهير رجال العلم فى أمريكا : « انه لولا شهرته العلمية لم يكن خليقا أن يصبح عبقرى أمريكا السياسى فى باريس[1] » .. وهو قول صحيح من وجوه كثيرة ، ولكننا لا نعنى هذه الشهرة التى استفادها من بحوثه العلمية حين نقول ان صفة العالم تغنى عن صفاته الأخرى اذا وجب أن نكتفى منها بصفة واحدة ، وانما نعنى أن ملكته العلمية كانت ملحوظة فى جميع أعماله على اختلافها ، فكان عالما فى سياسته ، وكان عالما فى صناعاته اليدوية والفكرية ، وكان عالما فى وظائفه الادارية ، وكان عالما فى معيشته اليومية ، وربما استطاع فى أطوار كثيرة من حياته أن ينسى أنه سياسى ، أو ينسى أنه موظف ، أو ينسى أنه كاتب ، أو ينسى غير ذلك من تكاليفه وجهوده ، الا صفته العلمية فانها لم تفارقه قط فى مهمة من المهام الكبرى أو الصغرى التى تصدى لها طول حياته ، ولم يكن يشرع فى مهمة منها الا كانت ملكته العلمية أسرع ملكاته الى الظهور فيها والاقتران بها الى أن يفرغ منها .

والملكات العلمية كثيرة حين ننظر اليها متفرقة فى العلماء المنقطعين لدراسات العلم وتجاربه ، واذا قلنا عنها انها « ملكة علمية » بصيغة المفرد فهى فى هذه الحالة عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد وقد تتفرق بين كثير من العلماء ، ولكنها فى جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بواكير صباه الى ختام حياته .

---

(١) Famous American Men of Science by Crowther.

فمن الملكات العلمية جمع الحوادث المتفرقة المتشابهة ، فى ظاهرة واحدة . وقد كان فرنكلين عالما فى طفولته حين رأى أباه يصلى صلاة البركة على طعام كل وجبة فسأله : لماذا لا تصلى يا أبى على الذبيحة مرة واحدة تغنيك عن تكرار الصلاة قبل كل وجبة ؟ » .

ومن الملكات العلمية ملاحظة الأحوال الطبيعية التى تعرض لنا مصادفة ثم تكرار التجربة عليها للتثبت من حصولها بالاتفاق أو على التواتر والاطراد . وقد كان فرنكلين عالما فى صباه حين راقب نفسه وهو يسبح فى الماء وفى يده طيارة الورق ، فرأى أن العوم أيسر له وأسر له فى هذه الحالة من العوم بغير طيارة ، وعاود التجربة على أوضاع مختلفة حتى تثبت من تيسير الطيارة لجهود السابح فى الماء على أوضاع متعددة.

وقد كان فرنكلين عالما فى اختيار الخطة التى تيسر له اتقان الكتابة ، وكان عالما كذلك فى اختيار الخطة التى يتوخاها لمراقبة أخلاقه وتهذيب نفسه والعلم بنصيبه من كل خلق من هذه الأخلاق ومقدار حاجته الى المرانة عليه فى معيشته اليومية ، فقد كانت التجربة والملاحظة والاحاطة بالعوامل المختلفة والبحث فى جملة الفروض الممكنة بعض وسائله فى هذه المحاولات وما جرى مجراها ، وكان قياسه للنجاح الفكرى والنجاح النفسانى مرصودا عنده على الورق يقرره ويستدل منه على مبلغه من التقدم فيه ومبلغ الصعوبة أو السهولة فى هذا التقدم على توالى الأيام .

أعجبه أسلوب الكاتب الانجليزى « اديسون » فى مجلة السبكتاتور فأراد أن يمتحن نفسه فى القدرة على محاكاته وأن يدرب قلمه على الكتابة بهذا الأسلوب وهو فى أوائل عهده بالكتابة ، فاختار مقالة من مقالات الكتاب ودون معانيها وأغراضها العامة على ورقة ، ثم ترك القراءة فى الكتاب لينسى عباراته وألفاظه ، وعاد الى الورقة بعد أيام فأعاد كتابة المعانى التى دونها فيها معنى بعد معنى بعبارات من عنده لا يذكر ما يقابلها من عبارات الكتاب ، ورجع الى الكتاب بعد ذلك ليقابل بين الأسلوبين فى التعبير عن المعنى الواحد ، فوضح له الفرق بينهما ووقف على الأخطاء التى تحتاج الى العناية باصلاحها واجتنابها ، وعرف من عيوبه أنه قليل

المحصول من مفردات اللغة وانه يبحث عن الكلمة التى يؤدى بها المعنى فلا يجدها حاضرة فى ذهنه ، فعمد الى المقالات ينظمها شعرا لأنه يعلم أن الشعر يحتاج الى المترادفات من الكلمات التى تتفق فى معناها وتختلف فى أوزانها وعدد حروفها ومقاطعها ، وأنه يحتاج الى القوافى والفواصل فى سطوره المتوالية ، وأنه على ذلك سهل الحفظ والاعادة لأن الكلمة التى نبحث عنها مع العلم بوزنها وقافيتها لاتتعبنا فى البحث كما تتعبنا الكلمة المرسلة بغير وزن ولا قافية ، وكان يجرب مع هذه الطريقة طريقة أخرى فى امتحان القدرة على الترتيب والتعبير ، فكان يدون المعانى مختلطة مبعثرة ، ثم يعود اليها بعد أيام ينسى فيها ألفاظها وعباراتها فيبدأ بجمعها وترتيبها ثم يعاود كتابتها بألفاظ وعبارات من عنده ، ويسجل الفروق بين أسلوبه وأسلوب اديسون كما يسجل درجات التقدم فى تجربة بعد تجربة ، فلا يترك هذا التسجيل للظن والتخمين بل يراه أمامه محصورا بالأمثلة والشواهد والأرقام ، ولا يبالغ فى الثقة بنفسه ولا فى قلة الثقة بها على الحالين ، بل يعرف عيوبه وحسناته ويقول لنا فى ترجمته لنفسه انه كان يغتبط أحيانا كلما رأى له عبارة تفوق عبارة الكاتب فى جمالها ودقتهـــا .

وأراد فى سن الرجولة أن يروض نفسه على محاسن الأخلاق وأن يهتدى الى حظه منها ومبلغ افتقاره الى زيادتها أو تمكينها أو تهذيبها ، فأحصى الأخلاق المثلى وعرفها على النحو الآتى :

١ — الاعتدال : لا تأكل حتى الشبع ولا تشرب حتى النشوة .

٢ — الصمت : لا تنطق الا بما ينفع الناس أو ينفعك ، وتجنب الفضول والثرثرة .

٣ — النظـــام : اجعل لكل شىء موضعه ، واجعل لكل جزء من أعمالك وقته وموعده .

٤ — العزيمـــة : اعزم على أن تعمل ما يلزم ، واعمل ما تعزم على عمله بغير وناء ولا تقصير .

٥ — القصـد : لا تنفق شـيئا فى غير مصلحة لك أو لغـيرك ، ولا تبدد شيئا أو تنفقه عبثا .

٦ — النشاط : لا تضيع وقتا ، واشغل وقتك بما يفيد ، وانقطع عن كل عمل لا ضرورة له ولا داعية اليه .

٧ — الاخلاص : لا تلجأ الى خداع ضار ، وفكر ببراءة وانصاف ، وتكلم وفقا لما تفكر فيه .

٨ — العـدل : لاتسىء الى أحد بما يضره ، ولا تهمل منفعـة واجبة عليك .

٩ — التقـدير : تجنب الافراط والتفـريط ، ولا تستسلم لرد الاساءة بما توحيه اليك بواعثها .

١٠— النظـافة : لا تغفل عن النظافة فى شخصك ولا فى ملبسك ولا فى مسكنك .

١١— السكينة : لاتقلق للصغائر ، ولا للحوادث التى لاتمتنع ولا حيلة لك فيها .

١٢— العفـة : لا تطاوع شهوات الجسد فى غير داع من دواعى الصحة أو الذرية ، ولا تبلغ بها مبلغ البـلادة والضعف أو الاضرار بسلامتك وسمعتك أو سلامة غيرك وسمعته .

وأنبأه بعض أصدقائه أنه يوصف أحيانا بالكبرياء فأضاف الى هذه الأخلاق خلق التواضع ولم يعرفه كما عرفها بل اكتفى بأن كتب أمامه : « سر على منهاج المسيح وسقراط » .

ولما فرغ من احصاء هذه الأخلاق بعد عرض الأخلاق الانسانية جميعا على ذهنه ، ورأى أن هذه الأخلاق التى اختارها هى مسـاك المروءة وأجدرها منه بالارتياض عليها واستدراك نقصها — جعل لها درجات

يومية فى كل أسبوع ، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها ، ليبدأ الأسبوع التالى على عزيمة وبصيرة بحظه من النجاح والاخفاق .

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمى فى معيشته اليومية وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها الا على قدر معلوم وحساب مرقوم ، ومن تجاربه العارضة فى ذلك أنه رأى فى طريقه واعظا يلقى على الناس خطبة من خطبه الدينية ، وأحب أن يعرف مقدار الاقبال عليه ومبلغ أثره فى سامعيه ، فتراجع الى أقصى مكان فى الحلقة وعد خطواته وراقب انصراف الناس عن الخطيب وبقاءهم حوله ، وقدر لكل رقعة محدودة من الأرض عدد الواقفين عليها ، وعلم بذلك مكانة الخطيب .

أما كشوفه العلمية فقد كانت مقاييسه فيها تجمع هذه المقاييس وتزيد عليها خصلتين نادرتين فى زمانه ، ولا تزالان نادرتين فى هذا الزمان ، ولعلهما من الخصال التى لاتكثر فى زمان من الأزمنة .

هاتان الخصلتان هما : توحيد القوانين الطبيعية فى أرجاء الكون ، وتفتح الذهن لكل فرض واحتمال .

فقد كان له عقل يفكر فى حوادث السماوات والأرضين على نسق واحد ولا يقيم بين الحوادث فرقا تختلف فيه قوانين الطبيعة بين مكان ومكان . فلم يجد فى تفكيره فرقا بين انتقال الكهربا من سحابة الى سحابة ، وبين انتقالها من جسم الى جسم فى الأجهزة المصنوعة على النمط البدائى الذى شاع بين العلماء فى القرن الثامن عشر ، ولم يجد فرقا بين حركة الهواء فى الحجرة من أثر التسخين الصناعى وبين حركة الهواء فى عواصف البحار والمحيطات .

وكان يلتفت الى المشاهدات ولا يرفض منها شيئا بغير بينة وقبل التجربة والمراجعة ، وسنقرأ له فى المختارات من كلامه أنه كان يعيب المحدثين لاستخفافهم بمشاهدات الأقدمين ، ويعيب العلماء لاستخفافهم

بمشاهدات العامة والجهلاء ، فكل مشاهدة لها عنده حق من الاستماع والعناية الى أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، وربما انتهى الى حكم فيها ثم علق هذا الحكم على التجارب التالية التى يتهيأ لأصحابها أن يكشفوا من عواملها وأسرارها ما ينكشف للباحثين فى الوقت الحاضر .

ونذكر لهذه الخصائص العقلية أسباب شتى لتعليلها والرجوع بها الى ظروفها وملابساتها .

فمن هذه الأسباب أنه كان يعيش فى عصر « نيوتن » علامة الفلك والرياضة فى عصره ، وأنه اطلع على قوانين نيوتن التى يعلل بها حركات الأجسام العلوية والسفلية ، وألوان النور المنبعث من الشموس ومن المصابيح الصناعية .

ومن هذه الأسباب أنه سليل آباء وأجداد من الصناع الذين تعودوا التجربة العملية فى تركيب المعادن والأجسام ، وقد سلمت طوائف الصناع بعض السلامة من التقاليد الخرافية التى يتوارثها المتكاون على الغيب وعلى عوارض الخصب والجدب والوفر والشح فى محصولات الأرض ومزروعاتها ، فتحرر ذهنه من الخرافات الموروثة التى تعلل الحوادث بغير عللها المتكشفة لعقل الانسان ، وتسنى له أن يصل الى العلة المعقولة من طريق لا تعوقه فيه السوابق والغوامض والمحجبات .

وأسعده على هذه الخصلة أنه كان من سلالة الثائرين على السلطان الدينى فى القرون الوسطى ، وأنه لم يكن هو ولا آباؤه من المتقيدين برياسة كهنوتية فى مذهبه أو غير مذهبه ، فلم يشعر بالحجر الذى كان يشعر به الجامدون على العقائد الموروثة من بقايا القرون الوسطى .

ويحصى كروثر ، صاحب كتاب مشاهير رجال العلم المتقـدم ذكره أسبابا موضعية أو محلية هيأت له النجاح فى بحوثه العلمية ، ولم يكن على رأيه لينجح فيها لولا تلك الأسباب .

فعنده أن هجرة فرنكلين من بوستون الى فلادلفيا كان لهـا أكبر

الأثر فى الوجهة التى اتجه اليها وفى المباحث العلمية التى توافر عليها ، لأن بوستون كانت على أيام فرنكلين معقلا للمحافظين والمتشددين فى العقائد والأفكار التى ترتبط بالديون وعادات الاجتماع .

وعنده أن فلادلفيا كان يتوافر فيها الجفاف الذى يعين على التجارب الكهربية ، وكانت تتوافر فيها الى جانب ذلك مواد الخامات التى تجرى عليها تلك التجارب وتصنع منها أصناف الورق كالخرق والنفايات ، ولولا هذه المواد الميسرة لأحجم فرنكلين عن تجاربه الكهربية وعن التعويل على الصحافة والطباعة ونشر المطبوعات .

وقد تقبل هذه التعليلات جميعـــا وتبقى بعدها بقية لا يفسرها الا انفراد فرنكلين بالعبقرية التى ميزته بين الألوف من المشاركين له فى جميع هذه الظروف وجميع هذه الأسباب .

فماذا كان فرنكلين يعلم من قوانين نيوتن وسائر القوانين الطبيعية الى جانب علم الفطاحل من أعضاء مجمع العلوم فى بريطانيا العظمى .

لقد كانوا فى مجموعهم على الأقل يحيطون بما لم يحط به من معارف عصره ، ولكنه أدرك أن الكهربا فى البروق والصواعق هى الكهربا فى الصمغ والزجاج ، وأغربوا هم ضاحكين حين أفضى اليهم بهذا الرأى فلم يتحولوا اليه الا بعد سنتين .

وربما صح أن افتقاره الى العلم كان من مزاياه ولم يكن من عيوبه فى تلك الآراء التى كان يسبق اليها العلماء المتخصصين ، لأنه ، كما قال برنارد جاف فى كتابه عن علماء أمريكا[1] ، لم يكن مثقفا ولكنه لم يكن مشكولا أو مربوطا (Untramell) فلم تقف عقبات الآراء المحفوظة فى طريقه ، ولم تعوّقه القواعد التقليدية فى دراسة الآراء ... ولكن فقدان الشكال على كل حال لا يوجد لنا الجواد . فلا بد من جواد سباق وراء ذلك اللجام المخلوع أو المفقود .

(١) Men of Science in America by Bernard Jaffe.

ويجوز أن « فلادلفيا » ساعدت على التجارب الكهربية ، ولا يمتنع أن يكون الجو الرطب مساعدا عليها فى معرض آخر من معارض البحث والدراسة . ولقد حصل فرنكلين من بوستون على جهاز اعاره اياه صديقه الدكتور سبنس Spence الذى لا نعلم عنه شيئا غير هذه الاشارة اليه لهذه المناسبة فى ترجمة فرنكلين ... وكم بين المتنقلين من بوستون الى فلادلفيا من مسافر ومقيم ؟ وكم بينهم من فرنكلين ؟ !

ان الملكة العلمية الطبيعية فى هذا العقل العبقرى هى التفسير الذى لاغنى عنه لجميع أعماله وبحوثه، وغير هذا التفسير تفسيرات كثيرة من قبيل ما تقدم لا يستغنى واحد منها عن هذا المرجع الأول والأخير لجميع تلك التفسيرات .

وهذه الملكة الطبيعية هى التى أوحت اليه بغير تعليم وبغير تلقين أن يضع البحث العلمى فى موضعه الواجب ، فكل ما يقع تحت الحس فهو موضوع بحث ودراسة من الوجهة العلمية . وربما عاش معه فى عصره — أو عاش قبل عصره — أناس من الباحثين جعلوا هذه البحوث ترفا مختارا ترتقى اليه بعض الموضوعات وتقصر دونه موضوعات أخرى ، ولكنه هو لم يكن ليفرق بين ما هو صالح للحس وما هو صالح للبحث والدراسة ، فتراوحت مباحثه بين السحب والأمواج ، وبين درجات الحرارة وألوان الأقمشة ، وبين اصلاح النظارات واصلاح نظام الاضاءة فى المدن ، وبين التبريد بالتبخير وتهذيب الحروف الأبجدية ، ولم يتفتح أمامه موضوع بحث فأعرض عنه لأنه لا يدخل فى صدد البحوث العلمية كما يصنع الباحثون الذين لم يرزقوا مثل هذه الهبة الفطرية .

وقد كان للخيال شأنه — كما كان للواقع شأنه — فى البحث الذى اشتهر به وأكسبه اعجاب العارفين وغير العارفين ، وهو بحثه فى الكهرباء، واستخدامه فى الوقاية من الصواعق ، أو من غضب الآلهة كما كانوا يسمونه فى الأزمنة الغابرة .

فقــد كان المعجبون به يقولون عنه انه انتزع الصولجان من عاهل الدولة البريطانية وانتزع الصولجان من رب الصواعق والبروق جوبيتير إلٰه الآلهة عند الأقدمين ، ولم يخلع الخيال على عمل فرنكلين هذا مكانة أكبر من مكانته الحقيقية التى لا مجاز فيها ؛ فان الوقاية من الصواعق حقيقة أعظم من خيال المتخيلين عن عروش الأساطير ، وحقيقته العظمى فوق ذلك أنه صحح العقول والعقائد فأدركت حوادث الأرض والسماء كما ينبغى أن تدرك ، وأدركت صفات الاله المعبود كما ينبغى له من التنزيه والتعظيم .

ولقد تناول فرنكلين بحوث الكهربا وهى — على أحسن ما تكون — لعبة للتسلية ، فان هذه البحوث بدأت فى حجر الكهربا الذى تنسب اليه قبل الميلاد بستة قرون ، وعرف طاليس (٦٠٠ ق . م .) أن الكهربا المحتكة تجذب الزغب والنثارة الخفيفة فلم يفهم منها الا أنها « ذات روح » أو ذات حيــاة ، ثم جاء ثيوفراستس Theophrastus فاكتفى بتسجيل مشاهداته ولم يهتد الى تفسير معقول لهذه الظاهرة . ووقفت التجارب الكهربية عند هذا الحد الى القرن السادس عشر ، ثم تقدمت خطوة أخرى على يد العــالم الانجليزى وليام جلبرت طبيب الملكة اليصــابات حين استطاع أن يثبت أن هذه الظاهرة تتكرر فى بعض المواد وأن أجساما غير الكهربا تجذب الزغب والنثارة بعد حكها وتسخينها كالشمع والكبريت والماس وبعض المعادن النفيسة ، وأن الرطوبة تفقدها هذه القوة اذا صبت عليها السوائل ، الا الزيت فانه لا يضعف تلك الجاذبية فيها . وأن لأحوال الجو تأثيرا فى الجاذبية يختلف باختلاف الرطوبة والجفاف ، وتقدم جويرك Guericke مخترع المضخة الهوائية قليلا بالبحث الكهربى فلاحظ أن الأجسام المكهربة تتدافع أحيانا وأن الشرر يتطاير من بعضهــا ويصحبه صوت مسموع بمقداره من القوة ، ثم ورد خاطر التشبيه بالبرق والرعد على ذهن العالم الانجليزى وال wall ولكنه لم يفسره وترقب أن ينبغ فى العــالم ذهن عبقرى يفلح فى تفسيره ، ووقفت الدراســات العلمية

والاختراعات الصناعية بهذا البحث عند هذا الحد فلم تستخدم فى شيء أنفع من تركيب بعض الأجهزة التى تعرض هذه الظواهر ولا تقرن بها « نظرية » عامة أو فرضا من الفروض التى تؤسس عليها العلوم .

وفى هـذه المرحلة تسلم فرنكلين مباحث الكهربا فلم يزل بها حتى وضع لها تلك الفروض على قواعدها المقررة الى هذا اليوم ، فوحَّد بين ظواهر الكهربا فى الأرض والسماء ، وعرف الكهربية الزائدة والكهربية الناقصة ، أو الكهربية المشبعة والكهربية المتعطشة وهما المعروفتان اليوم باسم الموجبة والسالبة ، وراقب خاصة التوصيل والاقتباس فصنع الطيارة المشهورة لاستخراج الكهربا من السحاب ، ولم تكن هذه التجارب مأمونة العاقبة فى تلك المرحلة . لأن خصائص المادة الموصلة للكهربا لم تكن معروفة بتفصيلاتها ولم تزل متفرقة مبعثرة لاتربط بينها رابطة تجمع المتشابهات منها على قاعدة واحدة ، وفى احدى هذه التجارب أوشك أن يهلك لابتلال الخيط الذى ربط به الطيارة أثناء نزول المطر ، ولولا أنه لم يتشبع بالماء فى جميع أجزائه لهلك رعدة كما هلك الأستاذ ريشمان Richmann السويدى فى تجربة مثل هـذه التجربة كان يجريهـا فى بطرسبرج ، فكان استمرار فرنكلين على تجاربه — مع هذه العوارض المبهمة — مخاطرة أخطر مما يقال عنه « انه لعب بالنار » .

ونحن فى عصر التحليل وتوزيع الأعمال نتساءل : هل كان فرنكلين عالما أو مخترعا ؟ هل كان يدرس العلم بعقـل الباحث الذى ينقب عن الحقيقة ويضع النظريات ويوفق بين الحوادث المبعثرة ليجمعها الى قانون واحد ، أو كان يدرس العلم دراسة الصانع الحاذق الذى يخترع الآلات أو يحكم صنعها بزيادة المعرفة والتحقيق ؟

ان التفرقة بين العقلين سهلة بينة فى كثير من الأحوال . فهناك العالم الذى يحسن التفكير والفهم والاحاطة بالأفكار والمفهومات ، ولكنه لا يحسن تنفيذ الأفكار فى آلات مخترعة ولا يحسن توجيه المنفذين الى صنعها واختراعها ، وهناك الصانع الذى يباشر التركيب والفك واعادة

التركيب بمهارة يدوية وحيلة تطرأ فى ساعتها من تلك الحيل التى جعلت العرب يطلقون اسم علم الحيل على علم المكنات ، وربما كانت هذه الحيل جميعا خفية على الصانع عند ابتداء المحاولة الأولى ثم تظهر له بالمعالجة والاختبار كأنها طرق يسير فيها حتى يراها مغلقة أمامه فيرجع عنها ويتحول الى غيرها ، أو كأنها فى النهاية من قبيل المصادفة التى لم يكن ينتظرها .

وفرنكلين كان صانعا نشأ بين الصناع يعمل ويجرب ويحاول ويعتمد على التواتر كما يعتمد على المصادفة ، ولكنه فى البحث عن النظريات والعلاقات بين الحوادث المبعثرة لم يكن مقصرا عن شأو أمثاله من المفكرين الباحثين ، فلم تكن تعوزه ملكة لازمة للعالم الباحث عن الحقائق والنظريات ، وكل ما يحتاج اليه هذا العالم الباحث من تفتح الذهن وصدق الملاحظة وحسن الترجيح والموازنة بين الأسباب والاحتمالات فهو من عاداته الذهنية فى مباحثه العلمية وفى معيشته اليومية ، فلم يكن ينهض من مكتب العالم ليدخل الى مصنع العامل المخترع ، بل كان مكتبه ومصنعه موضعا واحدا تشترك فيه ملكاته وخصائص ذهنه هنا وهناك .

الا أنه كان يعتقد أن المعرفة مصلحة انسانية ، وأن العلم الذى لايتحول الى منفعة عامة لاقيمة له فى العقل ولا فى الحياة ، ومن رأيه أن الكشف العلمى الذى لايوضع موضع التطبيق فى المنافع العامة ولا يصلح لشىء من الأشياء هو كشف « غير صالح » على الاطلاق .

وكأنما كان خجلا من اضاعة الوقت فى قدح الشرر وجذب الريش والزغب وتجريب هذه الألاعيب الكهربية على غير جدوى ، فكتب (صيف سنة ١٧٤٩) الى صديقه العالم الانجليزى كولنسون Collinson يروى له — فى شىء من التهكم — كيف يعتذر الى أولئك الذين ساءهم ، أو أحفظهم ، قليلا أن يسمعوا عن تجارب الكهربا ولا يحسوا لها أثرا ملموسا فى نفع بنى الانسان ، فقال له انه خرج مع طائفة من صحبه الى

نزهة خلوية تطهو طعامها على نار مستمدة من الكهربا : « ويشتعل فيها الكحول بشرارة تعبر النهر من شاطىء الى شاطىء بغير موصل غير الماء ، ويقتــل فيها ديك رومى بالهزة الكهربية وينضج على ســفود تديره الكهربا أمام نار مقدوحة من القنانى الكهربية ، وعما قليل يستطاع أن يشرب نخب الكهربيين المشهورين فى انجلترا وهولندة وفرنسا وألمانيا فى أكواب مكهربة ترعش الشفاه قليلا عند مساسها بفعل التيار المنبعث من بطرية كهربية » [1] .

ومنافع الكهربا اليوم لا تحصى ولا يضارعها شىء مما كان يستخدم قبلها فى الصناعة وتيسير أعمال الناس أو تيسير الأعمال للمــلايين من المهندسين والصناع والتجار والوسطاء بين الصناعة والتجارة ، ولكن فرنكلين استطاع أن يقنع العالم بفائدة لها تساوى جهود المئــات من العلماء فى المئات من السنين ، لأن العمود الذى اخــترعه للوقاية من الصواعق قد وازن تلك الجهود وأربى عليها ، ولم يوازنها ويرب عليها عند الذين أصابتهم الصواعق أو تعرضوا للاصابة بها حيث يتتابع نزولها، بل هو قد وازنها وأربى عليها عند الملايين من الذين لايتعرضون للصاعقة ولا يعرفون منها الا اسما يهول ويتردد فى مقــام الانذار والوعيــد ، ووازنها وأربى عليها عند أرباب الخيال الذين تصوروا جوبيتير على السحاب وتصوروا فرنكلين على الأرض ندين يتبارزان ، ويخلع الند البشرى منهما سلاح الند السماوى المقدس فى ملاحم الشعر ومزاعــم الأســاطير .

ولم يعدم المازحون قائلا يقول : « ان عمود الصواعق قد صب على فرنكلين صواعق الغضب والنقمة من عاهل فى الأرض يناظر جوبيتير فى السماء ، ذلك هو جورج الثالث ملك انجلترا فى أيام الثورة الأمريكية. فانه كره أن يشيع فى العالم اختراع رجل ثائر على التاج ولم يقدر على

---

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكى الأول تأليف برلنجيم
Benjamin Franklin The First Mr. American by Burlingame.

منعه وتحريمه لأن خوف الناس من صواعق السماء أعظم من كل خوف يخافونه من صاحب التاج ، فتوسل بكل وسيلة يقدر عليها لهزيمةفرنكلين فى هذا الاختراع .

وكان فرنكلين على طريقته البسيطة قد عرف أن كهربا السحاب تنجذب الى الموصل السهل فتسرى فيه ولا تصطدم بعائق على الأرض تنفجر الصاعقة من جراء المصادمة بينها وبينه ، فاختار لجذب الكهربا السحابية وتوصيلها الى الأرض بغير عائق وبغير مصادمة عمودا قائما ينتهى الى أسلاك صالحة للتوصيل بالكهربية الأرضية ، وفضل العمود المسنن على العمود المستدير من أعلاه ، لأنه يقلل المصادمة وبواعث الانفجار .

فلما ثبتت فائدة العمود لمنع الصواعق نشب الخلاف على الرأس المسنن والرأس المستدير أيهما أسلم فى الوقاية وأصلح فى تحقيق النظرية العلمية ، فأوعز الملك الى سير جون برنجل Pringle رئيس مجمع العلوم أن يفضل العمود المستدير على العمود المسنن ، ونقل المسألة من ميدان العلم الى ميدان السياسة وواجبات الولاء والطاعة ، فأجابه العالم النبيل بالجواب الذى يستحقه وألقى اليه فى جوابه أن قوانين الطبيعة لاتخضع للمراسيم الملكية ، واعتزل العمل فى منصبه الرفيع ايثارا للأمانة العلمية على الحظوة والجاه ، وشاعت يومئذ فى انجلترا أبيات من الشعر خلاصتها أن صواعق الغضب التى تملكها أيها الملك جميعا لاتنفعك اذا أردت أن تجاوز الحد The Point ... وهى كلمة فى الانجليزية ترادف معنى السن والنقطة وتقابل فى هذا المقام معنى الدائرة والكتلة ، يريد الناظم بذلك حد العمود المسنن الذى فضله فرنكلين ووافقه على تفضيله كبير العلماء ، ومعه سائر العلماء .

ومباحثه العلمية التى لم تشتهر هذه الشهرة منوعة فى جوانب منوعة من الحياة العامة والخاصة ، أحاطت بالعلاج الكهربى وعلاقة الصحة بالعرق والتبريد بالتبخير ، وفنون شتى من الاستشفاء بالوسائل الطبيعية

وشملت البحث فى غازات المستنقعات وحفائر الأرض وسرعة السفن فى الماء الضحل والماء الغزير ، ولغات القبائل البادية فى أمريكا الشمالية ، واشارات التخاطب بين النمل والحشرات ، ومستقبل الطيران ومستقبل علم الضوء على اعتبار الضوء حركة من حركات التموج فى الفضاء ، ولم يدع البحث فى التشريح ووظائف الأعضاء وأساليب التطبيب ، ولا فى الموسيقى وفن الايقاع ولا فى الألوان والأشكال ، وجرى فى هذه المباحث كلها على وتيرته المعهودة من تسخير المعرفة للمنفعة وتطبيق النظريات على الوقائع المتداولة ، وهى عادة ذهنية لاتعيب التفكير العلمى الصحيح الا اذا كانت المنفعة المقصودة منفعة شخصية ينسى المرء فى سبيلها منافع أبناء نوعه وحقائق العلم أو قوانين الطبيعة ، وتلك هى الخلة التى برىء منها هذا العقل العلمى المطبوع فكانت فائدة بنى الانسان أجمعين مقدمة لديه على كل فائدة ، ولم يكن نصيبه من هذه الفائدة الكبرى غير الفتات على المائدة .

وقد ظهر موقفه من المباحث النافعة فى اختراعه للموقد الذى سمى باسمه ويعرف الآن باسم موقد فرنكلين ، على ما دخل عليه بعد ذلك من التعديل والتحسين .

فهذا الموقد من الآلات التى يمكن أن تصنع بالمئات والألوف ويحتكرها المخترع فلا تباع الا من مصنعه أو باذن منه ، وكان تعويل الأمريكيين قبل اختراع هذا الموقد على كوانين المداخن التى تستنفد الكثير من الوقود وتضيع الكثير من الحرارة المستفادة منه ، وتصيب المستدفئين بكثير من الأضرار لأنها تدفىء الجانب المواجه لها من الجسم والجانب القريب اليها من الحجرة ، وتدع الجسم كما تدع المكان مختل التوازن فى درجات الحرارة مع غلاء الوقود الضائع وشدة الحاجة الى الدفء والوقاية من البرد فى الشتاء ، وشدة الحاجة الى المواقد على العموم لمطالب الغذاء وغيره من اللوازم البيتية .

فاخترع فرنكلين موقدا يوضع وسط الحجرة وينقل الى حيث يشاء

الساكن ويحفظ الحرارة كلها للتدفئة ويرسل الدخان الى المدخنة من أنبوبة تركب عليه وترفع منه على حسب الحاجة ، وأراد حاكم المدينة أن يكافئه على هذا الاختراع فكتب له تسجيلا باحتكاره وقرر أن يحرم صنعه وبيعه بغير اذن من مخترعه ، فشكره فرنكلين واعتذر من قبول هذا التسجيل ، وقال فى اعتذاره انه ينتفع هو وأبناء عصره بمخترعات الأقدمين ولا يؤدون اليهم ثمنا لمنافعها الجزيلة ، فمن الانصاف أن تنفع اخواننا وأبناءنا بما نهتدى اليه من المصنوعات والمخترعات بغير جزاء .

ولم يجهل فرنكلين وهو يعتذر هذا الاعتذار أن الشهرة الأدبية غير مضمونة للمخترعين والباحثين وليست عوضا خالصا من الحسد والادعاء، فقد كان أعلم بالطبيعة الانسانية من أن ينخدع هذه الخديعة ، وكان يكتب الى صديقه جون لينتج Lining بعد ظهور العشرات من مخترعاته فيقول ان الحسد يأبى على المنافسين أن يعترفوا للمخترع بفضل اختراعه وان الغزو يسول لهم بعد ثبوت نفعه أن يدعوه لأنفسهم ويكابروا فى الدعوى فيصدقهم الحساد والجهلاء ، وانه ما من انسان مالك لقواه العقلية يتمنى لصديقه أو لولده أن يشتغل بالاختراع[1] .

ولعله من مصداق ما تقدم فى كل معنى من معانيه حوار الدكتور جونسون وتلميذه بوزويل عن تعريف فرنكلين للانسان .

قال بوزويل : « أحسب أن تعريف الدكتور فرنكلين للانسان تعريفه حسن : حيوان صانع للآلات » .

والذين قرأوا مفكرات بوزويل عن أحاديث الدكتور جونسون يعلمون أن الأستاذ لم يسمع من تلميذه فكرة الا سارع الى مخالفته فيها، وأنه لم يكن من عادته أن يمنح موافقته لشيء من الأشياء بغير اعتراض.

وعلى هذه العادة أجابه الدكتور قائلا : « لكن كم من الناس لم

---

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكى الأول تأليف برلنجيم المتقدم ذكره .

يصنع آلة قط ؟ وهب انسانا بغير ذراعين ، فانه لايقدر على صنع آلة من الآلات ؟ » .

ان تعريف فرنكلين للانســان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفــاه بالشرط الجامع المانع فى التعريف ؛ فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرةالانســان على صنع الآلة واستخدامها ، وهــذه القدرة هى المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون وأن بعضهم يولدون بكماً أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعى أن يشذ بعض الناس ويتأبد فى الخلاء وينفر من الاجتماع ... ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمى المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ؛ وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة فى طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات ، وأن تبرز مع هذا وذاك سهولة الانكار حتى من الفضلاء !

ولم يقنع فرنكلين بخدمة العلم بفكره منفردا مستقلا عن القادرين على خدمة العلوم فى بيئته وعصره ، فأنشأ نادى « الجانتو » الذى أصبح مجمعا للعلوم والآداب ثم أصبح بعد ذلك جامعة بنسلفانيا القائمة الى اليوم ، ونظم الجماعة الفلسفية الأمريكية كما نظم أول مكتبة عامة تقتنى الكتب بالشراء والاستعارة وتعيرها القراء ومن يحتاجون الى المراجع من أصحاب المباحث والدراسات ، وقد كافأته الجماعة الفلسفية على غيرته العلمية وجهوده فى نشر المعرفة وتمكين العلماء من نشرها بانتخابه رئيسا لها مدى الحياة ، وهو تقدير من النخبة المختارة يفوق التقدير الذى يلقاه طلاب الرياسة فى مناصب السياسة ، وكان فرنكلين فخورا به متعزيا به عما كان يلقاه من حساده الأقوياء من البخس المتعمد ونكران الجميل .

ومهما تتعدد جهوده ومشاركاته فى الأدب والسياسة والاجتماع فليس

من الحصر الذى يزرى بها أن نقول انها كانت فى جملتها وتفصيلها جهود العالم المطبوع ، بذلك المعنى الذى افتتحنا به الكلام فى هذا الفصل عن فرنكلين العالم ، وزبدته أن الملكة العلمية لم تفارقه قط فى تلك الجهود والمشاركات .

الكاتب

اذا كنا قد عرفنا طبيعة هذا العقل من الالمام السريع بحياته العلمية فمن اليسير علينا أن نعرف خطته اذا اشتغل بالكتابة فى عصر المطبعة ، فانه على التحقيق لم يكن ليستطيع أن يعفى نفسه من عمل يتصل بهذه الصناعة ، وكذلك كان كاتبا وطابعا وناشرا ومديرا للعمل ، وسنرى كيف كان كاتبا يساهم بقلمه فى جميع الموضوعات التى تسهم فيها الأقلام . أما الطباعة فقد كان فيها صفافا وحفارا ومديرا للمكنات ومصلحا لما يختل منها ، ويكاد أن يحسب مع المهندسين المكنيين فى زمانه لأن هذه الهندسة لم تتشعب فى ذلك الزمن تشعبا يصعب عليه أن يحيط به على طريقته فى الاحاطة بكل عمل قريب من رأسه ويديه ! وأما النشر فلم يترك شيئا يشتغل به الناشر فى عصره دون أن يتولاه ويبلغ به مداه .

ويقول فرنكلين فى ترجمته لنفسه انه لا يذكر زمنا لم يكن يقرأ فيه ، وهذا مع ذاكرته القوية التى أعانته على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك المحصول اللفظى ، والفكرى ، الذى يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب .

وقد قيل عنه انه لم يوجد فى العصر الحديث كاتب كان حظه من التعليم المدرسى أقل من حظه ، وكان فضل المعلمين عليه أقل من فضله فى تعليم نفسه ، وكان عاشر أبناء أبيه فنذره لخدمة الدين ، ثم تبين أن التعليم فى المدرسة الكهنوتية يفوق طاقته فأدخله مدرسة من مدارس الأجرومية والتربية الأولية ، ومكث فى هذه المدرسة — مدرسته الثانية — من الثامنة الى العاشرة ، ثم أخرجه أبوه لمساعدته فى صناعته .

وكان الصبى المشغوف بالقراءة يلتهم كل ما صادفه من الكتب فى داره وعند أقربائه ، فقرأ الكتب التى يقتنيها أبوه فى مسائل الدين

وخلافات المذاهب ومناظرات العلماء اللاهوتيين ، ووقعت له نسخة من كتاب « رحلة الحاج » للكاتب المتصوف بنيان Bunyan فقرأها وأعاد قراءتها ثم باعها ليشترى بثمنها أجزاء من مجمــوعة المتسببين [1] Chapmen Books التى تنشر تبــاعا وتلم بالموضــوعات المنوعة من التاريخ والجغرافيا والنوادر والسير والعجائب الصناعية أو الطبيعية ، وهى قراءة توافق ذهن فرنكلين المشغول بالتوسع والتنويع

ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم بلوتارك وذكريات زينوفون ودراســات لوك وشافتسبرى ورسائل ديفوى ومقالآت كوتون ماثر عن فعل الخير وغيرها من أشباه هذه المؤلفات القيمة التى كانت فى متناول يده ، وقد أعجب أصحاب أبيه بذكائه واقباله على القراءة وفهمه لما يقرأ فتبرعوا باعارته ما عندهم من الكتب ، وشجعهم على اعارته باعادته كل ما يستعيره فى أيام معدودات ، ومنهم بائع كتب كان يعيره ما يطلبه كتابا كتابا فى المساء ليعيده اليه فى النهار التالى ولا يتمكن من البر بوعده الا أن يسهر على مطالعته طوال الليل الى الفجر على نور المصباح الضئيل .

والذى قرأه على هذا المنوال كثير ليس فيه كتاب واحد من كتب اللغو والفضول ، فبلغ السادسة عشرة ومعلوماته تزيد على معــلومات أبناء الثلاثين من طلاب العلم والمشتغلين بالاطلاع ، وفكر فى الكتــابة على سبيل التجربة فأحسن اختيار المؤلف الذى يقتدى به ويوافق منحاه وثابر على الاقتداء به والطموح الى محاكاته والتفوق عليه اذا تسنى له سبيل التفوق ، حتى أخذ منه كل ما فى وسع تلميذ أن يســتفيده على البعد من أستاذ .

كان اختياره للكاتب اديسون صاحب مجلة السبكتاتور دليلا عــلى

---

(١) المتسبب كلمة يطلقها العامة على الرجل الذى يلتمس الرزق من الحرف المختلفة كالبيع والشراء والصناعة والوساطة ، ولها اصل فصيح اذا ردت الى التماس الرزق من أسبابه المتيسرة ، ولهذا ترجمنا بها الكلمة الانجليزية التى تفيد هذا المعنى .

ملكة ناقدة مبكرة عرفته بملكات ذهنه ومنهج تفكيره وتعبيره ، فليس فى الكتاب من تتراءى ملامحه جلية مفصلة فى أسلوب فرنكلين مدى حياته كما تتراءى فيه ملامح هذا « الأب » الفكرى الذى اختاره لقدوته بين عشرات من الكتاب .

وكان أخوه جيمس فى هذه الأثناء قد اشتغل بالطباعة وعهدت اليه صحيفة بوستن جازيت Boston Gazette باصدارهافى مطبعته ، ، فأصدر منها فى أواخر سنة ١٧١٩ أربعين عددا ثم اختلف أصحابها معه فعهدوا بطبعها واصدارها الى مطبعة أخرى ، فخطر له أن يستقل باصدار صحيفة يملكها ويحررها ويدير عليها أعمال مطبعته التى أوشكت أن تتعطل وتخسر سمعتها وعملاءها أمام المطبعة الأخرى التى تنافسها ، فأنشأ صحيفة جواب انجلترا الجديد New England Courant فى شهر أغسطس سنة ١٧٢١ .

وألحق فرنكلين بالعمل فى المطبعة متتلمذا على أخيه فى صناعة الطباعة وهو فى الثانية عشرة ، فلما استقل أخوه باصدار صحيفته لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة ولم يبق فى الصناعة عمل لم يجرب يده فيه ولم يتقنه غير الكتابة ، فأخذ فى معالجة هذه الصناعة على منهجه الذى شرحناه اجمالا فى الكلام على طريقته العلمية .

وكان حب الاتقان فى هذه الصناعة مطلبا طبيعيا يحسه من أعماق نفسه ، فلم يذهب مع الغرور وتحرى الاتقان من أبوابه الصالحة ، وعلم أنه لا يستغنى — بعد كل ما قرأه — عن المزيد ثم المزيد من القراءة ، فاقتطع من قوته ليشترى الكتب التى لا تستعار ، وخيل اليه من بعض مطالعاته أنه آمن بمذهب النباتيين فاقترح على أخيه أن يعطيه طعاما بغير لحوم ويضيف ثمنها الى أجره القليل ، فكان يشترى الكتب بثمن الطعام.

وأدركته حصافته التى لا تغيب عنه وهو يطرق أبواب الشهرة الكتابية فأخفى اسمه واتخذ له توقيعا مستعارا باسم سيلنس دوجود Silence Dogood أى « صمتا واعمل خيرا أو واصنع معروفا » وجعله

اسما لامرأة وصفها فى بعض مقالاته ، وعنى فى جميع تلك المقالات بالتشويق واجتذاب القراء بالفكاهة والنقد الاجتماعى الذى يعجب القراء من الرجال والنساء معا لأنه يلمس شكاياتهم ويحدثهم عن مشكلاتهم وأوجاعهم ولا يحيف على طائفة لمرضاة أخرى بل يسوى بينهم جميعا فى النقد وملاحظة العيوب . ومن دأب الناس دائما أن يعجبوا بهذا التعميم فى الملامة والسخرية لأنه يصيبهم كما يصيب الآخرين ، ويقيم الكاتب أمامهم مقام الحكم العدل أو الحكم الحكيم الذى يعرف أحوالهم ولا يجور على أحد منهم أو يحابيه باخفاء ما يعرفه عن نفسه وعن صحبه من المآخذ والعيوب .

وأصلح ما يكون لهذا النقد الشامل كاتب مقنع واسم مستعار ، لأن هذا الاسم المستعار يجرده من « اللون الشخصى » الذى يدعو الى الاتهام بالحيف والمحاباة ، أو يدعو الى المنافسة والحسد وتقدير الكاتب بمظاهره الاجتماعية دون مزاياه الكتابية ، وقد خطر لفرنكلين حين أخفى اسمه أن مقالاته عرضة للاهمال والاستخفاف قبل النظر فيها ، وربما بخسها أخوه وزملاؤه الذين يراجعون معه موضوعات الصحيفة كل حق لها حتى حق النشر والاستحسان ، وصح تقديره بعد انكشاف أمره ومعرفة اسمه . فان أخاه قد توهم أنه اغتر بالسمعة والاعجاب وتطلع الى منزلة أكبر من منزلته فى أعمال الصحيفة ، فتغيرت معاملته وتعددت مشاجراته واضطر الأخ الصغير بعد حين الى مفارقة الأخ الكبير ومفارقة المدينة كلها ثم مفارقة الديار الأمريكية الى العاصمة الانجليزية .

ومن يقرأ البقية الباقية من مقالات « سيلنس دوجود » يشعر أن النواة كلها كامنة فيها ، فقد برزت فيها ملامح الرجل التى يراها قارئه لأول وهلة فى كتاباته بعد الستين وبعد السبعين والثمانين ، وكل ما جد عليها فانما هو من قبيل النمو الطبيعى للبنية المتكونة أو الصقل والتركيب للجوهر النفيس .

وقد تعلم الفرنسية بعد سن الكهولة وكتب بها أو ترجم اليها بعض

كتاباته الانجليزية ، وأخلصت أستاذته فيها — مـدام بويون — فى امتحان أسلوبه الفرنسى فقالت انه « واضح ان لم يكن صافيا » وقال غيرها ما يشبه هذا فى كتاباته الفرنسية والانجليزية على السواء ، فهى واضحة سهلة محكمة ، والنقاد متفقون على دقتها وجلائها وصـحة تعبيرها عن معانيها ، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك من محاسن البلاغة ومقاصد الكتابة ، ولا سيما القدرة على النفاذ الى الأعماق أو التحليق فى القمم والآفاق .

وقد لخص آراء النقـاد فيه كتاب مدرسى وجيز فى تاريخ الأدب الأمريكى لثلاثة من أساتذة الأدب فى الجامعات الأمريكية ، يغربل هذه الآراء من مصادرها المتعددة ويجتهد فى أمانة النقل كما يجتهـد فى حسن الموازنة والترجيح .

فذكر من محاسن هذه الكتابة وضوحها وسلامتها وقـوة تعبيرها وما يتخللها من الصور الخلابة والفكاهة السائغة والقدرة على جوامع الكلم مع سلامة الادراك وايراد الحقائق التعليمية فى صـياغة ترضى وتشوق .

وذكر من عيوبها أنها تفتقر الى جزالة الخيال والرشاقة التى اتسم بها أسلوب أستاذه اديسون والافراط فى النزعة العملية المـادية التى لا ترتفع الى القيم العليا[1] .

ونعتقد أن هذه الموازنة تلخيص عادل لما قيـل فى محاسنه وعيوبه الكتابية ، وأن فرنكلين نفسه لم يكن يجهل هذه العيوب ولم يشـغل باله بمحوها أو انكارها ، وألقى باله كله الى محاسنه المحققة فاحتفـل بتحسينها وحافظ عليها .

وكل ما كتبه عن البلاغة الكتابية يعزز تلك الآراء عن « نزعته العملية

(١) Outline History of American Literature by Crawfored, Kern, and Needleman.

المفرطة » واخضاعه كل فكرة تجول فى ذهنه لحدود التقرير والتطبيق .

وفن الكتابة عنده كغيره من مزاولات الحياة وضروب الأعمال وسائر الفنون : فكرة تتجمع من البحث فى الغرض المقصود منها ، ثم نظرية يتأدى اليها من ذلك التفكير ، ثم تطبيق يصححه بالتجربة والمراقبة وتقدير التقدم فيه بمقياس من مقاييس الواقع المحسوس .

ومن الحوار التالى تتبين مذهبه فى الفكرة النظرية عن الكتابة وعن التطبيق العملى الناجح لتلك الفكرة النظرية .

قال : « كيف نحكم على جودة الكتابة ؟ أو ما هى الصفات التى ينبغى أن تتوافر للكتابة كى تعد من الكتابات الجيدة التامة فى نوعها ؟

« والجواب أن الكتابة تكون جيدة اذا جنحت الى افادة القارىء بزيادة قسطه من الفضيلة والمعرفة ، وبغير نظر الى نية الكاتب ينبغى أن يكون المنهج محكما يستطرد — على انتظام — من الأمور المعلومة الى الأمور المجهولة فى تحديد وتوضيح وبغير لبس ولا اختلاط ، وينبغىأن تكون الكلمات المستخدمة أقواها تعبيرا عن معانيها على شريطة أن تكون كذلك أشيعها وأدناها الى الافهام ، ولا ينبغى أن يقال فى كلمتين ما يمكن أن يقال فى كلمة ، ولا حاجة الى المترادفات الا نادرا وعلى أن يكون وقعها فى جملته سائغا فى الأسماع ، ونوجز فنقول انها ينبغى أن تكون سلسلة واضحة موجزة لأن الصفات التى تناقض هذه الصفات لا تروق . وننظر الى المسألة من ناحية أخرى فنقول ان الرجل السيىء قد يكتب المعنى السيىء كتابة جيدة ، وانه اذا ساءت نيته قد يستخدم أصلح الأساليب والبراهين على حسب القراء للوصول الى بغيته ، وعلى هذا الاعتبار نقول ان أجود ما يكتب هو أجود ما يصيب به الكاتب مرماه » .

فالكتابة الناجحة هى الكتابة الجيدة فى تقدير فرنكلين ، ومقياس النجاح هو « التطبيق العملى » لفكرة مقررة ووجهة مرسومة ، وهذا هو فرنكلين كله مرة أخرى يتمثل فى صناعة القلم وفى كل صناعة .

ويصـــادفنا فى تراجم فرنكلين رأى متفق عليه بين الواقعيين العمليين والنظريين المثاليين ، وهو هذه الغاية الواقعية العملية التى يرتادها فى كل مطلب يعنيه ، وربما لمسنا فى كلام الواقعيين العمليين شيئا من الاعجاب فى التنويه بهذه الصفة ، وربما لمسنا من الجانب الآخر شيئا من الغضاضة فى تصريح النظريين المثاليين بها أو تلميحهم اليهـا ، ولكنهم لا يختلفون فى وصفه بهذه الصفة واعتبارها احدى صفاته البارزة ، بل كبرى صفـاته العقلية والنفسية بين سائر الصفات .

على أننا نرى أن النزعة الواقعية والنزعة المثالية فيه تتقاربان ، أو أنهما على الأقل لا تتنافران ولا تتعارضان ، فانه يستقصى العمل الى غاية مداه ولا يستطيع أن يدخر جهدا من جهوده يتسع أمامه المجال لبلوغ الكمال الواجب فى عمل من الأعمال .

وقد نجح فى الكتابة الصحفية وقرر مكانته فيها وأصبح فى مجالها علما فردا لا يدانيه أحد من معاصريه ، وكان هذا النجاح خليقا أن يقنع غيره بالوقوف عنده والاكتفاء به فى صناعة الصحافة وصناعة الطباعة ، ولكنه لم يقنع به ولم يقف عنـده ، ولم يدع شيئا يقدر عليه فى هـذه الصناعة الا حاول أن يبلغ منه مايعينه على الاستقلال والكفاية ، حتى سبك الحروف للمطبعة ، ولم يكن فى بلاده يومئذ سباكون للحروف .

وديدنه فى هذه الخطة هو ديدنه فى كل مطلب ، فانه يفكر فى الشروط التى ينبغى أن تتوافر للصحفى ثم يأخذ نفسه بتحصيلها وتوفيرها ولا تثنيه عقبة ترصد له فى طريقها ، مما ينثنى أمامه النظريون المثاليون ولا يتجشمه كل عامل من المجتهدين الواقعيين ، وعلى هذه الخطة أخذ نفسه بالاطلاع على المعـلومات الفلكية الضرورية لاصدار التقويم ، وفهم أن الالمـام باللغات مزية واجبة للصحفى الذى يريد أن يتقن عمله بين زملائه ، وبخاصة فى ذلك الزمن الذى تعددت فيه لغات النازلين بالولايات الأمريكية ولم تنتشر فيه لغة واحدة للكتابة والكلام كما حدث بعد حرب الاستقلال ،

فتعلم من الأسبانية والايطالية والألمانية ما يكفيه ، وتوسع بعض التوسع فى اللغـة الفرنسية ، وجرى فى تعـلم اليونانية واللاتينية على مذهبه فى التعليم المدرسى متوسطا بين الاهمال والالزام ، فهو لا يهملهما ولا يرى أن تفرضا على الطالب فرضا ان لم يكن يشعر بالحاجة اليهما فى مطالبه الثقافية ، وأحق منها بالفرض فى البرامج لغات الأحياء أو اللغات الحية الشائعة بين أمم الحضارة ، وبين أبناء وطنه على التخصيص .

ومما يدخل فى هذه الخطة العملية المثالية أنه يجتنب تبديد الجهود ويأبى الاسراف بطبعه فيما يبتغيه من الكماليات أو الضروريات ، وهو لا يجور بذلك على حق الكماليات لأنه كذلك لا يسرف ولا يبدد الجهد فى طلب الضروريات .

ولا يخفى على الذين اختبروا تعلم اللغات أن الصعوبة فيها درجات : أولاها درجة الفهم من الكلام المكتوب ، وتليهـا درجة الفهم من الكلام المسموع لأنه يرتبط بلهجات النطق الذى لا يسهل التقاطه على السمع ساعة النطق به كما يسهل التقاط الحرف المكتوب ثم التأمل فى الكلمات على الاجمال ، وتلى هذه الدرجة فى الصعوبة درجة السماع والاجـابة عليه بالكلام المفيد ، ولا سيما الكلام المصطلح عليه فيما جرت به تقاليد أبناء اللغة من المثقفين وغير المثقفين .

وفرنكلين لم يبدد جهده فى لغة من اللغات التى تعلمها لغير ضرورة ، وقد عاش فى فرنسا زمنا واتصل فيها بصفوة العلماء والمتعلمين ، وعالج الكتابة وأحسنها الى حد الرضا من طبقة المتكلمين بالفرنسية النقية فى زمانه ، ولكنه ظل الى آخر أيامه بين الفرنسيين يفهم الكلام فى المجلس ولا يفهم الكلام فى الخطابة العامة ولا سيما الخطابة السريعة التى لا تجرى مجرى الحوار على حسب المفهوم من السؤال والجواب ، والتى يترتب على فوات معنى من معانيها فوات المعانى التالية لها الى آخر الخطاب .

ومن طرائفه فى هذه المآزق — وهى طريفة تدل على لطف الحيلة كما

تدل على حب المجاملة — انه حضر اجتماعا عاما تعاقب فيه الخطباء وتعذر عليه أن يتابع فهم الخطب وعز عليه أن يهمل واجب التحية وينفرد بهذا الاهمال بين المستمعين ، فاحتال على الخروج من هذا المأزق بمراقبة احدى السيدات الحاضرات ممن يثق بذوقهن وفهمهن وبعدهن من الغرض فى مهب الأهواء السياسية، وجعل يتابعها بالتصفيق كلما صفقت وبالسكوت كلما سكتت ، وهو يحسب أنه قد أحسن الحيلة وتخلص من المأزق وأدى واجب المجاملة للمتكلمين والمستمعين ، ثم علم بعد ذلك أنه كان يجامل نفسه على غير قصد منه ، وقال له حفيده انه كان يصفق للثناء عليه والتنويه بمآثره .. ! وانه كان يكثر من التصفيق كلما أكثر الخطباء من الثناء والتنويه ، وكان لا يكتفى بتصفيق السيدة ومن يصفقون معها بل يحب دائما أن يزيد عليه فضلة من عنده ... ولعله لم يخسر بهذا الموقف الطريف الذى ساقه اليه جهله باللغة وحبه للمجاملة ، فان أذكياء الباريسيين والباريسيات لا تفوتهم حيلته التى كشفها لهم على الرغم منه ، ولا تضيره عندهم ولا تحرمه لديهم من ابتسامة العطف والتسلية ! .. وقد روى الكثيرون ممن سمعوه يتكلم الفرنسية مع صفوة المجتمع الباريسى من العلماء والنبلاء أن الخطأ فى كلامه كان أحب اليهم من الصواب ، لأنهم يتفكهون به ويكشفون ما ينطوى فيه من حسن الاحتيال على التعبير .

ولم يكتب فرنكلين لغير الصحافة الا القليل ، وأطول مؤلفاته ترجمته التى كتبها لنفسه ولم يتمها الى نهايتها ولم تظهر فى حياته ، وله رسالة فى الأخلاق كتبها فى انجلترا وسماها « مبحث فى الحرية والضرورة والسرور والألم » غلبت فيها عليه فلسفة العصر كله وذهب فيها مذهب القائلين بأن الفضيلة والرذيلة لا وجود لهما فى الطبيعة التى تسيرها قوانين الضرورة وتدار وفاقا لتلك القوانين كما تدار الآلات ، ثم عدل عن هذا الرأى أو عدله تعديلا يبقى للفكرة قالبها ويغير جوهرها ، فكان مذهبه الذى صمد عليه بقية حياته ان الفضيلة أهل لأن يفضلها المختار لو أنه أحسن

الاختيار وأن الخبثاء الدهاة لو عرفوا قيمتها لأصبحوا باختيارهم فضلاء بوحى من الخبث والدهاء .. وتعود بنا هذه المصالحة بين الضرورة والاختيار الى تلك النزعة الواقعية التى تلاقى النزعة المثالية فى منتصف الطريق : فتتقاربان ، أو هما على الأقل لا تتنافران .

وفيما عدا الترجمة والرسالة الأخلاقية لم يفرغ لتأليف الكتب مع اشتغاله بالصحافة والتجارب العلمية ووظائف الحكومة التى وكلت اليه بعد اشتهار اسمه وذيوع مخترعاته وعلومه . وقد كان عمله فى الصحافة أعمالا متشعبة كما تقدم ، فانها كانت تشمل التحرير والطباعة والنشر وانشاء الصحف وتوزيعها وبيع الكتب التى يطبعها أو يستوردها من البلاد الانجليزية ، وكانت الطباعة التى يتولاها تشمل سبك الحروف وادارة المكنات وحفر النقوش وكل صناعة طباعية يحتاج اليها الصحفى والناشر فى عمله . وقد عقد النية منذ فارق أخاه على أن يشتغل بانشاء صحيفة يملكها ويتصرف فى ادارتها وتحريرها ، فبدأ بعد عودته من لندن الى فلادلفيا بشراء مطبعة نجحت فى اتقان مطبوعاتها وتوفير عملائها ، ثم اشترى فى سنة (١٧٢٩) صحيفة بنسلفانيا جازيت وأصدر تقويم ريتشارد المسكين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وضم الى الصحيفة مجلة سماها المجلة العامة The General Magazine and Historical Chronicle صدرت فى سنة (١٧٤١) وكانت ثانية المجلات التى صدرت فى الولايات الأمريكية ، وحاول فى أثناء ذلك اصدار صحيفة ألمانية يكتبها أستاذ من أساتذة اللغات فصدرت منها أعداد قليلة ولكنها لم تعمر طويلا لقلة القراء باللغة الألمانية ، ومكنته سمعته الحسنة فى الصحافة والطباعة من المشاركة فى بعض صحف الجنوب ثم أرادت الجماعة النيابية بكارولينا الجنوبية أن تشجع الطباعين على انشاء مطبعة فيها فتبرعت بألف جنيه لمن يقيم مطبعة كاملة فى الولاية ، فاتفق فرنكلين مع أحد زملائه على اقامة المطبعة مشتركين فى ادارتها وأرباحها ، وحيل بينه وبين الحصول على المعونة الموعودة فلم يكف عن السعى حتى حصل عليها بعد وفاة الطباع

المزاحم له (سنة ١٧٣٢) وأصبح هو وشريكه مستقلين باصدار صحيفة الولاية باسم « سوث كارولينا جازيت » أى صحيفة كارولينا الجنوبية .

وكان فرنكلين كفؤا لكل صعوبة تعترضه فى أعماله الصحفية ولاسيما أعمال النشر والتوزيع ، ومن أخطر هذه الصعوبات التى تغلب عليها أنه منى بمزاحمة أندرو برادفورد مدير البريد يوم كان البريد « التزاما » يتولاه المدير لحسابه ولا يدخل فى عداد المصالح الحكومية ، فمنع برادفور سعاته من توزيع صحيفة فرنكلين وأوشك أن يشل حركتها لولا ذلك الخلق المطبوع الذى أسعد فرنكلين بالأنصار والأعوان فى جميع المآزق المحرجة ، وهو خلق الكياسة وطيب المعاشرة وحسن التفاهم مع الناس من كل طبقة ، فلم يلبث أن تفاهم مع السعاة واسترضاهم بالهدايا تارة والاقناع تارة أخرى فأقبلوا على توزيع صحيفته على غير علم من مديرهم ، ونجح حيث أخفق مدير البريد .

وأعانه هذا الخلق فى اجتذاب العملاء فأقبلت دواوين الحكومة على طبع أوراقها عنده ، واختاره تجار الكتب لطبع الكتب التى يوزعونها ، وكان هو يطبع من التصانيف السلفية ما يقدر له الرواج فى كل زمن ، كالمجاميع القانونية ، ومجاميع الصلوات ، ودساتير الماسونيين ، ومفكرات التطبيب والاسعاف ، ودواوين القصائد التى تصلح للمناسبات ، ونصائح الارشاد فى مشكلات الأسر وأصحاب المعاملات ومراجع الصناعة التى تجمع بين العلم والفائدة ، غير ما كان يستورده من المطبوعات الأدبية التى يقبل عليها قراء الشعر والنثر من خاصة القراء . ولم يكن يستورد منها غير العدد الذى ينفد لساعته ، ويضمن له ثقة الخاصة من قراء الاقليم وتعويلهم على مطبوعاته وارداته .

ومن المحرجات فى صناعة الطبع والنشر ما يحسه فرنكلين بصفة خاصة لأنه على ايمانه بحرية الرأى يكره العداوات ولا يميل الى اغضاب المخالفين ما استطاع أن يرضيهم بالكلمة الحسنة والصراحة المقبولة . وليس من اليسير على طابع أو ناشر أن يقصر مطبوعاته ومنشوراته على

ما يرضى الناس جميعا ولا يسوء أحدا منهم ، وأعسر ما كان ذلك فى عصر المجادلات السياسية والدينية بين أناس من مختلف الأقدار والعقائد والميول ، فاجتهد فرنكلين فى اجتناب ما يمكن اجتنابه مما يسوء القارىء لغير ضرورة ، ولم يبال بعد ذلك أن ينشر ويكتب ما يخالف أناسا ويوافق آخرين ، وكتب دفاعه عن صناعة الطباعين توضيحا لمسلكه بين الآراء المتضاربة ، فكاد أن يرضى الجميع به لو كان الى ارضاء الجميع من سبيل .

الا أنه — مع حرصه على المجاملة حرص الافراط فى بعض الأحيان — لم يجامل أحدا فيما يشذ عن آداب المناظرة أو يقحم المثالب الشخصية بين مباحث النقد ومناقشات الآراء ، وكان يقول كما ذكر فى ترجمته : « اننى أتحاشى فى تحرير الصحيفة كل اساءة شخصية من تلك الاساءات التى وصمت بلادنا فى السنوات الأخيرة . وكلما ألح الملحون علىّ لنشر كلام من هذا القبيل واحتجوا كعادتهم بحرية الصحافة وشبهوا الصحيفة لتسويغ طلبهم بالمركبة الحافلة التى ينبغى أن تتسع لكل راكب وكل مشترك — كان جوابى لهم اننى على استعداد لطبع كلامهم على حدة ولهم أن يطبعوا منها النسخ التى يريدونها ويباشرون توزيعها ، ولكننى أنا غير مسئول أن أشترك معهم فى عمل لا أرضاه .

ولا نخاله كان بحاجة خاصة الى مطبعة خصوصية لطبع رسائله فى باريس ، فربما كان حكم العادة وحب الصناعة التى شب عليها سلواه فى أيام الشيخوخة وباعثه الأول الى اقتناء المطبعة الخصوصية قبل كل باعث من بواعث الأعمال السياسية أو الأدبية ، ولكن مطبعة « باسى » على هذا قد أخرجت له نخبة من الرسائل والنشرات لم تخرج مطابعه الأولى نظيرا لها أيام الشباب ، ولو سقطت هذه المطبوعات من مجموعته الكاملة لاختفى باختفائها أجمل ما كتب من الفكاهة والنقد بعد تهذيب السن وحنكة الشيخوخة والاطلاع .

« وفقا للخطة المقررة ... » .

هذه عبارة شاعت أيام الحرب الأخيرة ، فى بلاغات القيادات العسكرية ، وتعود القراء بعد تكرارها أن يفهموا منها أنها تكتب فى البلاغات التى تنذر بالارتداد من غير اعتراف بالهزيمة ! فاذا سمعوا خبرا يبتدىء بالتراجع والارتداد بادروا الى اتمامه متهكمين : نعم ! وفقا للخطة المقررة ..

ترى هل كان أصحاب هذه البلاغات من قراء فرنكلين ؟

لا نظنهم قرأوه . ولكنه قد سبقهم الى هذه العبارة وأمثالها ، وعود قراءه قبلهم أن يتوقعوا كل حركة كبيرة من حركات سيرته الحافلة .. وفقا للخطة المقررة !. وعودهم أن يبتسموا لهذه الخطة التى ترسم كل حركة من حركاته سلفا حتى حركات الأفكار والأخلاق ! ولكنهم يبتسمون هنا لتلك العادة المزمنة التى لا تتغير ولا تذكر الا مقرونة بأخبار النجاح ، فليس فى ابتساماتهم المتوالية شىء من التهكم أو السخرية على اخفاء الفشل بالدعوى ، بل هى ابتسامات العطف التى ترتفع الى الشفاه كلما نظر الناظر فرأى أمامه وجها قديما يطالعه من جديد ، ويرجع اليه فى كل مرة على ديدنه وهجّيراه .

قال فرنكلين يصف مقدمات سيرته الطويلة : « ان الذين يكتبون عن فن الشعر يعلموننا أننا لا ننظم شيئا جديرا بأن يقرأ الا اذا رسمنا له من البداءة خطة مفصلة عن مقاصده والا تورطنا فى السخف والاطالة، وأرانى أعتقد أن هذه الخطة تصدق على الحياة برمتها ، خلافا لمنزعى الأول اذ كنت لا أتبع فى حياتى خطة موحدة ولا أرى الحياة على هذه الحالة الا شتيتا من المناظر لا تربط بينها رابطة . واننى الآن لمقدم على حياة جديدة . ولا بد لى من عزائم أمضى عليها ومسالك فى الأعمال أتوخاها ، كى أعيش من جميع الوجوه عيشة مخلوق عاقل . فليكن لزاما علىّ اذن أن أتحرى القصد زمنا لأبرىء ذمتى من كل زيف ، وأن

أروض نفسى على قول الصدق فى كل موقف فلا أدع انسانا يتوقع من كلامى أملا لا يتحقق ، ولا أحيد عن سنة الاخلاص فى كل كلمة أفوه بها أو عمل أعمله ، وهى أحب السنن فى مناقب العقلاء ، وأن أفرغ نفسى بجهد وعناية لكل شاغل أقدم عليه فلا أنصرف بذهنى عنه سعيا وراء الأمل الخادع فى الثروة العاجلة . لأن الاجتهاد والمثابرة أضمن وسائل الثراء ، وعلىّ ألا أنبس بكلمة مسيئة عن انسان من الناس ولو فى سياق الافضاء بالحقيقة ، بل أحاول أن ألتمس المعاذير لما أسمعه من أخطاء الناس ، وأن أذكرهم بالثناء فى كل مقام » [1] .

وعلى هذا البرنامج سار فرنكلين فى حياته الكتابية وحياته الصحافية ، فلم يقصر عن غاية كان فى وسعه أن يبلغها ، وتقدم الى الطليعة بين كتاب عصره فى وطنه وغير وطنه ، ونظم من حياته قصيدة لا اختلال فى أوزانها على النحو الذى رواه عن فن الشعر فى رأى معلميه . ولا ريب أن هذه القصيدة الحية ، بل هذه الملحمة الوافية ، أبدع قصائده من منظوماته وأناشيده ، فلم ينظم من الشعر ما أبقاه أو تركه للبقاء ، ولم يطاوع هواه مع عروس الشعر الا ليستعين بها على حفظ كلمات المنثور أو توقيع الأناشيد فى مجلس من مجالس الحبور ... فلم تبق له غير قصيدة واحدة ذات قواف متعددة ، هى الحياة على هذا الوزن الرتيب ، ومن قوافيها المتعددة قافية الكاتب الأديب .

---

(١) الفصل الرابع من ترجمة ڤان دورن .

السياسى

يعمل فى السياسة اليوم أناس كثيرون كلهم له وظيفة سياسية ، وكلهم له عمل غير أعمال الآخرين ، وقد يقضى الواحد منهم حياة معمرة ولا يشتغل فى السياسة بوظيفة غير الوظيفة التى استعد لها بترتيبه وتعليمه .

فالوزير ، أو الزعيم ، الذى يقود الرأى العام سياسى ، والسفير الذى ينوب عن دولته عند الدول الأخرى سياسى ، والحاكم الذى يدير الديوان أو يحكم الاقليم يعد من ساسة البلد ، والعالم الباحث الذى يدرس النظريات الاجتماعية ومبادىء الحكم عالم سياسى أو خبير مختص بعلم السياسة .

وهذه كلها أعمال محدودة فى العصر الحاضر ، لا يختلط واحد منها بغيره وان كانت كلها تنتظم تحت عنوان السياسة .

ولكنها لم تكن محدودة فى عصر فرنكلين ، ولم تكن محدودة فى وطنه بصفة خاصة ابان حركة الاستقلال ، لأن الشعب الأمريكى فى ذلك العصر كان يتطلع الى زعمائه البارزين فى كل مشكلة ويتطلب منهم العمل والهداية فى كل موقف ، وكان يواجه المسائل والخطوب جملة واحدة بكل ما عنده من قوة وقدرة ، فهو يندب الرجل الذى يراه أمامه للمشكلة التى يراها أمامه ، وينتظر من الفقيه أن ينفعه فى تدبير شئون القتال ، ومن المقاتل أن ينفعه فى تدبير شئون الحكم ، ومن التاجر أن يعمل عمل السياسى ، ومن السياسى أن يعمل عمل التاجر ، ولا يملك الوقت ولا التنويع أو التقسيم الذى يتيح له أن ينتظر لكل عمل صاحبه ولكل رجل رسالته ، فكل مشكلة لساعتها وللرجل الذى يلفت الأبصار ويقرع الأسماع فى تلك الساعة ، وهذه هى المحنة التى امتحنت كل معدن من معادن الرجال البارزين فأخرجت فى معصرة الشدة خير ما فيه .

وأخرجت مع هذا فئة صالحة من الزعماء لا تفوقهم فئة من قبيلها فى عهد من عهودها التالية ، بعد النهضة والتقدم والاتساع والارتفاع .

وكان فرنكلين واحدا من هؤلاء الزعماء المدخرين للشدائد فىأوقاتها، وللسياسة بجميع مقاصدها : سياسة الزعيم وسياسة السفير وسياسة الحاكم وسياسة الباحث فى كل سياسة .

ونجح حيث طلبوا منه النجاح ، ولم يخيب الظنون فى رجاء يناط به أو ناطته به حوادث الأيام .

فى عصرنا هذا قد تترجم السياسى ونلتمس أسباب نجاحه فى أوائل نشأته ومبادىء تربيته وتعليمه .

وفى عصر فرنكلين نفسه ربما جاز التماس الأسباب — أسباب النجاح — فى النشأة والتربية والتعليم .

ولكننا لا نستغنى فى عمل من أعمال فرنكلين — خاصة — عن الرجوع به الى الفطرة الموروثة قبل غيرها ، فلم تكن فى عصره علوم مقررة وبرامج محفوظة لتخريج الساسة الناجحين فى كل ضرب من ضروب السياسة ، ولو كانت هناك تلك العلوم والبرامج لما فسرت لنا شيئا من نجاحه فى سياسته ، لأنه — كما قيل — لم يوجد أحد قط كانت فائدته من المدرسة أقل من فائدة فرنكلين .

ولابد أن تنظر فى تكوينه الفطرى ، وفيما هو من قبيل هذا التكوين، لتفسير كل قدرة له لم يستفدها من المرانة والتعليم .

ولا يستطيع مترجم له أن ينسى فى هذا الصدد قوة البنية التى ورثها من أبويه ، فان قوة البنية أصدق أعوان السياسى فى كل عمل من أعماله يتطلب الهدوء واعتدال المزاج ، وكل عمل من أعمال السياسى يتطلب النفس الهادئة والمزاج المعتدل .

وحب النظام خصلة يتعلمها الانسان فى المدرسة وفى تجارب الحياة ،

كما يتلقاها استعدادا بالوراثة مع البنية الطبيعية ، ومهما يكن من فضل التعليم والتجربة فى هذه الخصلة فلا شك فى اختلاف الاستعداد لهـا بالطبيعة الموروثة ، فقد يغنى قليل من التعليم والتجربة مع الاستعداد الطبيعى حيث يضيع التعليم الكثير والتجربة الطويلة عبثا مع فقـدان ذلك الاستعداد .

ولقد كانت قوة البنية عونا لفرنكلين على التنظيم وكابحا لدوافـع الخلل والاندفاع والتقلقل بين رأى ورأى وبين نظام ونظـام ، وقال عارفوه — بعد الأربعين على الخصوص — انهم لم يروه قط فى ربكة أو عجلة .. وهذه أيضا عدة من عدد النجاح فى السياسة لا يسـتغنى عنها ، ولا يقدر عليها أحد كما يقدر عليها الرجل المكين البنية المستقر على نظام لأعمـاله وأوقاته يمنع الخلط بينها والارتباك فى البدء بها والانتهاء منها ، ويمنع الربكة والعجلة تبعا لذلك ، فلا يفقد طمأنينته ولا يفقد العاملون معه طمأنينتهم اليه .

ويلحق بالاستعداد الفطرى أنه كان عاشر أبناء أبيـه ، فلم ينشأ نشأة الطفل المدلل ولا نشأة الطفـل الوحيد الذى يقضى أيام الطفولة بعيدا من أمثاله غريبا عن شعور الزمالة والعشرة الطبيعية. وفتح عينيه على الدنيا وهو يصاحب أطفالا أكبر منه وأصغر منه بين اخوة وأخوات من الجنسين . فلم يصعب عليه بعد ذلك أن يسلك مع الناس ، وعرف الكبار والصغار فى أخص حالاتهم وأعمها معرفة البداهة السهلة والفهم الصحيح. وكان له من كل أخ وكل أخت نموذج مختلف ينوع أمامه طبائع النفوس فلا تخفى عليه حقائق النفس البشرية على تعدد الأمزجة والطباع .

ولسنا نرى أن المقدرة السياسية كان لها الفضل كله فى نجاحه حيث نجح فى « وظائفه » السياسية التى لم تنحصر فى مجال واحد من مجالات السياسة ، فمن قيادة الرأى العام الى المفاوضة الى الادارة والتنظيم الى مباحث الحكم وفلسفة الاجتماع — كل أولئك كان له فيه أعوان من ظروف الزمن وظروف النهضة الفكرية وظروف المجتمع الأمريكى نفسه

فى ابان تكوينه قبل الخلاف مع الدولة البريطانية وبعد الاستقلال عنها الى يوم وفاته .

فالنزاع بين بريطانيا العظمى وفرنسا كان له شأنه فى ضم فرنسا الى جانب الثورة الأمريكية وتحريضها على الانتقام من بريطانيا العظمى لسعيها الحثيث فى طردها — أى طرد فرنسا — من أمريكا الشمالية نفسها ، وقد كانت رغبة فرنسا فى طرد الدولة البريطانية من تلك البقاع لا تقل عن رغبة الأمريكيين الساخطين على حكومة لندن وحكومة المستعمرات .

وهذه معاونة من الظروف لا تهمل فى تقدير مساعيه وتقدير أسباب نجاحه ، ولكنها اذا وضعت فى الميزان وجب أن توضع أمامها عوامل أخرى فى السياسة الأوربية كانت تميل بفرنسا الى الحذر والأناة فى تشجيع الثوار الأمريكيين ، بل كان من هذه العوامل التى تدعو الى الحذر والأناة أمور ترجع الى فرنسا داخل حدودها ولا تمتد الى ما وراء الحدود فى القارة الأوربية أو القارة الأمريكية ، وتلك هى مخاوف القصر والنبلاء من بوادر الثورة الفرنسية التى كانت تهددهم بالنذير بعد النذير حتى قضت على لويس السادس عشر — ملك فرنسا — الذى استقبل فى بلاطه فرنكلين .

ومن الظروف التى أعانت على النجاح مالا يحسب لفرنكلين فى ميزان القدرة السياسية ولكنه يحسب له راجحا مرجحا فى غير ذلك الميزان ، وشهرته العلمية ظرف من أكبر هذه الظروف ، وسجاياه المحبوبة ظرف آخر لا يقل فى تمهيد الطرق أمامه وفتح الأبواب له عن الشهرة العلمية .

وهنا أيضا ينبغى أن نعادل بين الكفتين ونضع شيئا فى كل كفة منهما ولا نقصر المرجحات على كفة واحدة .

هنا أيضا ينبغى أن نعلم أن الظروف المؤاتية تصادف الساسة فى كثير من المهام الكبرى والصغرى ولا يحسنون الاستفادة منها بل لعلهم

يعكسونها ويضيعون فرصتها بالغلطات التى يستغلها الخصوم ويحسبونها فى جانبهم من الظروف المؤاتية !

وقد كان خليفة فرنكلين فى تمثيل بلاده عند الدولة الفرنسية رجلا من مشاهير الأمريكيين بلغ الى رياسة الجمهورية وعـده المؤرخـون الأمريكيون والأوربيون من آحاد الرؤساء النابهين ، وكانت له فلسفة سياسية ومبادىء ديمقراطية تدرس الآن بين أصول الحكم الدستورى والحرية الفكرية ، وحل هذا الخلف العظيم محل سلفه العظيم فأحس بالعبء الفادح من اللحظة الأولى ، وكتب الى قومه يقول : انه يحل محله ولكنه لا يغنى غناءه ... ولم يكن جفرسـون ممن يتلطفون أو يمدحون على حساب الحقيقة والعدل باسم التواضع المكذوب .

والظروف المعاونة فى استنباط قواعد الفلسفة السياسية تشبه هذه الظروف وأمثالها فى مسائل المفاوضة الدبلوماسية . فقد كان أذكيـاء العصر يرقبون هذه الفلسفة وهى تولد وتترعرع وتنمو مع الحـوادث والمطالب الشعبية من جانب الطلاب وجانب المعارضين والمنكرين ، وكان له رأى عن التمثيل النيابى وحقوق الدولة فى تحصيل الضريبة وحقوق المحكومين فى المحاسبة عليها وحقوق الطبقات فى المساواة أو الامتيازات الموروثة — قضية قائمة مسموعة الحجج من طرفيها منجمة على حسب الحوادث بل على حسب الأفراد والأقاليم فى كثير من الأحوال ، وكان صاحب الرأى الفلسفى يعمل « فلسفته » عملا وينفذها تنفيذا ولم يكن قصاراه منها أن يقرأها على الصفحات ويناقشها بالبراهين ، وكان جو الدولة البريطانية من أقصاها الى أقصاها يتماوج ببقايا الثورة الدستورية ويردد الأصداء القريبة التى يسمعها الحاكمون كما يسمعها المحكومون ، وكانت فرنسا تتنسم الأنفاس من هذا الجو وتنفثها فى صرخات فولتير وزملائه المتمردين المتحفزين ، ولم تسمع نظرية واحـدة من نظريات الفلسفة السياسية التى شاعت فى ذلك العصر الا وهى لاحقة بحـادثة تؤيدها أو سابقة لحادثة يوشك أن تتجسم للحس والعيان ، وهذه هى

النظريات التى تستجيب لها طبيعة فرنكلين ويتقبلها ذهنه ويقيم عليهـا أفكاره وأعماله فى وقت واحد ، فليست الأفكار فيها الا أعمالا مفسرة ، وليست الأعمال فيها الا أفكارا مطبقة ، أو فى انتظار التطبيق .

ويوضع كل هذا فى كفتى الميزان حيثما وزنت قدرة فرنكلين ومعونة الظروف فى مساعيه السياسية وفى قيادة الرأى العـام الى الفلسفة الاجتماعية ، ويوضع فى الميزان قبلها وبعدها تقدير واحد ينبغى ألا ينساه من يزن عملا من الأعمال أو سـيرة من السير ، وربما كان هذا التقدير سؤالا يلقيه المؤرخ على نفسه ويجيبه ثم يفترض جوابه المعقول فى حساب المسئولين الآخرين : فاذا كان صاحب السيرة لم يعمل عمله بفضل قدرته وحدها دون غيرها ، فهل عملته الظروف وحدها بفضل قدرتها دون غيرها ؟ وهل كل عامل ينجح مثل هذا النجاح اذا وجد فى هذه الظروف ؟

ان كانت الظروف لا تغنى عن العامل فذلك هو الفضل الذى يوضع له فى ميزانه ، واذا كانت الظروف المؤاتية لا تنقطع عن الدنيا ولا تتجرد منها حادثة من الحوادث العظمى فهى لا تعلو ولا تهبط بكفة ميزان .

كانت قيادة الرأى العام من « وظائف » السياسة العامة التى نهض بها فرنكلين أو أنهض لها — على الأصح — لأنه لم يطلبها بأدواتها ولم تكن لديه أدواتها فى البلاد التى تنال فيها قيادة الشعب بالتـأثير فى الجماهير . فلم يكن خطيبا يملك عواطف السامعين ويثيرها ويلعب بها على هواه ، ولم يكن من عاداته أن يسرف فى الوعود وأن يقول مالا يعمل ولا ينوى أن يعمله ساعة الوعد به فى ساعة من ساعات الحماسة وهياج الخواطر والأفكار ، ولم تكن الحماسة من طباعه فى عـلاقة من علاقاته بالناس خاصة أو عامة ومهتاجين أو هادئين ، وكان فصيحا مبينا فى الاعراب عن رأيه والاقناع بحجته وشرح أفكاره التى استقر عليها والتى لاتزال بين التردد والاستقرار ، ولكن هذه الفصاحة المبينة ليست بالعدة الماضية فى قيادة الجماهير من منصة الخطابة ، وليست على الأخص بالعدة الماضية فى عصر النزاع واضطراب الأهواء وجماح المطالب الى غير وجهة ثابتة

يتفاهم عليها القادة والمفكرون فضلا عن الأتباع المنقادين بغير تفكير .

فلما نهض فرنكلين بقيادة الرأى العام أنهض لها على الأصح من غير سعى لها وغير تدبير مقصود للوصول اليها اللهم الا أن نحسب نتيجة عمله غاية مقصودة يناط بها التدبير .

فقد كانت ثقة الناس به من نتائج شهرته بالتقـويم السنوى الذى سماه تقويم ريتشارد المسكين وكاد أن يحمل اسمه والاعجاب به الى كل بيت فى الولايات ، وكانت هـذه الثقة فى موطنه وبين عارفيه من نتائج الاطمئنان الى حسن ادارته وأمانة يده وضميره ورباطة جأشه وقدرته على مواجهة الشدائد والأزمات بما يلائمها من الرأى الحاضر والفكر الهادىء والتصرف المريح الذى يرتضيه أطراف الخصومة بعد سكون الزوبعـة وانقضاء النزاع والخلاف .

ولم يحاول قط ، ولا كان فى قدرته ، أن يثير الجماهير بفصـاحة الشارع وارتجال الدعوى الكاذبة التى لا تسأل عما تقول ولا يذكرها أحد بما قالت ولا يذكر أحد ما سمع منها بعد حينه ، ولكنه كان يقدر على ما هو أصعب وأخطر فى مخاطبة الجماهير : كان يقدر على تهدئة الجماهير الثائرة . وهى قدرة لا طاقة بها لأقدر الخطباء على اثارة الجماهير الهادئة، وكانت عدته النافعة فى هذه المواقف رباطة جأشه وطيبته المرتسمة على سيماه ونظرته الأبوية التى تعدى الناظرين بما يقابلها فلا يملكون الا أن ينقادوا له طائعين كما ينقاد الأبناء للآباء .

ومن هـذه المواقف الثائرة أن بعض الأغرار على الحدود سمعوا بمعركة بين السكان البيض والهنود الحمر فهجموا على قبيلة من القبائل الهندية للاقتصاص منها وفر أبناء هذه القبيلة وبناتها الى فلادلفيا يحتمون بها من مطاردة الناقمين المتعطشين الى الثأر والانتقام ، فثار بهم غوغاء فلادلفيا وتعقبوهم فى الطرقات ليفتكوا بهم وينتقموا منهم على السماع بغير تمييز بين المعتدين والمسالمين ، وطلب الحاكم من فرنكلين أن يقمع

الفتنة بفرقة من الجند الرديف ، فلم يعمل فرنكلين بالأمر وآثر التجربة بالحسنى قبل الوثوب الى السـلاح ، وذهب الى الثائرين منفردا عزلا لايحمل فى يده شيئا حتى عصاه ، وكانت رؤيته كافية لتوقف الجمهور الهائج فى ثورة غضبه للاصغاء الى الأب فرنكلين ، وكتب هو عن هـذا الحادث الى صديق له فى لندن يقول : « فى خلال أربع وعشرين ساعة كان صديقك القديم جنديا ومستشارا ودكتاتورا على نوع ما وسفيرا الى الغوغاء . ثم عاد الى منزله نكرة كما كان .. » .

وبهذا الوقار على أسلوب آخر كان يؤدى أمانة القيادة بين كبار القادة من فطاحل الزعماء ، فلما عهد اليه مع فئة من هؤلاء الزعماء أن يكتب اعلان الاستقلال لم يرض عن كلمة جفرسون التى قال فيها عن حقوق الأمريكيين « انها مقدسة لا تنكر » واقترح بديلا منها« انها ثابتة بذاتها » لأن القول بأنها لا تنكر لايطابق الدقة العلمية مع وجود من ينكرونها ويقاتلون فى سبيل انكارها ، ولأن القداسة فى الحقوق العامة قد ابتذلت بدعوى الملوك الذين يزعمون انهم يتلقون السلطان من السماء ودعوى رجال الدين الذين يزعمون أن القداسة مستمدة منهم وقد يتسللون من وراء هذه الكلمة الى المطالبة بالرقابة على حقوق الشعب « المقدسة » !.. فكانت قيـادته للأمة لا تستغنى عن وقار تفكيره بين الدهماء ولا بين الزعماء .

والسياسى المفاوض يلى السياسى الزعيم فى القدرة والخبرة بأساليب المفاوضة فى كل ظرف من ظروفها ، وهى تلك الظروف التى تتناقض بين يوم ويوم وبين خصم وخصم وبين قضية وقضية .

فتولى المفاوضة فى بلده بين البيض والهنود الحمر ، وبين أبنـاء الولايات وأبناء كندا الفرنسية .

وتولى المفاوضة فى انجلترا نائبا عن بعض الولايات الأمريكية .

وتولى المفاوضة فى فرنسا ليستعين بها على مقاومة بريطانيا العظمى

ويعقد معها معاهدة تعترف فيها باستقلال الولايات وتسجل لهذه الولايات كيانها « الرسمى » فى عالم السياسة الدولية .

وكانت عدة « السياسى المفاوض » لديه أكمل من عدة السياسى الزعيم أو السياسى الذى يقود الجماهير بالأقوال والوعود .

كانت المسالمة طبيعة فيه ، وكان من مبادئه « العلمية » صيانة الجهود عن التبديد ، فلا يقدم على نضال يستطاع اجتنابه بوسيلة من وسائل التراضى أو حيلة من حيل المجاملة والتفاهم على أواسط الأمور ، وعنده انه « لا حرب حسنة ولا سلم سيئة » .. بل السلم خير من الحرب ما دامت المسالمة تغنى عن القتال .

وفاوض الهنود الحمر فنجح لأنهم يحسون منه دخيلة شعوره فى مسألة الفوارق بين الأجناس ، وقد كان يقول ان الفتك بأبناء قبيلة هندية انتقاما من أبناء قبيلة أخرى جور قبيح كانتقامنا من الهولنديين مثلا لعدوان يصيبنا من الفرنسيين واعتذارنا من ذلك بأنهم « كلهم بيض الوجوه .. » .

ولم يسمع الهنود منه هذا الرأى ولكنهم كانوا يحسونه من شعوره ومعاملته وايثاره للتراضى والمصافاة .

ولما ذهب للمفاوضة فى انجلترا كان فى رأسه كل حل وكل محاولة قبل القطيعة واعلان العداء .

كان فى ذهنه أن تتعاون أجزاء الامبراطورية على نمط «الكومنولث» الذى اهتدى اليه الساسة البريطان بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان فى ذهنه أن تختار للامبراطورية عاصمة فى الولايات تتبعها الجزر البريطانية كما تتبعها الولايات الأمريكية وغير الأمريكية ، وكان فى ذهنه أن تنفض الخصومة بتقرير حقوق الهيئات النيابية فى كل بلد وتقرير حقوق التاج على المساواة بين الجميع ، فلا يكون لبرلمان انجلترا حق

فى فرض الضرائب مع وجود البرلمانات المحلية ، ولا يشترك التـابعون للتاج فى هذه المساواة .

وهذا المفاوض الذى كان من طبعه أن يذهب مع المفاوضة الى الحد الأقصى لم يكن يذهب بها الى غير حد ولا نهاية ، فلما جاء العدوان فى بلده من الهنود الحمر وظهر من العدوان انه استضعاف وسوء فهم لمعنى المسالمة والمداراة كان هو المقاتل المصر على القتال الى أن يتبدد هـذا الفهم وتزول من نفوس المعتدين مظنة الاستضعاف . ولما فتح كل باب للمسالمة مع الساسة البريطان ويئس من كل حل وكل حيلة كان هو فى طليعة الدعاة الى المقاومة بالسلاح وعلى رأس العـاملين على توفير الأسلحة وتجنيد الفرق واتخاذ الحيطة فى مواضع الهجوم والدفاع .

أما المفاوضة فى فرنسا فقد كانت فى نصف الطريق أكبر مجازفة ، وكانت فى النصف الآخر أكبر نجاح .

برح الديار الأمريكية سرا فى السادس والعشرين من شهر أكتوبر (١٧٧٦) مع ثلاثة من الزعماء لمفاوضة الدولة الفرنسية فى عقد معاهدة مع الدولة الأمريكية المستقلة تمهد لغيرها من المعاهـدات مع الدول الأخرى ، وتبدأ الاعتراف بالدولة المستقلة الجديدة فى المعـاهدات الدولية ، وكان سفره على سفينة صغيرة لا تحتمـل زعازع المحيط الأطلسى فى تلك الآونة ، وأخطر من زعازع المحيط الأطلسى رقـابة الأسطول البريطانى على السفن التى تفارق الشواطىء الأمريكية ومن عسى أن يكون فيها من الثوار العاملين على خدمة الثورة ومناجزة الدولة الحاكمة ، ولا خفاء فى الجزاء الذى ينتظر فرنكلين لو وقع فى قبضـة الأسطول المنتشر فى عرض البحار ، فانه لا ينجو من الشنق بتهمة الخيانة العظمى قصاصا منه وعبرة لأمثاله ، وما كان هـذا الجزاء الرابض له ليخفى عليه قبل سفره ، فقد كان جون هانكوك Hancock يوقع اعلان الاستقلال ويقول والقلم فى يده : « علينا يا صحاب أن تتعلق جميعـا بعلاقة واحدة » وهى عبارة باللغة الانجليزية ترادف الكلمة العربية التى

تعبر عن هذا المعنى « بالاعتصام » بحبل واحد .. فقال فرنكلين : نعم . والا تعلقنا بحبال كثيرة متفرقين !

سافر من بلاده فى السبعين وهو يعلم هذا الخطر الذى يترصد له فى الطريق ، ولكنه لم يصل الى « نانت » ليهدأ بعض الشىء على أثر هذه الرحلة المقلقة فى السفينة المضطربة حتى أحس طوالع النجاح بعينيه ، وعلم أن الحفاوة التى سيلقاها من الأمة الفرنسية تفوق كل ما خطر على باله وبال أصحابه ، وانقضى اليوم السابق لدخوله باريس دخول الفاتحين فى التساؤل عن الموعد وعن الطريق والتسابق الى أقرب الأمكنة لرؤية السفير المنتظر ، فلم يبق رجل ولا امرأة من المشتغلين بالسياسة والمطلعين على أخبار الثورة الأمريكية الا خف الى طريق من الطرق التى قيل انه سيعبرها الى مقره أو الى البلاط ، وأقبل « الدكتور » فى قبعته الفرو المعهودة والكساء الساذج يحيى المستقبلين على جانبى الطريق بابتسامته الطيبة ونظرته الوديعة فى غير اكثار من الايماء والحركة ، وغزا المجتمع الباريسى من اللحظة الأولى ولا سيما مجتمع العلية وذوى الثقافة من أقطاب الآداب والفنون، وكان العصر عصر التنافس بالأندية أو الصالونات فكانت السعيدة من عقيلات النبلاء من تظفر بزيارة من « الدكتور » ومن تضمن دعوة الضيوف الكبار لمحادثته عندها حين تشاء ، وساعدته الشهرة السابقة والقدرة السهلة على كسب الأنصار والأصدقاء من ذوى الجاه والمنزلة العالية بين قادة الآراء ، وعلم أن هذا النجاح الأدبى غنيمة لا يستهان بها كائنا ما كان موقف البلاد والدواوين الرسمية ، ولكنه كان يعلم من باطن هذا الموقف أنه يناصره ويتمنى له التوفيق وانه — مع التحفظ الشديد فى الظاهر — يملى له ويعينه فى الباطن ويستمهله فترة من الزمن ريثما تسنح الفرصة التى يرتقبها الساسة المسؤولون ، فيعلنون الاعتراف بالدولة الجديدة آمنين عاقبة العداء الصريح للدولة البريطانية ، فان هذه الدولة نفسها ستعترف لا محالة بالحكومة الثورية متى يئست من قهرها واكراهها على الخضوع .

ولم يأت هذا الأمل المرتقب بغير عناء وبغير شك وبغير تردد مخيف بين الأمل الضعيف فى النصر والخوف القوى من الهزيمة . الا أن السفير المتفائل لم ينقطع قط عن الرجاء وعن بث الرجاء فى قلوب المتشائمين ، ولم يتخذ له الجواب السريع فى حالة من حالات الشك والحيرة أو حالة من حالات الهزيمة الظاهرة التى تلجم الألسنة وتبلبل الأذهان . فلما قيل له يوما : ما الخبر يا دكتور ! ان هاو Howe قد أخذ فلادلفيا ... لم يلبث أن أجاب على الأثر : عفوا يا سيدى ! ان فلادلفيا هى التى أخذت هاو ..

ثم وصل الخبر المرتقب بعد عام وانهزم الجنرال برجوين فى ساراتوجا تلك الهزيمة المنكرة التى تقرر بعدها مكان الدولة الحديثة ، وكان وصول الخبر الى باريس فى الرابع من شهر ديسمبر ودعوة الوزير فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لسفير الثورة الناجحة بعد يوم واحد من وصول الخبر ، وطلب الوزير فى هذه المرة فتح باب الكلام فى المعاهدة فأرسل فرنكلين نصوصها اليه بعد يوم ، ولم يأت شهر فبراير حتى كانت المفاوضه كلها مفروغا منها وكانت المعاهدة معدة للتوقيع ، فسميت معاهدة التجارة والتحالف ، واشتملت على الاعتراف باستقلال الولايات وعلى التعهد بالاتفاق على مقاتلة بريطانيا العظمى والاستمرار فى القتال الى أن يتفاهم الفريقان على قبول الصلح ، ولا يعقد أحدهما صلحا مع بريطانيا على انفراد .

وأقام فرنكلين أيامه بفرنسا خلال الحرب محفوفا بالأصدقاء والمعجبين من صفوة السادة والسيدات ، وكان قصر « باسى » الذى أقام فيه قبلة القصاد من الأدباء والساسة المقيمين بالعاصمة الفرنسية والوافدين اليها من الأقاليم أو الأقطار الأوربية ، وأقل من هذه الحفاوة الشاملة يثير حسد الحساد ويوغر صدور النظراء والأنداد ، ولكنه نجح هنا نجاحه الذى لم يسعد به قط عظيم ناجح مشهور ، فكان نصيبه من حسد الحساد أقل نصيب ، وكانت سقطاته التى عدوها عليه أهون السقطات .

من هـذه السـقطات انه لم يحترس كما ينبغى أن يحترس من الجواسيس والعيون ، وأفرط هنا فى سجية السماحة وكراهية التضييق وأخذ الأمور كلها على هينة وميل الى المغفرة والاعتذار ، وتفلسف بهذا التهاون كأنه يقصده ولا يقع فيه على غير علم وانتبـاه . فكتب الى صديقته جوليانا رينشى يقول : أترانى لو تحققت من تجسس خادمى أستغنى عنه لهذا السبب اذا كنت راضيا عن خدماته الأخرى ؟ ولا جرم تسرب الجاسوسية اليه من هذه الثغرة ويثبت بعد ذلك أن مسـاعده المقيم معه فى الدار — ادوارد بنكروفت — كان فى خدمة الحكومة البريطانية لنقل أخباره ومراسلاته ولو لم تكن على صـلة بالسياسة والمفاوضات الحكومية ، ويشاء الحظ الحسن لهذا الرجل المجدود أن تكون معاذيره على الدوام راجحة على سيئاته فى أظهر السقطات . فكم له من معذرة ظاهرة فى هذه السقطة التى لا مراء فيها ؟ ... لقد كان من معاذيره أن الجاسوسية لم تضره ولم تضر دولته فى كثير ولا قليل ؛ وكان من معاذيره انه يريد أن يعرف العالم أجمع أن قضيته بينة جلية كالشمس فى رائعة النهار فلا حاجة بها الى تقية أو مداراة ، وكان من معاذيره أنه عامل نفسه كما عامل دولته فى هذه السماحة التى جاوزت حدودها بغير مراء ، لأنه لم يكن يأمن على حياته ولم يكن ثمة خطر على مصالح دولته أعظم من الخطر الكبير الذى كان يتربص به حيث أقام وحيث سار أيام تلك السفارة ، ومن الحظ الحسن ولا ريب أن تحسب للانسان المعـاذير كلما حسبت عليه أمثـال تلك السقطات .

ويستوفى هذا السياسى الزعيم والسياسى المفاوض وظائف السياسة العامة بآرائه فى شئون الحكم وقضايا الاجتماع ، وهى آراء لا تحيط بالمسائل والقضايا احاطة المذهب الجامع للقواعد والفصول ، ولكنها تعرض علينا حلا عمليا لكل مشكلة أو فكرة تجريبية عن كل واقعة ، ويؤلف منها الباحث مذهبا مجملا اذا أراد أن يعرضها معرض الترتيب والتبويب .

ولا حاجة الى القول بغلبة الفكرة الديمقراطيــة على كل رأى من آرائه فى الحكم وفلسفة الاجتماع والسياسة ، فربما كانت الديمقراطية شعورا عنده قبل أن تكون تفكيرا ودراسة ، وقد كان أخوه — صاحب الصحيفة التى نشر فيها كتابته الأولى — ثائرا متطرفا وأوشــك أن يعاقب بالسجن الطويل على حملاته العنيفة ، وكانت السخرية بالألقاب من أوائل الآراء التى نشرها الصبى فرنكلين باسمه المستعار بين الخامسة عشرة والعشرين ، وكان من سخرياته فى مسألة الألقاب أن يتخيــل أسماء التوراة مصحوبة بألقاب النبلاء كاللورد آدم ، واللادى حــواء ، والبارون أرميا ، والكونت حزقيال ، وكان يقول بعــد نضجه وتقدمه فى تجارب الحياة ان الحسب الموروث لا يورث الخير ولا الانصاف ، وقد كره ازدواج المجالس التشريعية لأن المجلس الأعلى فى رأيه انما يختار لتغليب سلطان الأغنياء على المجتمع ، وهو لا يكره الثورة ولا يعارض حقوق الملكية ولكنه يكره سيادة الطبقة الغنية على سائر الطبقــات ، ويؤمن كل الايمان بوجوب حرية التجارة واطلاق القيود للمعاملات لأنها لازمة للحضارة الانسانية لزوم حرية الفكر أو هى ألزم لها فى جمــلة أحوالها ، ولكنه على هذا الايمان القوى بحرية المعاملة كان يرى من حق المجتمع أن يشرف على تنظيم الملكية واقتناء الثروة لأنها كلها من صنع يديه ، فليس فى طاقة الفرد اذا انفرد بنفسه أن يحرز ملكا مصونا يزيد على ضرورات المعيشة الموقوتة ، فاذا أحرز شيئا يزيد على ذلك فانما يحرزه بفضل المجتمع وضماناته الطبيعية أو الموضوعة ، فلا يحق له أن ينكر على المجتمع سلطان الاشراف على التنظيم والتشريع فى هذه الأمور ، وانما يشترط لذلك أن يكون كل حامل عبء من الأعبــاء الاجتماعية شريكا مسموع الرأى فى شرائع التنظيم .

وليس انكاره لسيادة العلية الغنية انكارا لرياسة العلية التى ترفعها الى مكان الزعامة فضائل العقل والأخلاق ، بل هو يذهب فى الاصلاح الاجتماعى مذهب كنفشيوس الذى يقول باصلاح الرؤساء وهم قدوة

طبيعية للأتباع والمرؤوسين ، وقدوتهم هذه هي التى تخلق العرف وتروض السواد على اتباعه وتجعلهم على حسب المعهود من عاداتهم يحذرون الخروج على العرف أشد من حذرهم دخول الجحيم حيث يلقون العقاب على الخطايا والذنوب .

وتكاد عقيدة المساواة الديمقراطية أن تكون عنده انسانية عامة لا يخصصها بوطن ولا قوم ولا قبيل ، فلما لاحظ أن العبيد المحررين ظلوا فى حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة عقب على ذلك قائلا انه لا يعتقد أن العيب أصيل فى الطبيعة أو دائم لا يتغير بتغير الأحوال ، وانما يرجح انه من نقص التعليم والمرانة ، وأن الزنجى ذو ملكات حسنة واستعداد كامن للفنون ، ولذلك يحذق الموسيقى ويبرع فيها ، ولو تعلم فنا غيرها لما قصر فيه .

ومن رأيه — بل من آرائه الكثيرة — أن الرق مفسدة للمجتمع الذى يشيع فيه ، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويغرى الأطفال بالكبرياء والتجبر فى الأسر التى تملك الرقيق ، وقد أوصى بالاعتماد على العمل المأجور وتنبأ بشيوع ارتفاع الأجور فى العالم تبعا لارتفاعها فى الولايات الأمريكية بعد الغاء الرقيق .

وكان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة ، فليس الذهب والفضة معيارا ثابتا لها لأنهما سلعة تتقلب بها الأسعار كما تتقلب بسائر السلع ، وانما تقاس ثروة الأمة بمقياس الأعمال التى تحصل عليها ، وليست هذه الأعمال وقفا على الصناعات البدنية وما اليها ، بل هى تشمل أعمال الحضارة بأجمعها ، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياسا لغناه .

ولهذا كان يشجع اصدار عملة الورق ويقول انها رمز للعمل وان الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون .

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين ، ورب شلن يخرج من يد أحمق يذهب الى يد عاقل أحق منه باقتنائه ، فيستفاد منه فى الحالتين ، وأفضل من الصناعة فى قياس الفائدة على العمل أن تقوم الثروة فى أساسها على المحصولات الزراعية والعمال الزراعيين .

وكان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهى التى نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير . فاذا نفرت الأمة من حكومة وطالبت بحكومة غيرها فلا حاجة لها الى سند غير هذا الطلب ، ومن ثم سخريته بدعوى الدولة البريطانية أنها صاحبة الحق الذى لا ينازع فى حكم الولايات المتحدة ، لأن الأكثرين من أبنائها رعايا بريطانيون ينتقلون الى تلك الولايات ، ولأن الدولة البريطانية تولت حماية الولايات من عدوان فرنسا المجاورة لها ، فكتب رسالته الساخرة بلسان ملك بروسيا وجعل ذلك الملك يدعى مثل ذلك الحق على الجزر البريطانية لأن سكانها رعايا جرمانيون انتقلوا اليها وحكمهم فيها أمراء من الجرمان ، وتولت بروسيا حمايتهم بقمع فرنسا ومحاربتها الحين بعد الحين !

وقد كانت مبادئه الدستورية والقانونية تتسم بسمة يستطيع القارىء أن يقدرها بغير اطلاع عليها لأنها سمة الاعتدال والسماحة واجتناب الشطط فى الأحكام والقاء الفروض والتكاليف على عواتق الناس ، فكان ينكر العقوبة التى تجاوز قدر الجريمة فى الضرر أو قدرها فى الضلالة وسوء الخليقة ، وكان يؤثر فى الدستور قلة القيود والموازنات ، ولكنه لم يعلن مخالفته للمبادىء التى عارضها لأنه وازن بين دستور يصدر بالاجماع ودستور يؤيده فريق ويخالفه فريق ولو فى سبيل التصحيح والتنقيح ، فرجح عنده أن الاجماع على الدستور أجدى وأثبت لدعائمه من اعلان المخالفة له فى خطواته الأولى على الخصوص .

واذا كان هذا رأيه فى حسم الخلاف على الرأى فحسم الخلاف الذى يريق الدماء أحق منه بالجهد والحيلة ، لأنه كان يسمى الحرب لصوصية

وغيلة ، وهكذا كان برنامجه الداخلى فى سياسة الولايات ، وعلى هذا البرنامج استقامت أعماله فى كل سياسة داخلية أو خارجية ترتبط بالأمم الأخرى ، ومن عجائب دقته فى تقدير الأمور بأحوالها وأزمانها انه تنبأ عن عصبة الأمم وأن العالم ربما شهد بعد مائة وخمسين أو مائتى سنة هيئة يجتمع فيها المندوبون عن دول أوربة جميعا لفض المشكلات وتوطيد السلام ، وكان باينز Baynes ، وروملى Romilly فى شبابهما قد زاراه سنة ١٧٨٣ وتحدثوا فى مساوىء الحروب العالمية فقال فرنكلين انه يظن أن اقناع الملوك بارسال مندوبيهم الى مكان واحد لا يزال عسيرا ، وانهم مع الصبر قد يتفق بعضهم على منع العدوان ويرى الآخرون نفع هذا الاتفاق فينضوون الى الهيئة شيئا فشيئا ولا يبعد أن تضمهم الهيئة الواحدة أجمعين بعد مائة وخمسين سنة أو مائتين[1] .

وله غير هذه الآراء فى مذاهب السياسة والاجتماع خطرات متفرقة بين الرسائل والأحاديث . أما أكثرها فقد ورد مشروحا أو مقتضبا فى رسالته عن العملة الورقية ورسالته عن زيادة السكان وتعمير البلاد :

Observations Concerning the Increase of Mankind and the Peopling of Countries.

ومسحتها الغالبة عليها هـذه النظرية العملية التى تتقبـل التطبيق والتنفيذ فى حينها أو بعد حين ، اللهم الا خاطرة واحدة أوشـكت أن تسلكه فى عداد الطوبيين الأفلاطونيين ، وتلك هى استغناؤه عن الأحزاب السياسية بتأليف حزب واحد من الشبان العزاب يسميهم حزب الفضيلة ويدربهم على نظام خاص يشبه نظام الماسونيين واليسوعيين ، ويرجو منهم لخير المجتمع ما لا يرجى من سائر الأحزاب .

والأداة التامة فى الوظائف السياسية انما هى أداته فى أعمال التنفيذ والتطبيق ، وهى التى تعرف الآن باسم الوظائف الديوانيـة ويفرق المعاصرون بينها وبين السياسة فيسمونها بالادارة Statesmanship أو بولاية

(١) الجزء الأول من كتاب علماء أمريكا المشاهير لمؤلفه كروثر .

الحكم Administration ولا يعتبرونها من وظائف السياسة فى الصميم فهى على الأقل شيء غير الدبلوماسية ، وغير البوليطيقا ، وغير عمل السفير وعمل الوزير وعمل الزعيم المطالب بقيادة الجماهير .

وحيثما كان هنالك تدبير للتنفيذ العملى فصاحبنا فى عنصره على تعبير الغربيين ، أو فى مجاله ومعدنه كما نقول نحن الشرقيين .

وليكن ذلك التدبير من صناعته أو غير صناعته ، ومن مألوفاته قبل ذلك أو غير مألوفاته ، فما دام فى وسعه أن يعرف ما هو العمل المطلوب ففى وسعه أن يعرف ما هى وسائل التنفيذ وأن يدبر هذه الوسائل أصح تدبير .

والادارة خطة وتنفيذ ، وليس أطبع من ذهنه على وضـع الخطط وترتيب الأعمال ، ثم على تنفيذها بالأدوات اللازمة لها بغير اسراف وبغير اهمال .

وأكثر ما يصاب المديرون بالفشل من عجزهم عن الانتفاع بأدوات التنفيذ حين تكون هذه الأدوات من الآدميين !

فليس أكثر من المديرين الذين يستخدمون الوسائل الآلية ويحاولون أن يعاملوا المشتغلين معهم من الآدميين معاملة الآلات .

ولكن فرنكلين كان يحفظ هذه الأدوات الحية جيدا ويعرف كيف يسلك معها وكيف يسلك بها فى طريقه ، ولهذا كان يفلح فى كل ادارة تحتاج الى التنفيذ بالأدوات الآدمية ، ولو لم تكن من صناعته ولا من سوابق عمله كادارة معارك القتال .

أراد الجنرال برادوك Braddock قبل كارثته الحربية فى مونتجهيلا Monongahela أن ينقل معداته فى مائة وخمسين مركبة وظن أن المسألة كلها مسألة أمر للفلاحين وسوق للمركبات بالخيل ، وعنده الأمر وعنده من يسوق . فلم يحصل بعد الجهد الجهيد على أكثر من خمس وعشرين

مركبة ، وفزع الى فرنكلين فحصل له على المركبات المطلوبة كلها بخيولها قبل انقضاء أسبوعين .

وتحدث الجنرال وفرنكلين فى « الخطة » الحربية فحذره فرنكلين من مفاجآت الكمائن ونبهه الى قلة جدوى الخطط النظامية فى اتقاء هذه المفاجآت مع امتداد خط القتال ، فسخر منه الجنرال وقال له ان هذا الحذر ضرورى للكتائب التى تقودونها من الجنود المرابطة « ولكن هؤلاء الهمج لا ضير منهم على جنود الملك المنظمين » .

ووقعت الكارثة فبادت الفرق التى كان يقودها وقتل ثلاثة وستون ضابطا من تسعة وثمانين ، وأدرك فرنكلين الخطر الداهم فجند من السكان نحو ستمائة للدفاع عن الحدود واقامة المتاريس وأصاب فى القيادة حيث أخطأ القائد المغرور ، ولم يغفل عن عمل لازم فى أشد أيام الشتاء وقد ناهز الخمسين ، وكان الجنود والسكان يسمونه الجنرال فرنكلين ، ثم أبى جنوده بعد عودته الى فلادلفيا أن يفارقوه حتى يؤدوا له التحية عند منزله ، وصحبوه ، كما قال فى ترجمته ، الى الباب ثم أعلنوا تحيتهم بالطلقات النارية فى الهواء ..فهزت الدار وحطمت أجهزة الكهربا وهى من زجاج !

واذا كان مقام الكلام عن الخبرة باستخدام الأدوات حين تكون هذه الأدوات من الآدميين — فليس ما ينسى فى هذه الحملة نفسها مشورته على الواعظ الذى شكا اليه أعراض الجنود عن حضور الصلاة والاجتماع للدعاء ، وكان من جراية الجنود أقداح من شراب الروم للتدفئة فى الشتاء القارس ، فلما سمع شكوى الواعظ المكروب وأشفق عليه من خوفه للهزيمة بعد هذا الاعراض — تبسم مطمئنا للواعظ الخائف وقال له : لا عليك من اعراضهم . خذ على عاتقك توزيع جراية الشراب ولا توزعها الا بعد أداء الصلاة ... فلم يتخلف بعدها جندى واحد عن موعد الصلاة !

وهذه الخبرة بالادارة فى الشئون التى لم يتدرب عليها تغنى عن الافاضة فى دقائق التنظيمات التى كان يبتدعها باجتهاده كلما أدار عملا من الأعمال التى يتصدى لها أمثاله ولا تستغرب من مدير مطبعة أو مدير صحيفة . لأنها جميعا أعمال من نمط واحد ، ومنها تنظيم البريد وتنظيم الاضاءة فى المدينة وتنظيم فرق المطافىء وتنظيم مكاتب الهيئات النيابية والهيئات العلمية التى أسهم فى أعمالها ، فكل أداة لازمة لهذه التنظيمات فهى على متناول اليد من تفكيره وسجاياه : فهم صحيح ، وتقسيم متقن ، وتنفيذ مرتب ، وخبرة باستخدام الأدوات الحية والأدوات الصناعية على السواء .

« سياسى بالطبع » اذا صح هذا التعبير . والسياسى بالطبع يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التى تمليها الحوادث عليه .

ولا يختم الكلام عن فرنكلين السياسى قبل أن يقال ان بلاده قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هى فكرة الاتحاد ، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد .

الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول ، ويشفع ذلك أحيانا بقوله عنه انه أول فيلسوف وجه أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر فى الديار الأمريكية .

وكانت الأندية الأدبية فى باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين .

وكانت كلمة « الفيلسوف » كالاسم الغالب عليه بعد عودته الى بلاده فى أخريات أيامه .

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية فى عصره . فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معانى الكلمة الا هذا المعنى الحديث الذى غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الانسانية ثم شيوع التخصص فى كل معرفة منها . ونريد به الفلسفة التى غلبت على بحوث « ما بعد الطبيعة » وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها . فهذا هو مجال الفلسفة الذى لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة ، ولم يرد أن يكون منها ، ولا نخاله كان مستطيعا أن يكونه لو أراد . لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى منه أن يأتى فيه بما يفيد .

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديم ، وهو محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها فى أحوال الحياة اليومية ، ولعله عرف هذه الفلسفة عملا قبل أن يعرفها علما واطلاعا . لأنه نشأ فى بيئة المتطهرين وعرف بالقدوة والبداهة أن الأخلاق المثلى نظام من نظم الحياة الدنيوية .

وكان فرنكلين فيلسوفا بمعنى يوافق معنى الكلمة الحديث ، وهو

استخراج العلل والنظريات الفكرية لكل مبحث من مباحث العلم والاختراع التى اشتغل بها منذ شبابه ، فكان يقدر الرأى والعلة ثم يبنى عليهما الاختراع ، أو كان يخترع ما يخترع ثم يعمم الرأى والعلة على المتشابهات من الظواهر الطبيعية ، ولولا هذه الفلسفة العلمية لما جمع بين البرق والشرارة الزجاجية فى نظرية واحدة .

وكان فيلسوفا بمعنى الكلمة الذى شاع فى كل زمن وجعل الفلسفة ضربا من التصوف العقلى يوحى الى صاحبه التقشف والزهد فى المظاهر الفارغة التى يفتن بها المتكالبون على الحياة ، ولم يكن فرنكلين متقشفا أو زاهدا فى دنياه ، ولكنه كان يطلب الشيء لمعناه لا لمظهره ، ولأنه هو يبتغيه لا لأن الناس يبتغونه بالمحاكاة والتقليد .

أما الفلسفة التى تستغرق صاحبهافيما وراء الطبيعة وفى الجدل حول مباحثها فلم تكن من فلسفات فرنكلين ، لأنه كان ينفر من النظريات التى لا يحسها ولا يدركها ، وكان ينفر من الجدل كما قال فى مفكراته ، وان كانت مطالعته لسقراط قد أكسبته قدرة عظيمة فى فنون الحوار ، وكادت أن تنحرف به الى شقاشق الجدل فى بواكير حياته الفكرية .

وقد اطلع فرنكلين على كتب الفلسفة التى وصلت الى يديه فى بوستون وفلادلفيا ، وقرأ منها كتاب كولنز Collins محاضرة فى التفكير الحر Discourse of Free thinking وكتاب شافتسبرى Shaftsbury بحث فى الفضيلة أو الجدارة Inquiry Concerning Virtue of Merit وكتاب درهام Derham فى اللاهوت الطبيعى Physico-Theology[1] وغيرها من الكتب التى من قبيلها ، واطلع على أطراف من مذاهب الفلسفة الاغريقية ولا سيما مذهب أفلاطون ومذهب فيثاغوراس ، واطلع على كتب الجدل الدينى التى وجدها عند أبيه فخلص منها جميعا الى عقيدة كعقيدة أبى العلاء فى التفرقة بين الظن والعقل اذ يقول :

كذب الظن لا امام سوى العقـ
ـل مقيما فى صبحه والمساء

(١) Masters of American Literature

وارتأى أن قبول العقل للعقيدة هو السند الوحيد الذى يكسبها حق الايمان بها ، وأنه لا حق للاعتقاد حيث يكون العقل بلا عمل وبغير مشاركة فيه .

ودان زمنا بمذهب النباتيين ، ثم مال من مذهب النباتيين الى بقية مذهبهم فى وصايا فيثاغوراس المعروفة ، ومنها تناسخ الأرواح وتسلسل الأدوار ... وراقه أن يشبه الأدوار المتلاحقة بعمل من أعمال الطباعة التى كان يزاولها ، فقال ان الانسان طبعات متعددة تظهر تباعا فى كل جيل من الأجيال الأبدية بعد التصحيح والتنقيح [1] وانه يرجو أن تظهر منه طبعة مصححة منقحة بعد موته ، ويود أن يذكر ما كان حيث يكون فى مستقبل الأجيال !

وابتدأ فى الثانية والعشرين من عمره بعقيدة فى الدين لم تزل تترقى معه الى أن جاوز الثمانين ، ولخص هذه العقيدة فى رسالة من جزئين سماها أصول العقيدة وشعائرالديانة Articles of Belief and Acts of Religion لم يوجد منها غير جزء واحد هو الذى تترجم منه ما يلى نقلا عن كتاب أقطاب الأدب الأمريكى الذى سبقت الاشارة اليه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

« وانى لأرتفع بخيالى وراء نظم السيارات ، ووراء الشموس الثوابت ، وأسبح فى هذا الفضاء الذى لا نهاية له وهذه الشموس التى يدور حول كل منها أسراب من السيارات كسيارتنا الأرضية الى غير نهاية ، فتلوح لى هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها كأنها العدم حتى فى خيالى الكليل ، وأرى نفسى الى جانبها أقل من العدم فأحس أننى شىء ضئيل لا شأن له ولا خطر ، وأحس كذلك أنه لمن الغرور البالغ أن أتوهم أن ذلك الخالق الكامل يحفل بهذا (اللاشىء) الذى يسمى

---

(١) كتاب مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر
Famous American Men of Science.

الانسان ، وانه تحق له من الانسان العبادة ، ولكنه هو جل وعلا فوق ذلك بما لا تحصره العقول .

غير أن الناس جميعا ينطوون على شعور طبيعي يميل بهم الى القداسة أو الى التعبد لقوة عظيمة وراء الأبصار ، وقد وهب العقل للانسان بين الأحياء فارتفع به فوق سائر الحيوان الذى نعرفه فى دنيانا ، ومن ثم يبدو لى أننى مطالب بالواجب على — كانسان — أن أتوجه بالصلاة والتعظيم الى ذلك الكائن العظيم .

« وأدرك على هذا أن الإله الصمد قد خلق أربابا لا عداد لها تعلو على الانسان علوا كبيرا وتفهم من أسباب كماله ما لا يفهم ، وتعيد اليه الثناء والجزاء على النحو المعقول .

« كما أنه بين الناس لا يبالى المصور القدير ما يلقاه من ثناء الجهال والأطفال مبالاته بثناء العارفين وذوى الدراية بالتصوير — كذلك الأرباب التى يخلقها الآله الأعظم قد تبقى ولا تفنى ، وقد ترتفع من مقام الى مقام ، ويخطر لى أن كل رب منها له الحظ الأوفر من الحكمة والقدرة ، وأن كلا منها جعل له منظومة شمسية تدور عليها أسراب من السيارات ، والى هذا الرب الذى أبدع منظومتنا أتجه بالثناء والتقديس. لأنه خليق أن يشتمل على شىء من الطبائع التى أودعنا اياها ، ولأنه منحنا العقل الذى ندرك به حكمته فى خلقه فهو لا يزهد فى ثناء عباده ولا يرضى عن الجهل بفضله والاستهانة بمجده .

« وأفهم لأسباب كثيرة أنه صالح ، ويسعدنى أن أظفر بالود من كائن على هذه الصفة من الحكمة والخير والصلاح ، فعلىّ اذن أن أنظر فيما يرضيه وأبحث عما يولينى منه العون والرعاية .

« وأفهم أنه يرضى عن اسعاد خالقه كما يرضى عن الاقرار بفضله والتوجه بالدعاء اليه ، ولا سعادة فى الحياة بغير فضيلة ، فمما يرضيه اذن أن أتحلى بالفضيلة فيسعد بمخلوقه السعيد .

« ولما كان قد خلق فى هذه الدنيا كثيرا من الأشياء التى لا غرض لها فيما يبدو منها غير اسعاد الناس ، فانى لأومن أنه لن يغضب على أبنائه الذين ينعمون بتلك الأشـياء ويمتعون أنفسهم بالرياضـات الحسنة والمسرات البريئة ، وأنه لن يكون من المسرات البريئة ما فيه ضرر لانسان.

« اننى أحبه اذن لصلاحه ،وأعبده اذن لحكمته ، وعلىّ ألا أغفل عن حمد هذا الرب لأنه حقه الذى لا أملك جزاء له غيره ، وعلى أن أصحح العزم على التحلى بالفضيلة واغتنام السعادة لأرضيه بما فيه رضاى » .

هذه العقيدة الساذجة مستمدة على ما يظهر من فلسفة أفلاطون الذى كان يفترض وجود الأرباب الصغار للتوسط بين إله الكون والانسان وتعليل ما يحدث فى العالم من الشر والأذى ، وقد أعجبت فرنكلين فى سذاجة الشباب فدان بها واصطحبها فى أطوار حياته يعد لها ويكملها ، ويعرضها على مقاييسه العلمية كلما تقدم فيها خطوة من الزمن والخبرة ، فآمن بخلود الروح وحسابها بعد الموت لأنه قاسها على خلق المادة فرأى أن الأرواح أحق بالصيانة والبقاء من المصنوعات المادية ، وأن الله علمنا من حكمته أنه قادر على خلق مادة جديدة لكل جسم وكل شىء ولكنه يتجنب الشتات والبعثرة ولا يصنع شيئا ليزيله ويفنيه ، فليس من حكمة القصد فى الخلق أن توجد الأرواح لتؤول الى الزوال والفناء .

وقد بقى معه من هذه العقيدة ايمانه بالله وبالروح وبالحساب وكتب خلاصة عقيدته الى عزرا ستايل فى الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ أى قبل وفاته بأيام ، فقال :

« هذه عقيدتى :

« أومن باله واحد خالق للكون كله ، وأومن بأنه يديره بحكمته ، وأنه حقيق بالعبادة ولا شىء أرضى له من صنع الخير لمخلوقاته الأخرى.

« وأومن بخلود الروح، وأن الانسان يحاسب بالعدل بعد موته على

ما صنع فى هذه الدنيا . وهذه عندى هى أصول الايمان فى الدين الصحيح وهى فى موضع الاجلال عندى حيث وجدتها فى كل نحلة وملة .

« أما عيسى الناصرى الذى يهمك أمر الاعتقاد به خاصة فاعتقادى فيه أن وصاياه الأخلاقية وديانته كما تركها لنا خير ما شهدته الدنيا أو عساها تشهده ، ولكننى أرى أنهـا تعرضت لمختلف التغيـيرات والتحريفات ، وأشك فى الاهيته كما يشك معظم المخالفين الآن فى انجلترا ، وان كنت لا أقرر فى ذلك عقيدة محتومة لأننى لم أدرس المسألة ولم أر ضرورة لهذا الدرس وأنا مقبل على الحقيقة أعرفها بأهون من هذا العناء . ولست أرى ضررا فى اعتقاد من يعتقدها اذا كان لها كما هو الراجح أثر فى زيادة الاحترام لوصاياه وزيادة العمل بها ، وبخاصة حين أنظر فلا أرى أن العـلى الأعلى يغضب لهـا ويميز بين من يعتقدونها ومن لا يعتقدونها فى سياسته للكون أقل تمييز . وأضيف الى هذا فيما يخصنى أننى — بعد ما اختبرته من كرم الله خلال حياتى هذه — لا يخامرنى الشك أنه سـيتولانى بمثله فى الحيـاة الآتية ، وان لم أكن أهلا له بعملى .. » [1] .

هذه الفلسفة الدينية ، أو هذه الديانة الفلسفية ، وافقت فرنكلين فثبت على أصولها من الثانية والعشرين الى الرابعة والثمانين ، وحرى أن توافقه كل الموافقة وأن يطمئن اليها غاية ما يتاح له الاطمئنان فى هذه الغوامض والمتشابهات . لأنها فلسفة نبتت من عقله وسليقته وأوشكت أن تنبت من كيان أعمق فيه من العقل والسليقة . فان هذا الكيان المتزن قد تمثل فى بداهة حيوية عنده توحى اليه بخطة القصد فى جميع الأمور . فهنا فرنكلين العالم الذى يعقل بداهة أن الطبيعة تأخذ بسنة « الجهد الأقل The Least Action » فلا تحيد المادة عن القريب وتتخطاه الى البعيد ولا تدع الطاقة موضعا لا مقاومة فيه لتمضى الى موضع تجد فيه المقاومة

(١) من كتاب الكتابات الترجمية جمع واختيار كارل ڤان دورن .
Benjamin Franklin Autobiographical Writings

وتتعثر فيه بالعوارض والموانع ، وهنا فرنكلين الهادىء الرصين الذى لا يكلف نفسه ولا يكلف أحدا فى عمل من الأعمال فوق حقه من العناء وشغلان البال ، وهنا فرنكلين الفيلسوف المؤمن الذى يبنى على هذه السنة — سنة القصد — حكمة القصد الالهى التى لا تخلق الأرواح لتزيلها وتفنيها ولا تخلقها عبثا ليتساوى عندها بقاؤها وفناؤها بعد ظهورها فى عالم الحياة . ومن عجائب النفس البشرية أن المطبوعين على التهكم الذين يتهكمون على كل غلو فى التفكير والاحساس هم أقرب الناس الى الوقوع فى هذا الغلو الذى يعرضهم للتهكم من أناس دونهم فى الذكاء وأصالة التفكير ، ولولا ذلك لما غلا فرنكلين فى عقيدة « الجهد الأقل » حتى طبقها على الموازنة بين الدراسة والمشاهدة بغير عناء ، ففى خطابه المتقدم يقول انه لم يجشم نفسه مشقة الدراسة فى تحقيق طبيعة السيد المسيح لأنه اذا كان سيرى الحقيقة عيانا فى العالم الآخر فالرؤية أيسر عليه من الدراسة !

وكفى بهذا حجة لمن ينفى عن فرنكلين شبهة المغالطة فى العقيدة التى استقر عليها ، فان المرء ليغالط فى كل شىء الا فى الطبع الذى يتأصل منه وراء الوعى والمشيئة .

وبديهى أن عقيدة فرنكلين هذه لم تكن عقيدة الأكثرين من الخاصة والعامة بين قومه وغير قومه ، وانه ليعلم ذلك ولا يخطر له أن يزعج ضمائر الناس بالجدل والنقاش ليقنعهم بصواب رأيه ، وليس سكوته هذا حبا للسلامة أو مراءاة لمخالفيه ، بل هو الصواب فى رأيه حين تعنيه السلامة وحين لا تعنيه ، وقد كان ينصح به أناسا لم يكن لهم عنده حق الصداقة والنصيحة ، ومنهم من تحول عن صداقته وجافاه بعض المجافاة كما حدث فى العلاقة بينه وبين الكاتب المفكر الكبير توماس بين Paine فانه قرأ كتابه المخطوط الذى سماه عصر العقل وأرسله اليه لاستطلاع رأيه ، فكتب اليه فى الثالث من شهر يوليو سنة ١٧٨٦ يقول : « ان الحجج التى اعتمدت عليها فى انكار الحكمة الخاصة — وان لم تنكر

الحكمة الإلٰهية العامة — لتضرب المعول فى أساس كل دين . اذ لا باعث للعبادة والخوف من الجزاء أو التوسل بطلب الوقاية اذا زال الإيمان بإلٰه يحرس ويهدى ويخص بالرضوان بعض الناس ، ولست أريد أن أناقشك فى تلك الحجج وان كنت أحسب أنك تطلب هذه المناقشة ، وحسبى فى الوقت الحاضر أن أقول لك ان حججك قد تبلغ من المهارة أن تقنع طائفة من القراء ، ولكنك لن تفلح فى تغيير الاجماع الانسانى على الشعور المتفق فى هذه الأمور ، وكل ما تجنيه من نشر هذه الرسالة أن تجلب على نفسك الكراهية ، وأن يصيبك الضرر بفعلك ولا ينتفع به أحد . واعلم أن من يبصق فى وجه الريح فانما يبصق على وجهه . وهب أنك نجحت فيما قصدت اليه فهل تخال فى ذلك نفعا كائنا ما كان ؟.. انك قد يسهل عليك أن تعيش عيشة فاضلة بغير معونة الدين ، وأن يكون فهمك الجلى لمحاسن الفضيلة ومساوىء الرذيلة مع قوة عزيمتك كفيلا بتمكينك من مقاومة الاغراء والغواية . ولكنك قمين أن تعلم كم من ذوى الجهالة والضعف بين الرجال والنساء وكم من الأغرار والطائشين بين الناشئين تنفعهم بواعث الدين فى اجتناب الرذيلة والثبات على الفضيلة والصبر على هذا الثبات حتى يصبح فى حكم العادة التى تهم جدا فى صيانتها ومناعتها ، ولعلك أنت نفسك مدين بتربيتك الدينية لهذه العادات التى ترفعك بحق فى نظر نفسك . وانك لتستطيع أن تستخدم ملكاتك البارعة وقدرتك على الاستدلال فى علاج موضوع دون هذا الموضوع فى مزالق الخطر فتحتل مكانك بين المؤلفين النابهين منا ، اذ ليس من اللازم بيننا — كما هو لازم بين آكلى البشر من الهوتنتوت — أن يبرهن الشاب على بلوغه مبلغ الرجال واستحقاقه للحسبان منهم باقدامه على ضرب أمــه .. » (1) .

ومن الواجب فى مقام التعريف بحقائق النفس الانسانية أن نفرق بين هذا الخلق وبين خلق الرياء الضعيف أو الكذب المرذول ، فليس

(1) Masters of American Literature.

أبعد من الفارق بين الرياء الذى يخدم به المرء نفسه ولا يبالى منفعة الناس والايمان بالصواب الذى ينفعهم ويحق له أن يحرص عليـــه .
ولم يعرف عن فرنكلين قط أنه كان يرائى أحدا فى عقيدة من عقائده التى يحفظها لنفسه ولا يرى من الواجب عليه أن يعلنها لغيره ، فاذا سأله سائل ذو مكانة عنده ولم يكن من الأدب فى رأيه أن يهمله ويسكت عن جوابه صارحه بما يعتقد وأبلغه عقيدته على حقيقتها ، ولو أنه كان يستبيح الرياء مع أحد لاستباحه مع أبويه وهو الحريص على ارضاء الناس عامة فضلا عن حرصه على مرضاة الوالدين . فقد أبلغه أبوه ان أمه تشكو اليه أن ولدا لها يدين بمذهب الآريين وأن أخاه يدين بمذهب الكنيسة الشرقية ، وكان فرنكلين يومئذ فى الثانية والثلاثين فأجاب أباه ولم يكتم معتقده ، بل قال له ولأمه بأسلوب صراح : « ما هو الآرى وما هو تابع الكنيسة الشرقية ؟ لا أستطيع أن أقول اننى أعرف الفرق بينهما حق المعرفة ، والواقع أننى قليلا ما أشغل عقلى بالبحث فى هذه الفروق والخلافات ، وأرى أن الدين الصحيح يمنى بالخسار كلما غلبت المراسم على الفضيلة ، وأن الكتب المقدسة تؤكد لى أننا نحاسب فى اليوم الآخر على ما عملنا لا على تفكيرنا فى المذاهب ، ولن تكون شفاعتنا أننا طفقنا نصيح : يا رب يا رب ! بل يشفع لنا ما صنعناه من الخير لخلائق الله » [1] .

فمذهب فرنكلين فى كتمان عقيدته أشبه شىء بمذهب الجـلة من الحكماء الأقدمين الذين كانوا ينصحون بكتمان الحقائق الغامضة عمن لا يدركونها ، ولم تمنعه مخالفة السواد أن يحبب اليهم التدين والاجتماع لسماع العظات وأداء الفرائض التى يعتقدونها ، وساءه زمنا أن يرى سواد الناس معرضين عن الصلاة لأنه رأى منهم بوادر الاباحة والتهافت على المنكرات فشرع فى تنقيح كتب الصلوات ومذاكرة المصلحين من رجال الدين عسى أن يهتدوا الى أسلوب من أساليب الارشاد أجدى فى اقناع

(١) Franklin. His contribution to the American tradition by Bernard Cohen

شعبهم من أساليبهم العتيقة التى درجوا عليها ، وسوى بين الملل والأديان فى وجوب الاحترام فساعد أناسا من غير المسيحيين على احياء شعائرهم فى جواره ، وقال انه لو علم أن المفتى الأعظم بالقسطنطينية يوفد الى الديار الأمريكية رسولا من دعاة الاسلام لتلقاه بالترحاب [1] .

ومن تناسق هذه الشخصية البسيطة أنها تطرد فى آرائها وخلائقها ، فما بدا منها دليل على ما استتر ، ومن عرف رأيا لها فى مسألة خطيرة أوشك أن يعرف سائر آرائها فى المسائل الأخرى ، وهذه الفلسفة الدينية التى آمن بها فرنكلين تغنينا عن الاسهاب فى تفصيل فلسفته الأخلاقية ، بل ربما كان الأصح أن نقول ان فلسفته الدينية قائمة على قواعده الأخلاقية ، لأنه يقيم الفضيلة على قواعد المصلحة العليا : مصلحة الفرد ومصلحة النوع بأسره ، فهى مطلوبة لأنها صالحة باقية ، والرذيلة مكروهة لأنها فاسدة زائلة ، ومن وازن بين مسرات الفضيلة وآلامها خرج من الموازنة بايثارها على الرذيلة ، لأن آلام الرذيلة أكثر من مسراتها ، وكثير من مسراتها زائف مدخول يجنى الضرر على صاحبه أو على غيره ، خلافا لمسرات الفضيلة التى تصح فى جوهرها ولا يخشى منها الضرر على أحد .

ولم يكن فرنكلين مثاليا حالما فى رأى من آرائه ، ولكنه لم يكن كذلك من الاباحيين المستهترين بالمبادىء والقيم الأدبية ، بل كانت له خطة يروض نفسه على اتباعها ويحاسب نفسه على التقصير فيها ، وقد بلغ بهذه الخطة مرتبة الاعتدال ولم يبلغ بها مرتبة العصمة بطبيعة الحال ، فهى فى شئون الآدميين ضرب من المحال .

كان خاطئا ولم يكن اباحيا ، وكان من خطاياه ما عرفه الناس بغير اختياره ومنها ما عرفوه من كلامه . اذ اعترف بانقياده للشهوات فى شبابه وعاب على نفسه أنه انقاذ لهذه الشهوات حتى اندفع الى عشرة بعض

---

(١) كتاب برنارد المتقدم ذكره .

النساء ممن لا أخلاق لهن ولا كرامة ، وجملة ما يفهم من وصاياه ومن معاذيره فى شئون الأخلاق الاجتماعية انه يحارب الفساد ويحسب منه رياء المجتمع فى التمييز بين المفسدين ، فانه يأخذ المرأة بالذنب ويعفى شريكها منه ، وقد ينسى الحقائق فى سبيل المراسم والتقاليد ، وعليه اللوم اذا فسد من بنيه وبناته من هو مستعد للصلاح ومن هو صالح لأن يكون عضوا من أعضاء المجتمع كالعضو السليم فى البنية الحية .

وقد نشر — وهو فى الحادية والأربعين — نبذة فى مجلة الجنتلمان عن امرأة سيقت الى ساحة القضاء ليعاقبها على الولادة بغير زواج ، ووزرها فى سوء الحظ أكبر من وزرها فى سوء النية كما يؤخذ من كلامها الذى ألقاه فرنكلين على لسانها ، وهذه فقرات منه بعد مقدمته القصيرة :

« كل ما أرجوه فى ضعة وانكسار أن تتشفعوا لى لدى الحاكم أن يعفينى من الغرامة التى تحكمون بها علىّ . فهذه خامس مرة — أيها القضاة الأجلاء — أساق فيها أمامكم لتهمة واحدة . وقد عوقبت مرتين لأننى عجزت فى المرتين عن سداد الغرامة المقررة . وربما كان هذا موافقا لحكم القانون فلا أناقش فيه ، ولكن القوانين أحيانا تخطىء فيتقرر الغاؤها من أجل ذلك ، وغيرها يجثم ثقيلا على كواهل الرعية فى بعض الأمور فيجعل من حق السلطان أن يرفع أحكامها أو يخففها .

« فاسمحوا لى أن أقول ان هذا القانون الذى أدان به مناقض للعقل فى ذاته وقاس بالنسبة الىّ خاصة من جهة أخرى — أنا التى قضيت ما قضيت من حياتى فى جيرتى غير عادية ولا باغية على أحد ، وأتحدى عداتى — ان كان لى عداة — أن يذكروا اسم رجل أو امرأة أو طفل أسأت الى أحد منهم ، فاذا تركنا قضاء هذا القانون جانبا فلست أفهم ما هى الجناية التى أعاقب عليها .

«لقد ولدت خمسة أولاد أصحاء مخاطرة بحياتى ، وقد ربيتهم بجهدى وكسبى دون أن أثقل على المدينة بمنحة أو معونة ، وكنت خليقة أن

أحسن تربيتهم فوق ما أحسنت لو لم تؤخذ منى تلك الغرامات الثقيلة التى فرضت علىّ . أفيحسب من الاجرام فى طبائع الأشياء أن أزيد عدد السكان فى وطن لا يزال فى حاجة اليهم ؟ أخال أننى أحمد على هـذا ولا ألام ، وما حدث منى أننى أغويت زوج امرأة أو أغريت أحـدا من الفتيان ، وما عوقبت قط على جريمة من هذا القبيل ولا اقترفت ما يشكوه أحد قط اللهم الا أن يكون مكتب العقود قد خسر الرسوم التى يتقاضاها على الزواج .

« على أننى أسأل : هل يحسب هذا من خطئى وتقصيرى ؟ اننى ألجأ الى عدالتكم وقد تفضلتم فقلتم اننى مالكة لقواى العقلية ولا تعوزنى سلامة الفكر والادراك ، واننى لأكونن على غاية من الغباء لو رفضت الزواج وآثرت الحالة التى أنا عليها الآن على الحياة الزوجية ، وقد كنت ولا أزال راغبة فى تلك الحياة ولا أشك فى صلاحى لها وحسن قيامى بمطالبها ، اذ كنت على نصيب من النشاط والقصد ولست بالعقيمة ولا بالقاصرة فى تدبير شئون الدار ، وأعود فأتحدى كائنا من كان أن يزعم أننى رفضت طلبا للزواج . بل حدث على نقيض ذلك أننى تقبلت الطلب الوحيد الذى تقدم به أول خاطب لى وأنا بعد عذراء ، ووثقت به وباخلاصه فعبث بى وهجرنى وفى جوفى جنين .

«وأرجو أن تعلموا جميعا أن هذا الخاطب قد أصبح قاضيا فى هذا الاقليم ، ولكم وددت لو كان جالسا اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق فى توقيع الجزاء علىّ ، وكنت اذن لا أبالى أن أذكر ما ذكرت من أمره . ولكننى أقول الآن مضطرة انه ليس بالعدل ولا بالمساواة فى الجزاء ، وانه ليس من الانصاف أن يكون المسىء الىّ والمتخلى عنى والسبب الذى أوقعنى فى كل جريرة — آمنا مترقيا الى مناصب الشرف فى الدولة التى تديننى بوصمة العار والمسبة .

« ولقد يقال لى ان الخطيئة خطيئة الدين ان لم يكن لهيئة التشريع

حكم فيها . فان تكن خطيئة دين فدعوها اذن لرب الدين ، وقد حظرتم عليَّ أن أدخل كنيستكم . فما بالكم لا تقنعون بهذا الحرمان .. »

هذه فقرات من مقاله الذى نشره فى صحيفة الجنتلمان (عدد ابريل سنة ١٧٤٧) وسماه دفاع مسز بولى بيكر ، وأراد أن يعرض فيه مظلمة من مظالم المجتمع تلام عليها المجتمعات قبل ملامة الأفراد ، وأن يقدم الاهتمام بالحقائق ودواعى الفطرة على الاهتمام بالمراسم والتقاليد ، ومن كان يحاسب نفسه بسجل يومى مكتوب عما زاد أو نقص من الفضائل المطلوبة لا يظن به أن يبيح الجماح والانطلاق من نظام الحياة الاجتماعية ، وانما هو عارف بالمعاذير حيث ينبغى أن تعرف ، وعارف بمواطن اللوم على المجتمع حيث ينبغى أن يلام .

كان خاطئا يقع فى الخطيئة ولكنه لا يبيحها ولا يعفى نفسه من الملامة عليها والعمل على استدراك جرائرها كما سيأتى فى الكلام على فرنكلين الانسان ، وكان يحب السرور ولا يرى فيه حرجا من الدين ولا من الأخلاق ، بل يراه واجبا من الواجبات التى ترضى عنه خالق الكون وما فيه من مسرة وجمال ، وشرطه فى السرور ألا يضر أحدا ولا يسف بالكرامة الى مباذل الشهوات ، فان لم يكن فيه ضرر ولا اسفاف ولا ابتذال فهو حق للانسان بل واجب عليه .

ومما عرف عنه أنه قضى زمانا لا يذوق الخمر خفيفها ولا ثقيلها ، وكان رفاقه فى مطبعة العاصمة الانجليزية يدعونه الى شرب الجعة معهم فيأبى معتذرا ويسمونه من أجل ذلك بالأمريكى شارب الماء .. وقد نظم فى شبابه نشيدا لمجلس الشراب يشترك مع المجلس فى غنائه ولا يشترك معه فى شرابه ، وما حرمها على نفسه لأنها حرمت عليه بحكم الدين أو القانون ، ولكنه حرمها لأن سرورها مشوب غير خالص من العقبات وغير مأمون فيه أن يسترسل مع الشارب الى الافراط والادمان .

لقد كان فرنكلين فيلسوفا بكثير من معانى هذه الكلمة فى وضعها الأول ووضعها الحديث :

كانت له عقيدة مفكر فى الدين ، وكانت له نظريات باحث فى العلم ، وكانت له مبادىء مبتدعة فى السياسة ، وكانت له آداب مرعية فى نظام المعيشة ، وكانت حياته الخاصة والعامة مدروسة من الوجهة الفكرية مروضة من الوجهة النفسية ، وبعض أولئك كفيل بحسبانه فى زمرة الفلاسفة المعدودين . الا أنه فيلسوف يصعب على مؤرخى الفلسفة أن يضعوه تحت عنوان واحد من عناوين المدارس الفلسفية غير مستثنى منها مدرسة البرجمية التى ظهرت فى وطنه بعد وفاته بأكثر من مائة سنة وقيل عنها انها المدرسة النموذجية للأمريكيين ، وقيل عنه انه رائدها الأول من العلماء المفكرين .

نعم لا استثناء للبرجمية من مدارس الفلسفة التى يحاول المؤرخ الفلسفى أن يضع فيها فرنكلين . لأن ميزان الحقيقة عنده غير ميزان الحقيقة فى المدرسة البرجمية ، ولأنه قد يحتوى البرجمية ولا تحتويه . وانما تزول هذه الصعوبة اذا أردنا أن نضع الفاصل بين فرنكلين وبين كل مدرسة فلسفية أو دعوة فكرية . فحيث لا عمل لا فلسفة لفرنكلين ، وحيث لا توجد الفكرة المفهومة فلا عمل كذلك لفرنكلين . وبهذا ينفصل أحيانا عن الواقعيين كما ينفصل عن المثاليين ، وأصدق ما يكون تعريف الفيلسوف هنا تعريف الانسان فى مذهب أرسطو ، وهو الحيوان الناطق المدنى بالطبع ، فهو حى يفكر لا ينسى وشائج القربى بينه وبين أبناء نوعه ، وذلك هو فرنكلين الفيلسوف .

وذلك أيضا هو فرنكلين الانسان .

الإنســان

دنيوى .. عصرى .. انسانى .. نفعى .. ساخر .. طينته عادية .. مستر أمريكان !

هذه كلمات وصف بها فرنكلين ، وأراد واصفوه بها أن يحصروه فى قشرة بندقة كما يقولون فى اصطلاحات الغرب ، فأصاب كل منهم اصابة لا خلاف عليها ، وأخطأ كل منهم خطأ لابد أن يستدرك عنـد الاحاطة بصفات فرنكلين .

كل صفة من هذه الصفات لا تنبذ مرة واحدة ولا تؤخذ مرة واحدة . فهو فى الحق دنيوى ، وعصرى ، وانسانى ، ونفعى ، وساخر ، وطينته عادية ، ومستر أمريكان .. وهو غير ذلك اسـتدراكا على جميع تلك الصـفات .

ان الذين وصفوه بأنه دنيوى أرادوا كلمة Secular ،وهى تعنى أنه رجل واقعى عملى يقيس الأمور بما يحسه ويختبره ، وأنه فى خلائقه غير الرجل الصوفى الذى يعيش بين الشهود والغيب ويخوض فى أعمـاق الخفايا والأسرار ، وغير الرجل الذى يطيل النظر فيما وراء الطبيعة وما وراء هذه الآفاق المدركة بالحواس والعقول .

وكذلك كان فرنكلين فى رأى جميع عارفيه ومترجميه ، ولكنهم عند اطلاق هذه الصفة على فرنكلين ينبغى أن يوسعوا آفاق الدنيا حتى تتسع لكل شواغله العقلية والعلمية وترجع بحدودها أفقا وراء أفق حتى تصبح أوسع وأكبر من آفاق كثير من الحالمين المحسوبين من الخياليين . فلم يكن هنالك شىء دنيوى لم يكن دنيويا فيـه ولم يكن حاضرا بين أعماقه وآفاقه ... وليس كذلك كل الدنيويين .

وقد كان فرنكلين عصريا فى نظرته الى أحوال زمنه ، وهذا وصف

صحيح ينطبق عليه كل الانطباق ، فلم يكن فى عقله بقية من بقايا الزمن السالف تحول بينه وبين النظر المستقيم الى أحوال عصره ، ولم يكن فى عقله هوى من الأهواء الغالبة يشط به الى المستقبل البعيد فيفهم الوقائع معلقة على شيء فى الغيب المجهول : كان ينظر الى عصره ويراه بغير حجاب من بقايا الماضى ولا أحلام المستقبل ، وعلى هذه السنة بعينها يصبح عصريا بيننا لو عاد الى القرن العشرين .. وقد كان هو يتمنى لو يتاح للمرء أن يعاود الدنيا بعد الموت فيراها عصرا بعد عصرا أو عصورا بعد عصور . ونخاله لو عاد الى الدنيا كما تمنى لما أدهشه شيء مما وقع فيها خلال هذه الأجيال ، الا أن تكون دهشته للسرعة والكثرة لا للجوهر واللباب . فما من شيء حدث لم يكن عنده محتمل الحدوث ، وما من نقيصة انسانية كان فى ظنه أنها ستزول خلال هذه الأجيال ، ولا استثناء فى ذلك للحروب العالمية ، لأنه قدر لاتفاق الدول على اتقائها مائة وخمسين سنة أو مائتين . ولا يخفى أن الاتفاق على الاتقاء غير الاتقاء الناجح وغير المنع فى الواقع . فليس فى العصر الحاضر ما لا يكون فرنكلين «عصريا» فيه بعد بضعة أيام ، لو عاد .

وكان انسانيا ، أو كان انسانا من فرعه الى قدمه ، فلا همجية ولا وحشية ولا ادعاء للكمال والنزاهة « الملائكية » .

انسان معتدل ، لا ملك ولا شيطان ، ولا همجية تنبو عنها الانسانية المهذبة المتحضرة ، ولا وحشية تنم على النكسة فى خلائق الانسان .

انسان بفضائله وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدها ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك . فاذا كان الرجل انسانا بفضائله وعيوبه فليس معنى ذلك انه انسان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يعمل مع الفطرة فى تكوين فضائله وتثبيتها ، وكان يتيقظ لعيوبه ويجاهد ما استطاع فى اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعى اللوم والزلل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على الهفوات الصغار .

فمن سقطاته المعيبة تلك العلاقات المريبة بينه وبين بعض النساء فى شبابه ، ومنهم « دبورا » التى تزوج بها بعد معاشرته لها بغير عقد دينى أو عرفى وبغير تسجيل معترف به على نحو من الأنحاء .

وقد لقى جزاءه على هذه السقطات ، لأن ابنه من احداها — وليام — خذله وخذل قومه وانقلب على قضية الاستقلال ولاذ بالبلاد الانجليزية بعيدا من أبويه وذويه ، وعاشت « دبورا » مهملة من جانب المجتمع بعد نباهة فرنكلين وارتفاع شأنه ، فكانت كل دعوة الى محفل من محافل الدولة أو الأمة تذكره بتلك السقطة وتنغص عليه حياته وحياة زوجـته .

ولا يهم المؤرخ هنا هذا التفكير الذى لا يد له فيه ، ولكنه يهمه أن يثبت ما له وما عليه فى هذه السقطات . فقد كانت هذه السقطات كأمثالها من سقطات الناس فى الضعف والغـواية ، ولكنها لم تكن كسقطات الناس فى المعاذير وجهود الاصلاح ، ولم يكن كل ذى سقطة قادرا على أن يتشفع أمام عدالة الضمير بأعذار كأعذار فرنكلين ، وجهود كجهوده فى اصلاح الخطأ والصبر على تبعاته مختارا بغير اكراه .

لقد كان من معاذيره شدة النفور فى عصره من سلطان الكهنوت على جميع المذاهب ، وكان من أسباب ذلك النفور الشديد بين المتحررين خاصة افراط المتعصبين فى الخرافة وتصدى الجهلاء من رجال الدين للحكم فيما يجهلونه والاسـتهانة بالأرواح البريئة فى سبيل العصبية التى كانوا يسمونها غيرة دينية أو حماسة روحية ، وقد كانوا يتوهمون السحر فى كل مشتغل بالعلم ويحرقون الساحر والساحرة لأنهما من حلفاء الشيطان «محتكر» العلوم السوداء ، على ما توهموه وتوارثوه بالتقاليد.

ومن السهل أن تتخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمى نحو هذه السلطة ، فان « رد الفعل » أمامها خليق أن يذهب من النقيض الى النقيض ، فيمرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار .

ومما يشفع لفرنكلين فى سقطته أن « دبورا » لم تكن من النساء

المتبذلات ، وأنها لما تركها فرنكلين ليسافر الى لندن تزوجت من رجل آخر ولبثت على ذمته الى أن عاد فرنكلين من رحلته ، ولما أراد أن يصحح خطأه ليتزوج منها حال العقد القائم بينه وبين اتمام عقد الزواج حتى تثبت وفاة الزوج الأول ، وكان فى وسع فرنكلين — وقد اشتهر وارتفع فى سلم المجتمع — أن يتخلى عن هذه المرأة الجاهلة الفقيرة المهملة فى حساب الطبقة العالية وفى حساب المتدينين من جميع الطبقات ، ولم يكن عسيرا عليه أن يختار له زوجا تساعده بجاه الأسرة الاجتماعى ولا تقف فى سبيله عقبة دون المناصب العليا بقية حياته ، ولكنه صنع الواجب الذى أوحاه اليه ضميره وآثر وحى الضمير على المصلحة وحب الوصول.

وتستدرك صفة الانسانية اذا نسبت الى فرنكلين على غير الوجه المتقدم فى معانيها الكثيرة .

فقد كان من معانى الانسانية ايمان المرء بخير الانسانية ورفضه كل عقيدة دينية غير العقيدة الموضوعة ، وكان فرنكلين يؤمن بخير الانسانية ويعمل له ويسوى بين الناس جميعا فى الأخوة البشرية ، ولكنه لم ينكر وجود الاله ولا وجوب الاقتداء بفضائل السيد المسيح .

وكان من معانى الانسانية حب المسالمة وطيبة القلب ووداعة الأخلاق وفرنكلين كان ولا ريب مسالما طيبا وديع الأخلاق ، ولكننا نجهله اذا فهمنا من المسالمة انه كان يفرق من العداوة ويتجنبها بكل ثمن وكل وسيلة . لقد كان حقا يكره المعاداة ولا يستثيرها ، ولكنه كان اذا جاءته العداوة الى باب داره بغير داع ولغير مساءة منه لم يحفل منها وأهملها ذلك الاهمال الذى يلهب الغضب ويؤجج سعير الحسد ويغنيه عن الانتقام ، ولم يمزح حين قال ان الانتقام الحسن من حساده وأعدائه انما هو الاستزادة من أسباب حسدهم وعداوتهم ، وانه فى غنى عن مقابلة الحسد بالانتقام لأن حساده ينتقمون له من أنفسهم ، فقد كان حقا يؤمن بهذه الفكرة كأنها فكرة علمية مقدرة بنتائجها موزونة بميزانها ،

فهو الرابح اذا تقدم ونجح وحساده هم الخاسرون اذا حسدوه على التقدم والنجاح .

والذين قالوا عنه انه « نفعى » لم يظلموه فتيلا بالمعنى العرفى أو بالمعنى الفلسفى الذى يطلق على مذهب النفعيين Utilitarianism . ولم يقولوا عنه ما ينكره لو سمعه ، ولا ما يستنكره الناقد الأخلاقى على اطلاقه ، الا أن تكون النفعية على حالتين : احداهما أن يستهين المرء من أجلها بكل قيمة أخلاقية ، والأخرى أن يقدم منفعته الشخصية على المنفعة العامة أو على المنافع التى اصطلح عليها نوع الانسان ، كائنا ما كان موضوع النفع الانسانى من الماديات أو الروحيات .

وليس فى مقدور عدو من أعداء فرنكلين أن ينسب اليه حب المنفعة على حالة من هاتين الحالتين . ولا نعيد هنا ما ذكرناه — فى الكلام على فرنكلين العالم — عن زهده فى جميع المنافع التى تعود عليه من تسجيل اختراع الموقد المعروف باسمه ، ولا عن زهده فى مكاسب المخترعات الأخرى ، ومنها الشائع المتداول كالنظارات وأعمدة الصواعق ، ولكننا نذكر مواقفه فى الأعمال الوطنية التى لا تخفى عليه عواقبها وهو من هو فى كياسته وبعد نظره واختباره للطبائع البشرية وتجاربه لحظوظ العاملين من العرفان بالجميل . فقد كان ينوب عن بعض الولايات فى لندن ليعرض على حكومة الدولة وجهة نظر الولايات ويقضى لها مصالحها فى دواوين الرياسة ، وكان يعلم ان اغضاب رؤساء تلك الدواوين يزعزع مركزه عند الولاية التى ينوب عنها لأنها لا ترجو نفعا من وكيل ينفر منه الرؤساء ويوصدون فى وجهه أبواب الشفاعة والوساطة ، فلم يمنعه علمه بذلك أن يغضب الرؤساء كلما وجب أن يخاطبهم بالحق الصراح الذى لا يقبلونه وأغضبهم فعلا مع اشتهاره بالمسالمة والقدرة على القول اللين والعبارة السائغة ، ولما حافظت الولايات على وكالته واستحيت من جزائه بالفصل على أمانته وحسن خدمته أعفاها هو من ذلك الموقف الحرج واستعفاها باختياره ليفتح أمامها باب الانتفاع بوساطة وكيل غيره ، وقد ظهر فى

أخريات حياته وبعد مماته أنه كان يحتاج الى انفاق المال لخدمة المصلحة الوطنية ويستبطىء الاجراءات التى لابد منها لاقناع المراجع المعتمدة بضرورة انفاقه وارساله ، فينفقه من ماله الخاص وتنقضى السنون ولا يتمكن من استرداده وهو خارج بلاده . ثم يعود الى بلاده وقد تغير الحكام والنواب وتتابعت الشواغل المستحدثة كل يوم من أيام الاستقلال الأولى ، فيلوذ بالصمت ويترك ما أنفقه غير مقتصر فى المصالح الوطنية الجديدة التى توكل اليه .

والسخرية التى ألفها الأصدقاء والشعراء من كلام فرنكلين وكتابته سمة أدبية وتفسية فى وقت واحد ، وقد تلحق بطبيعته الواقعية النفعية التى تعرف الناس حقيقتهم وتعرف الرياء والصدق من دعاويهم ولا تنتظر منهم فى الدين والدنيا فوق طاقتهم ، وهى أشبه بابتسامة الأب لطفله الذى يريد أن يراوغه ويحتال على خداعه وهو لا يحتاج منه الى الخديعة لاستجابة رجائه أو قبول معاذيره . وقد أثرت لفرنكلين سخريات تضارع سخريات فولتير الفرنسى وسويفت الايرلندى وهما علمان من أكبر أعلام النقد الساخر فى الآداب الغربية ، ولكنها سخريات سليمة من طعنات فولتير المناضل ووخزات سويفت السوداوى الناقم ، وليست له سخرية يفارقها العطف على المعارضين والموافقين كتلك السخريات المسمومة التى تتخلل كتابات سويفت كثيرا وتتخلل كتابات فولتير من حين الى حين .

والطينة العادية من الصفات التى تكررت فى تراجم نقاده ومؤرخيه .

ولا كذب فى وصف النقاد والمؤرخين ، وانما الكذب — أو الخطأ — فى تقدير هذه الطينة العادية التى خلق منها هذا الرجل العظيم .

ان اللبنة طينة عادية ، والقصر الذى يبنى باللبن طينة عادية ، ولكن القصر واللبنة شيئان مختلفان .

ان الرجل الذى يكون « عاديا » فى ملكة واحدة يقال بحق انه من طينة عادية .

ولكن الرجل الذى يكون عاديا فى عشرين ملكة وفى كل ما تصدى له من الأعمال والأفكار لا يحسب انسانا عاديا نراه بيننا كل يوم .

ان الوسط فى القوة البدنية وسط .

ولكن الوسط فى القوة البدنية وفى القوة الفكرية ، وفى القوة الخلقية ، وفى قوة التفكير حين تتجه الى العلم وحين تتجه الى الأدب وحين تتجه الى السياسة وحين تتجه الى الحياة العامة ، لا يقال عنه انه وسط ولا انه فى مرتبة من العظمة الانسانية دون مرتبة العظماء المرتفعين المحلقين فى جو واحد من أجواء القدرة والكفاية .

وهذه عظمة أحب الى الناس ، وينبغى أن تكون أحب اليهم وأنفع لهم وأولى بالكتابة عنها لطلاب القدوة والحوافز النفسية ، فان الاقتداء بالعظمة المحلقة فى السماوات ييئس من يلمس جنبيه فلا يجد فيهما الجناحين القادرين على التحليق ، ولكنه اذا رأى أمامه عظيما يمشى على القدمين فى كل طريق يعبره أمثاله لم ييأس من الاقتداء والمشابهة ، وان لم يكن مثله وسطا فى عشرات من الكفايات والملكات .

طينة عادية نعم .. وهذه هى العظمة التى يفهمها العاديون فى جميع نواحيها ، وتنعت حولها الصلة المحكمة بين العظماء من بنى الانسان وغير العظماء .

« والمستر أمريكان » أحدث ما وصف به فرنكلين الانسان فى كتابات المعاصرين .

والذين وصفوه بهذه الصفة يعنون أنه أول نموذج للأمريكى من الأمريكيين ، وأنه لو عاد الى الحياة اليوم مع رهط من زملائه آباء الاستقلال لم يستغربه أحد ولم يستغرب هو أحدا ممن حوله ، وقد تحيط الغرابة بين الأمريكيين المعاصرين بواشنطون وآدمز وهاملتون وجفرسون وسائر القادة المدنيين والعسكريين .

وهذه الصورة صحيحة فى مجموعها فى انتظار التكملة اللاحقة بها كجميع تلك الصور التى أريد بها حصر الرجل فى قشرة البندقة .

والتكملة التى تلحق بهذه الصورة أنه اذا عاد الى الحياة عاد كما كان فى أيام الحياة : مستر أمريكان فى انجلترا ومستر أمريكان فى فرنسا ومستر أمريكان فى أمريكا .. ومستر آدم مع هذا حيث كان ، لا يحس القلق والغرابة فى بيئة ينتقل اليها ويقيم فيها ، فهو أمريكى مستريح بين الأمريكيين وأمريكى مستريح بين الفرنسيين وبين الانجليز وبين من شاء من العالمين . فاذا أراد أحد بقوله عنه انه « مستر أمريكان » أن يصبغه بصبغة خاصة تلائم هذه البيئة ولا تلائم تلك فهذا هو موضع النقص فى التصوير .

كان دنيويا عصريا انسانيا نفعيا ساخرا من طينة عادية ، ولم تكن فيه صفة من هذه الصفات تناقض الأخرى أو توضع لاستثنائها واقصائها .

وكان انسانا لا تنتظر منه الخوارق ، ولكن الخوارق التى جاءت منه أنه كان وسطا فى أشياء كثيرة ، فكان عظيما لهذا التوسط القليل النظير .

وكانت ملكة العالم هى الملكة الغالبة عليه كما تقدم فى الكلام على أعماله العلمية .

الا أننا نستطيع أن نقول عنه انه « انسان علمى » بمعنى غير ذلك المعنى ، وهو تفسير كل خلق من أخلاقه تفسيرا علميا لا يحير الباحث ولا يدفع به فى معترك النقائض والشكوك .

كل صفة فيه واقعة خاضعة للبحث العلمى والتفسير بالمبادىء العلمية حتى الطيبة والسماحة والاعتدال .

فمن مبادىء العلم ان الطاقة تأخذ بمبدأ المجهود الأقل ، وان الأداة المحكمة هى الأداة التى تصرف كل طاقة الى موضعها ولا تبددها .

فرنكلين كان « طيبا » علميا ، وسمحا علميا ، ومعتدلا فى أخلاقه علميا على جميع الأحوال .

كان لا ينتقم من أعدائه ولا يضيع جهوده فى الانتقام منهم ، لأنه عمل لا حاجة به اليه .

وكان يفضل الفضيلة ويقول بعد البحث ان الخبثاء لو عرفوا فضلها لأصبحوا فضلاء بوحى من الخباثة ، لأن الخلق الكريم بعد الموازنة بين الجهود الصالحة والجهود الضائعة أبقى الجهود وأنفعها وأحقها بالحرص عليه .

وليكن ذلك صحيحا فى عرف الناس أو غير صحيح ، فانما المهم هنا انه صحيح فى التطبيق العلمى كما يطبقه فرنكلين ، وفى الجهود النفسية كما يحسها فرنكلين ، وفى هذا الانسان العلمى الذى يطبق العلم ويطابقه باختياره وبغير اختياره .

انسان لا يحير أحدا فى أمره ، ولا نخال أحدا حيره فى شأن من شئون الطبيعة الانسانية ، فهو لا يفرض على الدنيا لونا لا يراه فيها . ولا يزال متفتح الذهن لكل غريبة من غرائبها فلا يصل اليها أو تصل اليه حتى يراها فى موضعها صالحة لأن تقترن بالموجودات كلها فى مواضعها .. وانما تأتى الحيرة من المفاجأة ، وتأتى الغرابة من تضييق الحدود التى تنفتح لها الأذهان ، فان بقى الذهن متفتحا بغير حدود فكل وارد ضيف مقبول غير محتاج الى جواز « أجنبى » أو اذن بالدخول .

الجزء الثاني
من فرانكلين

يشتمل هذا القسم على متفرقات من كلام فرنكلين فى الموضوعات المختلفة التى تناولها بقلمه ، وهو قسم لا غنى عنه لتمام التعريف برجل عالم كاتب مفكر لم يعمل فى ميدان من ميادينه الكثيرة الا كان لقلمه نصيب واف من ذلك العمل ، وقد كتب فرنكلين فى المباحث العلمية والمسائل السياسية والاجتماعية كما كتب فى شئونه الخاصة التى تعنيه وتعنى ذوى قرباه ، وكان له طابعه الذى ينم على مزاياه النفسية وملامحه الشخصية فى كل باب من أبواب الكتابة ، ونحن نود أن نلم بهذه الجوانب جميعا فيما نختاره من كل باب .

وسنقتبس فيما يلى نماذج من كتابته العلمية والاجتماعية ، ولكن الاستقصاء فى هذه الناحية غير مطلوب فى ترجمة عامة ، وانما المطلوب هنا أن نلم بما يعرفنا بطريقته فى البحث العلمى والتفكير الاجتماعى ، وما عدا ذلك فمكانه المطــولات المخصصة لتاريخ النظريات العلمية والمخترعات التى تولدت منها ، أو الدراسات التى تشرح أطوار المجتمع ومشكلاته وآراء المفكرين فيها على التتابع أو للمقابلة بينها فى أوانها ، فاذا استطعنا فيما نختاره هنا من كتابته العلمية أن نعرف طريقة بحثه ونرقب تفكيره أثناء عمله فذلك حسبنا من التعريف بهذه الشخصية فى ميدان من ميادينها المتعــددة ، واذا استطعنا فيما نختــاره من كتابته الاجتماعية أن نعرف ما يهمه من المجتمع وما يتوخاه من النظر فى أحواله والحكم على مشكلاته فقد تمت فى الصورة العامة ملامحها التى تصور لنا هذه الناحية من ملامحها الكثيرة .

وقد تعمدنا هنا أن نترجم له دراسة علمية فى مسألة لم يحسبها من مسائله الناجحة ، أو من المسائل التى وصل فيها الى مقطع الرأى بين الآراء المحتملة ، وتلك هى المسألة التى ذكرها العالم اللاتينى القديم وسجل فيها تجربة الملاحين فى تهدئة هياج البحر بصب الماء عليه . فان دراسته لهذه

المسألة — كسائر دراساته العلمية — تستجمع أسلوبه فى احصاء العوامل والفروض والموازنة بينها وتجربة كل فرض راجح منها وتقرير النتائج بمقدارها الذى حققه كل التحقيق فى غير تزيد ولا انتقاص ، وتتمثل فيها طبيعة التردد فى قبول النتائج ما لم تكن لجامعة مانعة كما يقول المنطقيون ، وتلازمها طبيعة الأمانة التى لا يستهويها حب النجاح والرضا عن النتيجة التى يرضى عنها الكثيرون .

وتعمدنا فى اختيار النبذتين الاجتماعيتين أن تكونا نموذجا لما أثر عنه من طلاقة الفكر أمام العرف الذى تقرره العادات والخرافات والايمان الأعمى بظواهر العقيدة الدينية ، وطلاقة الفكر أمام العرف الذى تثبته فى النفوس عصبية الأجناس مع الكراهية المتبادلة بين الأعداء المتقاتلين .

أما كتابة فرنكلين التى توسعنا فى الاختيار منها فهى كتابته فى التقويم وكتابته التى يجمعها عنوان الرسائل ، وكلتاهما وافية بالدلالة عليه فى جميع أدوار حياته وفى جميع شواغله الذهنية وخلائقه النفسية .

فتقويم ريتشارد هو الأسلوب الذى شق به طريقه فى الحياة الأدبية والفكرية وقرر به مكانته بين أصحاب الأقلام ومكانته بين قومه على التعميم ، واستوى فيه على نهجه المختار فى الكتابة بعد استقلاله بعمله واختباره لمكانه ومواهبه ومطالب قرائه ، واعتماده على ذلك النهج العملى الذى يتخذ الفكاهة طريقا الى الجد ، والتسلية طريقا الى الفائدة ، ولم يتغير هذا الأسلوب بقية حياته فى نسق التعبير ولا موضوعات التفكير ، اللهم الا ما كان من قبيل نضج السن واتساع أفق الاطلاع .

أما رسائله فهى عنوان واحد لكل ما يخطر على البال من الموضوعات التى شغل بها فى حياته العامة وعلاقاته الشخصية ، وقد شملت حياته العامة — كما تقدم — مباحث العلم ومشاكل السياسة والادارة وجهود الخدمة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها ، وشملت علاقاته الشخصية أناسا من الوزراء والشعراء ، وأناسا من العلماء ورجال الدين ، وأناسا من الجهلاء والأغمار ، كما شملت الرجال والنساء وذوى قرباه ومن ليست له

قرابة بهم غير قرابة المودة والعاطفة أو قرابة الاشتراك فى المصلحة العامة .
ورب رسالة فى مسألة علمية تتخللها نصيحة انسانية أو استطراد الى البراهين على وجود الله ، ورب رسالة فى الدعابة تكشف عن أعمق أعماق نفسه من حب الخير للناس والرحمة بالحيوان فى زمن لم تعرف فيه كلمة الرفق بالحيوان ، ورب رسالة تكتب الى احدى الصحف عن مسألة عارضة وتعتبر اليوم مرجعا من المراجع الهامة فى تحقيق التاريخ والعلاقات الدولية ، وقلما تخلو رسالة من هذه الرسائل على أنواعها من أسلوب الفكاهة الساخرة التي تسلكه مع الطبقة الأولى بين الكتاب الساخرين فى عصره ، وتفرده بين الأكثرين منهم ببراءة الطوية من الضغن والايذاء . وبراءة القلم واللسان من لواذع الهجاء .

وليس ما ترجمناه فى الصفحات التالية كل ما يترجم لفرنكلين من الرسائل أو الفصول ، ولكنه — فيما نرجو — نماذج كافية للدلالة عليه والابانة عن مزاياه وملكاته ، وقد يزاد عليها الكثير من قبيلها . ولكن الزيادة تأتى مكررة لصفات هذه « الشخصية » التى ألممنا بها فى حدود الايجاز والاكتفاء بالميسور .

تقويم ريتشارد المسكين

جرت عادة التقويميين فى أيام فرنكلين على اصدار تقويماتهم خلال شهر أكتوبر من السنة السابقة لتاريخ التقويم ، ولما صحت نية فرنكلين على اصدار تقويمه لم يتيسر له اصداره فى ذلك الوعد فتأخر الى التاسع عشر من شهر ديسمبر ، ولكنه سبق التقاويم التى ظهرت قبله الى بيوت القراء وجيوبهم وعوض ما فاته من مسافة الزمن بالأسلوب المبتكر الذى قربه الى قلوب قرائه ، فأصبح فى صحبة كل قارىء منهم كأنه الصديق المؤتمن الذى يرجع اليه للاستشارة فى مشكلات العيش كما يرجع اليه للسؤال عن التواريخ والمواقيت .

وقد سماه تقويم « ريتشارد المسكين » وصرح فيه بفقره وحاجته الى حظ من الرزق يرجوه من رواج ذلك التقويم ، فنجح فى كسب زمالة القراء كما نجح قبل ذلك فى كسب كل زمالة صالحة فيمن يلقاهم ويلقونه من الصحاب والأعوان ، ونظر اليه كل قارىء من طلاب الرزق فى القارة الجديدة نظرته الى صاحب يعرف ما يعنيه ويحتاج الى مثل حاجته من السعى والتدبير والعمــل بالتجارب والوصايا من غير من ولا استعلاء ، اذ كان القارىء يتخيل ناصحه فى صورة الزميل الذى يبتلى بمثل بليته ويعرف الحكمة من ضنك الحياة ولا يدعى عرفانها من تفوق فى الرأى أو مزية فى العلم والدراسة .

قال فى فاتحة التقويم الأول : « لقد كان فى وسعى هنا أن أحاول كسب الحظوة عندك بدعواى اننى لا أكتب هذه التقويمات الا رغبة منى فى خدمة المصلحة العامة ، ولكننى اذا زعمت هذا لا أخلص القول وهو من زخرف المقال الذى بلغ من يقظة الناس فى هذا الزمن أنهم لا يقبلونه... أما حقيقة الأمر على جليتها فهى أننى فقير جد فقير ، وامرأتى الطيبة ،

كما أقول لها ، جد متكبرة ، وهى تهيب بى قائلة انها لا تستطيع أن تعكف على مغزلها ولا ترانى أعمل شيئا غير النظر فى النجوم ، وتوعدتنى غير مرة أن تحرق جميع كتبى وكل ما عندى من تلك الفخاخ ، كما تسمى آلات الرصد والحساب ، ان لم أستطع أن أصنع بها شيئا ينفع أهلى ، وقد سمح لى الطابع بحصة قيمـــة من الربح وبدأت من ثم فى الاستجابة لما أمرت به سيدتى .. » .

ووضحت مزية هذا التقويم من سنته الأولى على سائر التقاويم بما احتواه من حشو الفراغ ونوافل الكلمات التى لا شأن لها بالتاريخ والتوقيت ولكنها ذات شأن نافع فى التوجيه والانتفاع بالأوقات ، وعابها بعض النظراء والمنافسين على ما يظهر بما فيها من النكات والمضحكات ، فأراد فرنكلين أن يقنع قراءه بفضل هذه الزيادة وانها لا تقتطع شيئا من حق القارىء فى الزاد المفيد بل تسوغ له مذاقه وتساعده على هضمه ، فقال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٣٩ : « لا تقلق أيها القارىء الرصين الوقور اذا رأيت بين عبارات الجد الكثيرة فى تقويمى هذا تنفة هنـــا أو هناك من أحاديث الهزل والبطالة . ففى كل صحفة طهوتها لك كفاية من اللحم للوفاء بنقودك ، وهنا وهناك قدد من مائدة الحكمة تعود مع حسن الهضم بالغذاء الجيد الى لبك ، ولكن المعدات المتعللة لا تطيق الأكل خلوا من التوابل والمشهيات ، ولعلها فى الحق لا تنفع بشىء فى غير هذا الموضع ، ولكنها تعين على تناول الطعام » .

ولم يكن تقويم ريتشارد المسكين باكورة فرنكلين فى عالم الكتابة ، لأنه بدأ الكتابة كما تقدم فى صحيفة أخيه وهو فى نحو السادسة عشرة فأتى فيها بما يفوق محصول أمثاله من خبرة العمر ودرجة التعليم ، وقد أخذ فى كتابة التقويم وهو فى نحو السابعة والعشرين بعد أن مضى عليه أكثر من عشر سنوات يمارس صناعة القلم ويكتب الرسائل والفصول ، ولكنه اختار لعبارات التقويم — أو لمعظمها — أسلوب جوامع الكلم ، وهو أدق الأساليب وأحوجها الى الفهم المستقيم والتعبير المحكم والايجاز

البليغ مع البساطة والوضوح ، فكانت جوامع كلمة فى تقويماته خير دلالة على الكاتب بلفظها ومعناها ، ورسمته لمن يريد أن يفمهمه رسما لا تزيد عليه كتاباته الأخرى شيئا غير التفصيل والتوكيد .

ففى أسلوبها اللفظى دلالة على ملكة التعبير وقدرة على النفاذ الى الجوهر واجتناب الفضول ، وفى أسلوبها المعنوى دلالة على الدراية العملية والسجية السمحة والعقل الحصيف الذى لم يقف بالمعرفة قط دون التطبيق المفيد ، فاذا صح قول القائلين ان الأسلوب هو الرجل فهو أصح ما يكون على فرنكلين ، وأصح ما يكون على فرنكلين نفسه فى « جوامع الكلم » وما شابهها من الحكمة الناجزة والخبرة المركزة . وليس من النافع أن نطيل التساؤل عن مصدر هذه القدرة على البيان الصحيح : هل كان الفضل فيها لملكة التعبير وذخيرة الكاتب من المفردات والأساليب ؟ أو كان الفضل فيها لصواب الفهم وأصالته فى استخلاص المعانى الجوهرية من الحواشى والفضول ؟ فمهما يكن من فضل ملكة التعبير فهى لا تغنى عن صواب الفهم ، ومهما يكن من صواب الفهم فهو مفتقر الى التعبير المبين ، وجماع القول أن الكاتب أحسن تعبيرا لأنه أصاب فهما وأصاب قبل كل شىء فى فهم رسالة التعبير وأداته وما يعينه عليه .

ونحن نتوسع فى النقل من تقويمات ريتشارد المسكين لأنه كتبها فى عدة سنوات تمتد من شبيبته الى كهولته ، ولأنها أدل كتاباته عليه فى جوانبه الخلقية والعقلية ، وما من صفة اشتهر بها هذا النابغة المتعدد الجوانب الا رأيتها بارزة ناطقة فى بعض كلماته التى تناثرت بين هـذه التقويمات ، ويكفى أن يتصفح القارىء جملة منها لتثبت فى روعه صورة رجل معتدل المزاج سمح الطباع متزن العقل بعيد النظر صادق الملاحظة خبير بالموازنة بين الاحتمالات المتفرقة والأطراف المتعارضة موفور الحظ من ملكة التعبير فى أسلوب يجمع بين الصواب والفكاهة ، وهكذا كان فرنكلين فى جميع أطوار حياته وفى جميع ما تولاه من المهام والأعمال .

وسنكتفى من أمثاله ومأثوراته فى التقويمات بطائفة مما أورده الأستاذ كارل ڤان دورن أكبر المترجمين له والمشغولين بجمع آثاره (۱)، ونزيد عليها قليلا مما لم يورده ورأينا فيه تتميما لمختاراته ، ثم نختم منتخبات التقويم بفصل عن كسب الثروة يدل على أسلوبه فى مطولاته وفى سائر المطولات .

وهذه هى مأثوراته التى تدخل فى جوامع الكلم والأمثال :

ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان ؟

* * *

الفقر يطلب بعض الأشياء ، والترف يطلب كثيرا من الأشياء ، والطمع يطلب جميع الأشياء .

* * *

فى الدنيا سكيرون مدمنون أكثر من الأطباء المزمنين .

* * *

ليست الثروة لمن حواها ، وانما الثروة لمن تملاّها .

* * *

هل لك فضيلة ؟ جملها اذن بزينة الفضيلة وشمائلها .

* * *

ليس أحلى من الشهاد الا المال والعتاد .

* * *

الملوك والدببة كثيرا ما تتعب حراسها .

* * *

قلب الأحمق فى فمه ، وفم الحكيم فى قلبه .

---

(۱) Benjamen Franklin by : Carl Van Doren.

ما من عدو بالعدو الصغير .

* * *

من يسرع فى الشراب يبطىء فى الحساب .

* * *

اصنع جميلا لصديقك كى تبقيه ، واصنع جميلا لعدوك كى تقربه وتدنيــه .

* * *

حيث يوجد الزواج بغير حب يوجد الحب بغير زواج .

* * *

من كان غنيا فلا حاجة به الى التقتير ، ومن كان مقترا فلا حاجة به الى الغنى .

* * *

لا تستحسن من يستحسن كل ما تقول .

* * *

أسرة الحمقى عريقة .

* * *

أنظر أمام والا وجدت نفسك وراء .

* * *

تقف الأكذوبة على قدم واحدة ، وتقف الحقيقة على اثنتين .

* * *

البطء والصمت فضيلتان من فضائل الحمقى .

* * *

انكر نفسك فى سبيل نفسك .

* * *

الهرم فى الشباب يكون شبابا فى الهرم .

السمك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .

* * *

الدهشة وليدة الغباء .

* * *

ليس للمساومة أقارب ولا أصدقاء .

* * *

من يملك الصبر يملك ما يريد .

* * *

ما من واعظ أوعظ من النملة ، وهى لا تنبس بكلمة !

* * *

لا يخلو الغائب من خطيئة ولا الحاضر من معذرة .

* * *

الفقر والشعر واللقب عرضة للساخرين .

* * *

ريفى بين محاميين سمكة بين قطتين .

* * *

الحب والسلطان يكرهان الأقران .

* * *

شر دواليب المركبة أعظمها ضجيجا .

* * *

اكتب مع العلماء وانطق مع الدهماء .

* * *

اذا شئت ألا تنسى فى جدثك فاكتب ما يستحق أن يقرأ ، أو اعمل ما يستحق أن يكتب .

* * *

لا تؤجل مسعاك الحسن ولا تكن كالقديس جورج يمتطى جواده أبدا ولا يسير .

* * *

كما نحاسب على كل كلمة سخيفة نحاسب على كل صمت سخيف .

* * *

دع المسرات تتبعك .

* * *

الزمن عقّار يداوى كل داء .

* * *

اذا علمنا القدماء ما هو أفضل فليعلمنا المحدثون ما هو أوفق .

* * *

بيت بغير امرأة ولا وقاد ، جسد بغير روح ولا فؤاد .

* * *

لا القلعة ولا الحسناء تثبت طويلا بعد المفاوضة .

* * *

زوج ابنك حين تريد ، وزوج بنتك حين تستطيع .

* * *

افتح عينك كلها قبل الزواج ، ولا تفتحها كلها بعده .

* * *

الحمقى يبسطون الموائد والحكماء يأكلونها .

* * *

تبكير فى النوم وتبكير فى اليقظة صحة وثروة وحكمة .

* * *

احفظ دكانك ودكانك يحفظك .

* * *

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما .

* * *

التجربة مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون فى غيرها .

* * *

المفتاح المستعمل لمــاع .

* * *

لأجل مسمار ضاعت الحدوة ، ولأجل حدوة ضاع الحصان ، ولأجل حصان ضاع الفارس .

* * *

نكبة الانتقال ثلاثا كنكبة الحريق .

* * *

مطبخ سمين وصية هزيلة .

* * *

ثلاثة يحفظون السر اذا مات منهم اثنان .

* * *

وهذه نماذج من حكم التقويم قد اجتهد كارل ڤان دورن أن يوفى بها التمثيل لما جاء منها فى التقويم على مختلف السنين ، ولكن حكم التقويم على الخصوص كانت أكثر المأثور من كلام فرنكلين تفرقا بين تراجمه المطولة أو الموجزة ، وان كان بعضها مقصــورا على دراساته العلمية أو مساعيه السياسية ، وهذه طائفة أخرى منها نجمعها من هنا وهناك لندل على ملازمتها لذكره فى عصره وبعد عصره وعلى اتساع نطاقها فى الاعراب عن مختلف الأمزجة والأهواء :

* * *

من لا يقدر على الطاعة لا يقدر على الأمر .

* * *

تدبر طويلا فى اختيار الصديق ، وتدبر أطول من ذلك فى تبديله .

حسن يعمل خير من حسن يقال .

* * *

خير لك أن تضار مرات من أن تضير مرة .

* * *

الهمة أم الحظ السعيد .

* * *

الجهل لا يعيب الانسان كما يعيبه ألا يقبل التعليم .

* * *

بم تعبد الخالق ؟ بالاحسان الى الخلق .

* * *

اذا كان رأسك من الشمع فلا تمش فى الشمس .

* * *

فضيلة وحرفة خير ميراث للوليد .

* * *

القدوة الصالحة أبلغ العظات .

* * *

لا تحكم على ثروة الانسان ولا على تقواه بسيماه فى يوم الأحد .

* * *

من نام مع الكلاب تيقظ مع البراغيث [1] .

* * *

الأحمق من يجعل طبيبه وريثه .

* * *

الشجاع والحكيم يعذران حيث لا يتسع للرحمة قلب المغفل والجبان .

---

(١) هذه الأمثال مختارة من كتاب ريتشارد المسكين تأليف دويرتى Daugherty

الفرصة أنجح غواية .

* * *

من يعشق نفسه فليس له مزاحم فى الغرام .

* * *

عين المعلم أقدر من يمينه .

* * *

ساعدينى يا ذراع فليس عندى ضياع .

* * *

حراث على قدميه أشرف من سيد على ركبتيه .

* * *

ليس الكرم أن تجزل العطاء . الكرم أن تعطى فى موضع العطاء .

* * *

أخفى الحماقات حكمة أفرطت فى الدقة .

* * *

الملح مع حكماء يونان أجمل طعاما من السكر مع ندماء الطليان .

* * *

وليست هذه الحكم جميعا من ابتكار فرنكلين ، ولكنها خليقة كلها أن تنسب اليه لأنه يصبغها بصبغته ، ويلمسها بعصاه ، ويقولها كما ينبغى أن تقال فى نظره وان جاءت قبل ذلك فى معناها على لسان غيره .

وقد أشار « ڤان دورن » الى الحكم المستعارة من هذا القبيل فذكر منها بعض الشواهد على منهج فرنكلين فى تحويل الحكم المستعارة الى أسلوبه وتصحيحها بذلك وفاقا لتفكيره وتعبيره ، ومنها الحكمة الايقوسية التى تقول : « الخزنة السمان عمال عجاف » فانه يقتبس معناها فيقول « مطبخ سمين وصية هزيلة » .. ومنها الحكمة الشائعة التى تقول : « ثلاثة يحسنون النصيحة اذا غاب منهم اثنان » ، فانه يتعهدها بما عنده

من فرط الأناة والحذر فيقول : « ثلاثة يحفظون السر اذا غاب منهم اثنـــان » .

وقس على ذلك سائر الحكم من هذا ألقبيل وهي ليست بالكثير ، فقد حرص في كل ما أثبته من نصائح التقويم أن يتقبلها قراؤه ويشعروا بمنفعتها وموافقتها لأحوالهم التي هي في الوقت نفسه أحواله من أكثر الوجوه ، وقد كان الأغلب الأعم من وصاياه يدور على فضيلة القصد والحزم وهما ألزم الصفات لطلاب الرزق من العصاميين والغرباء الذين لم يتأصلوا بعد في البلاد ، ولعله لم يكن في معيشته قدوة في القصد والحرص على المال ، أو لعله أصاب حين قال إن القصد الذي حرمه قد تعوضه من تدبير امرأته وربة بيته ، ولكنه كتب ما يود أن يتبعه ويود كل قارىء مثله لو وفق لاتباعه ، فكان لسانا ينطق بما يجيش في كل ضـــمير .

قال الحكيم اللاهوتي هوثورن Hawthorne الذي خطب في ذكراه (سنة ١٨٤٢) :

« أشك في أن الكشوف الفلسفية التي كشفها فرنكلين على جلالتها، أو الخدمات السياسية التي قام بها على اتساعها ، كانت تكسبه كل هذا الصيت البعيد الذي أحاط باسمه لولا تقويم ريتشارد المسكين الذي أجدى من كل عمل سواه في اذاعة ذكره بين جمهرة الناس ، فانه بكتابته تلك الحكم التي كانت تحسب من كلام ريتشارد المسكين قد أصبح المستشار الناصح الأمين لكل بيت في أمريكا على التقريب ، ومن ثم كان أعظم أعمائه وداعة وتواضعا أعظمها عائدة عليه بالصيت البعيد » .

ويشتمل التقويم كما تقدم على نمط آخر من النصائح المعيشية التي تشتمل عليها التقاويم عادة ولكنها مطولة بعض التطويل يشغل بها مكان المقدمة ويتخللها بالملح واللواذع المضحكة على أسلوبه في الحكم الصغار ، ومن قبيل هذه النصائح المطولة مقاله عن « السبيل الى الثروة »

الذى أضافه الى ترجمته فى طبعاتها الأخيرة ، وقد احتال فيه على اعادة بعض الحكم القصار بلسان الرواية من باب المراجعة والتذكير .

قال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٥٨ وقد سماه فى هذه الفترة تقويم ريتشارد المسكين « فى التحسين » :

أيها القارىء المهذب :

سمعت أنه ما من شيء يدخل السرور على قلب المؤلف كأن يرى المؤلفين العلماء يعنون باقتباس كلامه ، ولكنه سرور قلما استمتعت به ، لأننى ، وان كنت — بغير ادعاء أو غرور — قد أصبحت من مؤلفى التقاويم المعدودين منذ ربع قرن لا أجد اخوانى فى هذه الصناعة — ولا أدرى لماذا — يجودون على بالثناء والتنويه ، وما من مؤلف آخر عنى بذكرى فى بعض كلامه ، فلولا ما أصيبه من الخير من كتابتى لكان نقص الثناء خليقا أن يثبطنى ويفت فى عضدى .

وآل بى الأمر الى الاعتماد على قضاء الناس وتقديرهم لعملى دون غيره ، لأنهم يشترون كتبى وأسمع منهم من يقول حيث لا يعرفنى أحد خلال طوافى بالمدينة : « كذلك قال ريتشارد المسكين » فأشاع ذلك فى نفسى مع توالى الأيام شيئا من الرضا ، لأنه لا يدل على العناية بآرائى وحسب بل يدل مع ذلك على أننى قد أصبحت مرجعا لهم يستشهدون به ويعتمدون عليه ، واننى لأقر هنا انى فى سبيل الحض على ذكر تلك الحكم وتكرارها قد طالما استشهدت أنا نفسى بكلامى فى جد وتوقير .

وعلى هذا تستطيعون أن تقدروا مبلغ اغتباطى بالقصة التى سأرويها لكم فيما يلى :

« وقفت حصانى أخيرا حيث كانت جمهرة من الناس تتجمع فى بعض الأسواق ، ولم تكن ساعة البيع قد حانت بعد فأخذوا يتحدثون بينهم عن سوء الحال وأومأ أحدهم الى شيخ من عامة الجمع نظيف البزة فسأله : بربك أيها الأب ابراهيم . ما ظنك بهذه الأحوال ؟ أليست هذه الضرائب

الثقيلة وشيكة أن تفضى بالبلد الى الخراب ؟ فكيف ترانا قادرين على أدائها ؟ وبماذا تنصح لنا فى أمرها ؟

فقام ابراهيم فى مجلسه وأجابهم قائلا : « ان أردتم نصيحتى فها أنا ذا أمحضكم اياها فى كلمات وجيزة . لأن الكلمة فيها الكفاية للعاقل ، وكثير من المقال لا يملأ المكيال كما يقول ريتشارد المسكين .. فأقبلوا عليه يستمعون اليه ورجوه أن يكاشفهم بجلية رأيه ، فقال :

« أيها الصحاب ! أيها الجيران . ان الضرائب لثقيلة حقا ، ولو كانت ضرائب الحكومة وحدها هى التى نطالب بها لكان من الميسور لنا سدادها ، ولكننا ننوء بضرائب شتى يتضاعف ثقلها على بعضنا .

« فنحن مثقلون بضعفيها من جراء كسلنا ، ومثقلون بثلاثة أضعافها من جراء كبريائنا ، ومثقلون بأربعة أضعافها من جراء حماقتنا ، وكلها من الضرائب التى لا يستطيع الجباة أن يخففوها عنا بالتقسيط أو النسيئة ، فعلينا اذن أن نصغى للنصيحة الحسنة وتترقب من ثم شيئا ينفعنا ، فان الله فى عون من يعين نفسه كما قال ريتشارد المسكين فى تقويم ثلاث وثلاثين .

« انها لحكومة قاسية تلك الحكومة التى تسوم رعاياها أن يفرغوا عشر أوقاتهم لخدمتها ، ولكن الكسل يسوم الكثيرين منا فوق ذلك لو أننا أحصينا الساعات التى ذهبت منا هدرا فى التوانى والتهاون لا نعمل شيئا أو نعمل ما ليس بشىء من ضروب اللهو والمجانة ، وان الكسل ليسقم أبداننا مذ كان الركود كالصدأ يبلى منها ما ليس يبليه الجهد والتعب ، ولن يزال المفتاح العامل لامعا كما قال ريتشارد المسكين. وكذلك قال اننا ما دمنا نحب الحياة فلا ينبغى أن نفرط فى الوقت لأن الوقت هو قوام الحياة ، وكم من الوقت نقضيه فى غير ضرورة مستسلمين للرقاد ناسين أن الثعلب النائم لا يصطاد دجاجا وأن تحت التراب نوما طويلا كما قال ريتشارد المسكين .

« واذا كان الوقت أنفس قنية فتبديد الوقت على رأى ريتشارد المسكين أسوأ ضروب الاسراف ، ولن يعود الوقت الضائع ثانية كما قال فى عبارة أخرى ، وما نسميه الكفاية من الوقت كثيرا ما ننتظر فنراه دون الكفاية . فعلينا اذن أن نمضى قدما عاملين ، وأن نعمل ما ينبغى أن يعمل فننجز الكثير ولا نعانى من القلق والهم غير القليل ، وكل شىء صعب مع التهاون والكسل سهل مع السعى والاجتهاد كما جاء فى كلام ريتشارد المسكين ، ومن فاته التبكير حق عليه العناء سحابة النهار وأتى عليه الليل ولما ينجز من عمله ما ينجزه المبكرون ، وما أحرى الكسل فى خطواته البطاء أن يدركه الفقر على عجل كما قرأنا فى تقويم ريتشارد المسكين الذى يقول هذا ويزيد عليه أن ادفع عملك ولا تدع عملك يدفعك ، وان التبكير فى النوم والتبكير فى اليقظة صحة وثروة وحكمة .

« وأحسبنى أسمع بعضكم يقول : ألا يجوز للانسان أن يسمح لنفسه ببعض الفراغ ؟ فأنا قائل لك أيها الصديق ما قاله ريتشارد المسكين: أحسن استخدام وقتك ان أردت أن تنعم بقسط من الفراغ ، وما دمت لا تضمن دقيقة فلا تقذف بساعة من يديك .

« ان الفراغ وقت ينتفع به ، وفى وسع الرجل العاقل أن يجد هذا الفراغ وليس ذلك فى وسع المتبطل الكسلان ، وصدق ريتشارد المسكين حيث يقول : ان حياة الفراغ وحياة الكسل شيئان مختلفان . أفتحسبون ان التهاون يعطيكم من الراحة فوق ما يعطيه العمل ؟ كلا . فان ريتشارد المسكين يقول : تأتى المشكلات من الكسل وتنجم المشقة من الراحة فى غير جدوى . وكثير من الناس يودون بغير عمل أن يعيشوا على حيل ذكائهم فحسب ، ولكنهم لا يجدون الخزين الكافى من هذه البضاعة ، فى حين أن الاجتهاد يأتى بالراحة والوفر والاحترام . ودعوا المسرات تتبعكم والغازل الدؤوب عنده « شلة » وافية ، واذا كانت عندى بقرة وشاة فكل عابر يقرئنى التحية ، كذلك يقول ريتشارد المسكين .

وعلينا مع الاجتهاد أن نثابر وننتظم ونتنبه ، وأن ننظر فى عملنا

بأعيننا ولا تتكل فيه على غيرنا ، وصدق أيضا ريتشارد المسكين اذ يقول: « ما رأيت شجرة كثيرة التنقل ، ولا أسرة كثيرة الترحال ، الا كانت فى ثمراتها دون زميلتها التى تنتظم على حال »

وكذلك يقول : «الانتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق» ، وكذلك يقول: احفظ دكانك ودكانك يحفظك ، وكذلك يقول : ان أردت أن تنجز عملك فامض أنت وان لم ترد فأرسل فيه من ينوب عنك ، ومن أراد أن يسعد بالمحراث فلابد له من مقاد أو سياق ، وعين السيد أفعل من كلتا يديه ، وقلة العناية أفدح ضررا من قلة المعرفة ، واذا قصرت فى مراقبة صناعك فأنت تفتح كيسك لهم وتتركه ، والاعتماد الكثير على الغير يجر الخراب على الكثير ، والناس فى هذه الدنيا كما جاء فى التقويم لا تتحقق لهم النجاة بالثقة والاتكال بل بقلة الثقة والاتكال ، وعناية الانسان بنفسه هى المجدية عليه ، ويقول ريتشارد المسكين أيضا : المعرفة للدارس والثروة للمعتنى كالقوة للجسور المقدام ونعيم السماء للصالح الورع . أو كما قال كذلك : ان أردت لك خادما أمينا وخادما ترضاه فاخدم نفسك!. وانه لينصح بالمراقبة والاشراف حتى فى صغار الأمور . اذ يحدث كثيرا أن قليلا من الاهمال يجلب البلاء الكبير ، وقد ضاع مسمار فضاعت الحدوة ، وضاعت الحدوة فضاع الحصان ، وضاع الحصان فضاع الفارس حيث أدركه العدو وقضى عليه ، من أجل مسمار فى حدوة حصان .

هذا فى أمر الاجتهاد — أيها الأصدقاء — وأمر عناية المرء بعمله وموالاته له بنفسه ، ولكننا حريون أن نضيف القصد الى الاجتهاد اذا أردنا أن نستوثق من ثمرة اجتهادنا . فان الذى لا يحسن الادخار كما يحسن الكسب يظل أنفه على المسن طول حياته ويموت وهو لا يساوى فلسا مما كسب ولم يدخر . وصدق ريتشارد المسكين اذ يقول : ان المطبخ السمين وصية هزيلة ، وكم من ضيعة ضاعت لوقتها منذ ترك النساء الغزل فى سبيل الشاى ، وترك الرجال الحرث فى سبيل الكأس .

وانه ليقول فى تقويم آخر : ان أردت الغنى ففكر فى الجمع كما تفكر فى الطلب ، وما استطاعت فتوح الأسبان فى أمريكا أن تغنيهم لأنهم بددوا أكثر مما غنموه .

فبعدا اذن للسرف وعاداته ، وأمانا اذن من الزمن وغدراته ، اذ لا يبقى لديكم بعد الخلاص من ربقة السرف ما تجدونه اليوم من علل الشكوى والتبرم بسوء الحال وثقل الضرائب وتكاليف البيوت ، وصدق ريتشارد المسكين مرة أخرى فيما قال حيث قال : ان النساء والخمور واللعب والغرور ، تنقص من الثروات وتزيد من المطالب والحاجات ، وان تربية رذيلة واحدة تكفى لتربية طفلين ، ولعلكم تظنون حينا ان قليلا من الشاى أو قليلا من الشراب أو قليلا من النفقة يزاد على تكاليف الطعام ، أو قليلا من البذل يزاد على ثمن الكساء ، أو قليلا من الدعوات والولائم بين حين وحين لن ينجم عنه شىء كثير . فاذكروا اذن ما يقوله ريتشارد المسكين اذ يقول : حذار من تضييع القليل فان ثغرة صغيرة تغرق السفينة الكبيرة ، ومن أحب اللطائف والقطائف أقام الحجة للسائل والأفاق ، وان الحمقى يبسطون الموائد والحكماء يأكلونها ..

ولنختم الآن هذا الحديث فنقول : ان التجارب مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون فى غيرها ، ولعلهم لا يحسنون التعلم فيها بعد ذلك فاننا نستطيع أن نسدى النصح ولا نستطيع أن نسدى الخلق والسجية ، واذكروا على كل حال ان الذين يتلقون المشورة لا يتلقون المعونة ، وان الذى يصم أذنيه عن نصيحة الرشد تكسر ركبتيه .

وهكذا ختم الشيخ حديثه ، واستمع اليه القوم وأقروا الرأى وذهبوا على الأثر يعملون بنقيضه ، كأنما كان هذا الحديث موعظة من مواعظ المنابر فى المعابد ، فما هو الا أن فتحت السوق وبدأ البيع والشراء حتى تهافتوا على السلع يبذلون فيها المال عن سعة ولا يبالون تحذيره من السرف وخوفهم من الضرائب الثقال . وألفيت الرجل الطيب قد وعى ما كتبت فى تقويماتى وهضم كل ما دونته فيها خلال هذه السنين الخمس

والعشرين ، ولا بد أن الاشارة اليّ كرة بعد أخرى قد أسأمت كل من سمعها سواى ، وان كانت قد طيبت خاطرى وآرضت غرورى ، مع علمى أننى لم أكن صاحب تلك الحكمة ولم يكن لى مقدار عشرها ، وانما هى حصاد الأجيال والأسلاف .

على أننى قد عولت أن أنتفع بصداها وكنت أنوى آن أبتاع قماشا لسترة جديدة فعدت من السوق معتزما أن آلبس سترتى العتيقة فترة أخـــرى .

آيها القارىء

انك ان صنعت مثل صنيعى كان نفعك منه مثل نفعى ، واننى على الدوام رهين خدمتك ..

٧ يوليو سنة ١٧٥٧ .

رسائل

تعد رسائل فرنكلين بالمئات ، نشرت فى مجموعات متعددة حسب موضوعاتها أو حسب الجهات التى أرسلت اليها ، ومنها العـام الذى يرتبط بالسياسة والعلم والمصالح القومية ، ومنها الخاص الذى يراسل به أهله وذويه وخاصة صحبه ، ويقصر فى الأعم الأغلب على التحية واسداء الرأى فى المسائل البيتية .

وكل هذه الرسائل مما يصح أن يوصف بالكتابة الفرنكلينية ، ونريد بها الكتابة التى تتسم بطابع الرجل وتنم على ملامح نفسه وعادات تفكيره ، وليس المراد بهذا أننا نقرأ الرسالة بغير توقيعه فنعلم أنها من قلمه ، فان هذه الخصيصة ربما صدقت على الكثير من كتاباته ولكنها لا تصـدق عليها جميعها ، ولكن المراد بالكتابة الفرنكلينية اننا اذا بحثنا فيها لم نخطىء فيها دلالة على خلقه أو رأيه أو شواغل عمله ، وعلى سبيل التمثيل نشير الى رسالة وجيزة مكتوبة فى مسألة مألوفة فى المراسلات بين الاخوة والأقارب كتبها الى أخته جين Jane أحب أخواته اليه لأنها استشارته فى ارسال ابنها بينى Benny الى نيويورك ، فقال لها فى أسطر معدودات: « اذا كنتم على رغبتكم فى ارسال بينى فأرسلوه على أول مركب الى نيويورك واكتبوا معه سطرا موجها الى مستر جيمس باركر الطباع ... وأنا على ثقة من حسن معاملته هناك وسأتلقى خبرا عنه فى الأسـبوع نفسه ، وأوصوه أن يكون على الدوام بشوشا مرحا مستعدا لعمل كل ما يؤمر به وكسب الرضا من كل من يعمل معه ، فهذه خير وسيلة لاقتناء الأصدقاء ، ومحبتى لك يا أختى العزيزة لحسن رعايتك لأبينا فى مرضه».

فهذه الرسالة « فرنكلين » فى أكثر من سمة واحدة ، لأنه لا ينسى فيها الخصلة التى عرفت عنه فى أدوار حياته من صباه الى أواخر أيامه

وهى الحرص على كسب الأصدقاء واتقاء المغاضبة والعداء ، وهى تطابق حكمته التى كررها كثيرا وفحواها أن يحسن الانسان الى الصديق ليستبقيه ويحسن الى العدو ليستدنيه أو يعيده الى مودته ، وهذا مع البر بالأهل والعناية بأداء الواجب وانجاز ما يفرضه على كل من يناط به عمل يؤديه .

ومثل هذه السمة لانخطئها فى رسالة من رسائله العامة أو الخاصة ، فهى تمثله للقارىء حينا بما فيها من روح الفكاهة والسخرية الطيبة ، أو بما فيها من طبيعة المودة والمسالمة واستنفاد كل حيلة فى سبيل التفاهم والاقناع ، أو بما فيها من الدقة والتنظيم واجتناب الاسراف والفضول، وقد كان يكتب رسائله العامة الى الصحف على أسلوبه فى أول كتاباته منذ نشأته الصحفية الباكرة ، فبعضها فى قالب الأماثيل على ألسنة الآخرين وبعضها فى قالب العظات الفكاهية ، وبعضها فى قالب التلخيصات المرتبة كما ترتب الدروس الملخصة ، وبعضها فى قالب الحوار بين اثنين أو أكثر من اثنين ، ويجرى حواره على نسق الحوار المعهود فى كتب أفلاطون، آراء متتابعة تملى ما بعدها ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ثم تستدعى ردودها وأجوبتها كأنها تأتى من قبيل الحقائق المفروغ منها ، وهى كما لاحظ جامع رسائله الى الصحافة ڤيرنر كرين Verner W. Crare «مقنعة ولكنها ليست بالدرامية فى وضعها »[1] أى انها تقنع الفكر ولكنها لاتثير الشعور ولا تستجيش الخيال كما يحدث عند قراءة الحوار الدرامى الذى ينوع الكاتب شخوصه ويبرز فيه الأمزجة والدوافع النفسية فتستجيب لها نفس القارىء بما تثيره من دوافعه وطواياه .

وهذه الرسائل التى نترجمها مقتبسة بغير عناء فى الاختيار من أشتات رسائله الخاصة والعامة ، لا نتوخى فيها الا أن تكون معبرة عن فرنكلين فى عادة فكر أو سجية شعور أو طريقة عمل ، ولا حاجة الى العناء الطويل فى الاختيار لهذا الغرض لأن كتاباته كما قدمنا فرنكلينية بطبيعتها فى صفة واحدة على الأقل من هذه الصفات .

---

(١) Letters to the Press 1758 — 1775.

رد على خطباء القهوات

كتب هذه الرسالة ، بتوقيع مستعار ، الى صحيفة لندن كرونيكل London Chronicle بتاريخ التاسع من أبريل سنة ١٧٦٧ ردا على خطباء القهوات الذين كانوا يحرضون الشعب الانجليزى على قمع الولايات الأمريكية وأخذها بالعنف والصرامة بدلا من الاصغاء الى مطالبها الوطنية .

قال :

« لقد كان لأثينا خطباؤها ، وقد صنعوا لها فى بعض الأوقات خيرا كثيرا كما صنعوا لها الشر الكثير فى أوقات أخرى ، وكان أسوأ ما صنعوه من شر على الخصوص يوم نجحوا فى اغرائها بشن الغارة على صقلية فناءت بأعبائها وخسائرها وكان من جرائر تلك الحرب أن الدولة الزاهرة سقطت ولم ترجع الى ازدهارها بعد ذلك أبدا .

« وان هؤلاء الصياحين بالدهماء بين الأقدمين يخلفهم فى العصر الحديث كتاب نشراتكم السياسية وكتاب الصحف وخطباء القهوات .

« ومما يلفت النظر أن رجال الجندية المنقطعين لهذه الصناعة ، وهم أناس متصفون بالشجاعة التى لاجدال فيها ، قلما يشيرون بالاقدام على الحرب الا عند الضرورة القصوى ، بينما يتعالى اللغط بالحرب لأتفه الأسباب من أناس كأولئك الصياحين والثراثرة والمحدثين الذين هم بطبيعتهم يهابون أو بحكم أعمالهم البدنية تعوزهم تلك النخوة التى تنبعث منها الشجاعة الصادقة ، ويبدو عليهم كأنهم أشد بنى آدم تعطشا الى الدماء .

« واننا لفى هذا الزمن الذى لم نكد فيه تتنفس فى أعقاب الحرب الشعواء المرهقة التى أهدرت الدماء والأموال على نحو لم يسبق له مثيل فى القارة الأوربية ، نرانا أمام طوائف ثلاث من الخطباء يجتهدون

اجتهادهم فى اثارتنا على أصدقائنا والاندفاع بنا الى حرب مع البرتغال وحرب مع هولندة وحرب مع مستعمراتنا .

« فأما الحربان الأوليان فليس فى نيتى أن أبحث فيما تنطويان عليه من الحكمة والانصاف ؛ اذ لا أحسب أن انجليزيا يخامره الشك — اذا كان الهولنديون قد أساءوا الى أجدادنا قديما قبل مائة وخمسين سنة — أن الانتقام منهم واجب فى أية لحظة كائنا ما كان مبلغ الصداقة بيننا بعد تلك الاساءة ، وأن البرتغاليين — اذا كانوا يشترون ثيابهم من الفرنسيين بأثمان أقل من أثمان الثياب عندنا — حقيقيون بأن نوسعهم ضربا حتى يثوبوا الى الصواب ويتخذوا لهم رأيا غير ذلك التفضيل والايثار .

« فاذا سلمنا أننا من القوة والبأس بحيث نقدر على ضرب هولندة والبرتغال معا ، لسبب أو لغير سبب ، ومعهم أصدقاؤهم الذين ينتصرون بهم أو بمعزل من أولئك الأصدقاء ، وعلينا أعداؤنا الذين يستثيرهم ذلك الصنيع أو بمأمن من الأولئك الأعداء ، وسلمنا كذلك أن الهولنديين أيضا خليقون أن يمضّوا لنا بالنفقات اللازمة للقتال — اذا سلمنا ذلك جميعا فلا غرض لى الا أن أضع بين يدى ذوى النظر ، بكل خشوع ، فرضا يخطر على البال ؛ وهو أن تكون لنا على تلك الفروض وسيلة أخرى لفض الخلاف بين وزرائنا الأسبقين ومستعمراتنا بوسيلة غير قطع الرقاب!

« وكل خطوة تقودنا الآن الى السخط على أمريكا : تتطاير النشرات والصحف ويضج خطباء القهوات بالأكاذيب التى تقول عنها انها ثائرة عاصية ، وتستدعى القوة والأساطيل والجحافل للذهاب اليها ، وما يوجد منها هنالك ينبغى أن يستدعى من الأرجاء النائية لاحتلال العواصم الكبرى ، وينبغى كذلك أن يساق رؤوس القوم الى البلاد الانجليزية لتعليقهم على المشانق وما شابه ذلك ... ولماذا كل هذا ؟

لماذا ؟ أتسأل لماذا ؟

نعم . أرجو أن يؤذن لى أن أسأل : لماذا ؟

وجواب لماذا هذه أن القوم يبغون اسقاط الحكومة فى هذه البلاد واقامة أنفسهم فى مقامها .

فكيف بدأ ذلك كذلك يا ترى ؟

تقول : كيف بدأ ؟ أليسوا جميعا يحملون السلاح ؟

نقول : كلا . بل هم جميعا فى سلام .

— أفلم يمتنعوا عن أداء التعويض للمصابين فى حوادث الشغب الأخيرة كما طلبت الحكومة هنا ؟

— كلا . بل هم قد بذلوا الترضية الوافية ، وهى — على فكرة — ترضية لم تبذل هناك لضحايا الشغب الذى حدث منكم هنا .

— أفلم يشعلوا النار فى دار المكوس والجمرك ؟

— كلا . ان القصة كلها أكذوبة ملفقة لا أصل لها على الاطلاق .

— أفلم يتمردوا على القانون البرلمانى الذى ينص على ايواء الجنود ؟ أفلم يرسلوا الى الحكومة هنا طالبين الغاء الحجر على تجارتهم والغاء قانون الملاحة بهذه المثابة ؟

— ان الجمعية فى ولاية واحدة — ولاية نيويورك — هى التى أنكرت ذلك القانون ، وان بعض التجار فى تلك الولاية هم الذين اجترأوا على ذلك الطلب . فاذا سلمنا أن الانكار والطلب خيانة عظمى ، فهل نسلم أن خمسا وعشرين ولاية تعاقب بجزيرة ولاية واحدة ؟

هلموا تنظر فى سكون فى معنى ذلك القانون ومعنى انكاره ومعنى الطلب من أولئك التجار .

ان القانون قد صدر من نفس الادارة التى أصدرت قانون الدمغة ، ولعله قد أريد به تيسير ارهاب الولايات لاخضاعها لحكمه ، ولهذا اشتملت نسخته عند تدوينها لأول مرة على فقرة تخول ضباط الجيش

أن ينزلوا الجنود فى المنازل الخاصة بأمريكا ، ولما عورضت هذه الفقرة أشد المعارضة انتهى الأمر بحذفها والاكتفاء باستئجار المساكن الخالية والأنبار (مخازن الغلال) لايواء الجنود حيث يزودون بالوقود والمصابيح والفراش وأدوات الطبخ وتهيئة الطعام ، مع خمسة أكواب من الجعة أو السدر أو نصف كوب من شراب الروم لكل جندى كل يوم ، وبعض أشياء أخرى لاتؤدى أثمانها جميعا بل تتكفل بها خزانة الاقليم . وما من وسيلة فى الاقليم لجمع المال غير اصدار قانون من مجلس الولاية يوجب تحصيله ، وعلى هذا وجب أن ينظر الى الأمر على اعتباره قانونا صدر هنا ليعززه قانون يصدر من المجالس الأمريكية ، وقد ارتاب بعضهم فى صواب هذا الاجراء لأنهم يرون أن المجالس فى أمريكا انما هى برلمانات صغيرة وليست هيئات تنفيذية أو ديوانا من دواوين الحكومة يعمل عمله تنفيذا للأمر الذى يصدر اليه ، فانما هى هيئات مشورة وابداء آراء ينظر أعضاؤها فيما يعرض عليهم ليتدبروا منافعه وضروراته ووجوه الصواب والامكان فيه ثم يقرروا ما يقررونه حسبما يرونه ، فاذا أكرهت هذه المجالس على سن القوانين ، على صواب أو على خطأ — اطاعة لتشريع تمليه عليها هيئة تشريعية أخرى فلا نفع لها باعتبارها هيئة نيابية ولم تبق لها صفتها ولا حقيقة كيانها . والحق أن القانون البرلمانى نفسه يلوح عليه أنه أحس ذلك لأن القوانين الأخرى التى تفرض الواجبات على الأشخاص تنص على عقوبة الرفض والاهمال وعلى الطريقة التى تتبع فى تنفيذ تلك العقوبة ، ولم يرد نص كهذا — ولا يعقل أن يرد — فى مثل هذا القانون البرلمانى عما يطلب من مجالس الأقاليم ، فوقع فى حساب الأمريكيين أنه طلب تنظر فيه المجالس لتقره أو لا تقره ، كله أو بعضه ، حسب اختلاف الأحوال بين الأقاليم ، ومن ثم قبلته ولاية بنسلفانيا حيث يقل عدد الجنود على العموم ، ولم تقبله ولاية نيويورك حيث تعبر الجنود جيئة وذهابا عدة مرات بين بريطانيا والولايات الفرنسية ، وحيث يشعرون بثقل العبء عليهم من جراء تنفيذه ، ولهذا

قبلت الولاية جزءا من الطلب ووجهوا خطابا الى حاكمهم سردوا فيه أسبابهم بأسلوب ملؤه اللطف والاحترام .

وان كثيرا من الناس ليبدو لهم أن هذا القانون خطأ على التحقيق . اذ ليس من اليسير توضيح سبب حسن لانزال الجنود فى مكان من الأمكنة بين مستعمرات الملك جميعا لتزويدها بشىء ما فى مقابلة لاشىء!.. انهم يصطحبون معهم صرافا على الدوام ، فلماذا لايؤدى الثمن لكل ما يحصلون عليه ؟

ان هذه التكاليف عبء ينفرد بحمله الاقليم الذى يتفق أن يلقى عليه، وهو من ثم غير عادل وغير سواء ، وفى بريطانيا يلقى هذا العبء على أصحاب الخانات ويعتبر كالضريبة التى تفرض على أرباب هذه الصناعة، وفى وسعهم تعويض الغرم بزيادة الأجر على النزلاء وتوزيع الضريبة بهذا الأسلوب على نحو أقرب الى المساواة ، ولكن الولاية التى يتفق أن تتعرض لهذا الغرم لاتستطيع أن تلقيه على ولاية أخرى معفاة منه بحكم موقعها .

الا أن خطباءنا — خطباء القهوات — ينظرون الى المسألة نظرتهم ويقررون أن هذا الانكار الموافق لمجرى القانون عصيان يعاقب بما يلائمه . وانه لخليق أن يكون اجراء نادرا ذلك الاجراء الذى يجعل القانون يفرض شيئا جديدا ولا يقرر وسيلة تطبيقه ولا العقوبة التى تترتب على مخالفته ثم يأتى بعد المخالفة فيقرر هذه وتلك . فتلك فيما أرى أول سابقة من نوعها فى شئون التشريع ولا تحسب فى باب الشرائع كما تحسب فى باب الفخاخ التى تنصب للرعايا ليقعوا فيها . وكذلك يكون عصيانه ضربا جديدا من العصيان . اذ كان المفهوم من العصيان دائما أن يفعل الانسان شيئا ... وهذا عصيان يقوم على أن المرء لايفعل شيئا من الأشياء . فان كان كل انسان يهمل شيئا فى قانون ما أو يدع تنفيذ ذلك القانون يحسب ثائرا عاصيا ، فاننى لأخشى أن يكون عدد الثوار بيننا أكثر مما نحسب ، ومنهم ، ولا نحصيهم ، أولئك الذين أهملوا

تسجيل أوزان الأطباق وسداد الضريبة عنها ، وهم فيما أظن غير قليلين ، ويصح أن يضاف اليهم أولئك الذين يلبسون الحرائر الفرنسية وما شابهها من فاخر الثياب .

أما قصة الطلب أو العريضة التى سبقت الاشارة اليها فقد سمعت من بعض التجار أبناء ولاية نيويورك رأيا يقولون فيه ان القوانين التى تقيد التجارة فى الولايات لا تضر الولايات فحسب بل يتعداها الضرر الى المملكة الأم (يعنى انجلترا) ... وانهم ليذكرون الأسباب التى يبنون عليها هذا الرأى وهى جديرة أن تدرس ها هنا ، وقد يتبين أنهم على صواب فلا يستحقون الزجر بل يستحقون الشكر والثناء ، والا ففى الوسع القاء الطلب جانبا والاعراض عنه ، فليس الطلب ثورة ولا عصيانا ولكنه فى صميمه اعتراف بالسلطان لمن يتقدم الطلب اليه ، وان مقدميه من رعاياه .

بيد أن الآراء المتحيرة تخلق من الحبة قبة فى كثير من الأحيـــان ، وحين يكون الذئب قد عقد العزيمة على مخاصمة الحمل فلا فرق بين وقوفه على اتجاه الماء أو على غير ذلك الاتجاه ، وما أيسر ما توجد التعلات أو تخلق اذا لم توجد ، ولا مبالاة بالحكمة والانصاف فانهما لمن وراء الحسبان !

محادثة عن الرق

وهذه رسالة كتبها فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٧٠ الى صحيفة الاعلان العام Public Advertiser للرد على الذين ذكروا مسألة الرق فى أمريكا ليعترضوا بها على المطالبين بالحريات القانونية من الأمريكيين.

قال بعد مقدمة يذكر فيها مناسبة ارسال هذا الحديث « الخيالى » الحقيقى الى الصحيفة :

انجليزى — انكم معشر الأمريكيين تصخبون كلما توهمتم أن شيئا

يمسكم فيما تسمونه بحرياتكم ، على حين لايوجد فوق ظهر الأرض من يعادون الحرية كعدائكم ، وما أنتم الا طغاة متعسفين حيث تسنح لكم الفرصة كما تسنح الآن .

أمريكى — وكيف كان هذا لعمرك ؟

انجليزى — اقرأ كتاب جرانفل شارب Granville Sharpe عن الرق. فتعلم كيف كان هذا بشهادة العيان .

أمريكى — لقد قرأته .

انجليزى — وبعيشك ماذا فهمت منه ؟

أمريكى — أصارحك الرأى انه فى جوهره كتاب حسن ، واننى لأعجب بغيرة المؤلف على الحرية فى الجملة ، ويسرنى ما أرى فيه من دلائل الانسانية . غير أنه يتكلم عن الامريكيين عامة فيزعم أنهم لايشعرون بالحب الصحيح للحرية وأنهم قلما ينفرون من الاستبداد والطغيان وأنهم قلما يتورعون عن تسليط الاستبداد والطغيان بأقصى ما فى وسعهم من الشدة على عبيدهم المساكين ، وهذا ما لست أقره كما أننى لا أقر النتائج التى انتهى اليها حيث يخلص من تلك المزاعم الى انكار حق الأمريكيين فى الحرية ، ففى ذلك مجافاة للعدل وغلو فى الانحاء على الأمريكيين ، مع اغضائه عن أخطاء بلاده ، وليس هذا فيما أرى بالانصاف فضلا عما فيه من الاضرار بنا هذه الآونة على الخصوص ، اذ يحاول أن يصورنا فى صورة بغيضة ويغرى بنا من يبيتون النية على ظلمنا واضطهادنا ، منكرا حقنا فى الحرية التى ننشدها الآن .

انجليزى — وأى وزر لبلاد المؤلف فى تلك المظالم التى يشكوها ؟ وأى كلام من كلامه لا يشمل حكمه معاشر الأمريكيين عامة ؟

أمريكى — ينبغى ألا يكون كلامه عاما على اطلاقه لأن الأسس التى يقيمه عليها ليست بالأسس العامة . وهذه انجلترا الجديدة — أكثر

المستعمرات الانجليزية سكانا فى أمريكا — قليل فيها عدد العبيد ، ومن وجد من هذا القليل فهو فى العواصم حيث لايعملون فى عمل شاق ... وأكثرهم ثمة سعاة أو خدم فى المنازل ، ويقال مثل هذا عن المستعمرات التى يقل سكانها عن سكان انجلترا الجديدة ، كنيويورك ونيوجرسى وبنسلفانيا ، وحتى فى فرجينيا وماريلاند وكارولينا حيث يعمل العبيد فى الزراعة لايوجدون الا عند الأسر الغنية القديمة على مقربة من مياه الملاحة ، وانهم لقليلون بالقياس الى الأسر التى تقيم وراءهم ويندر أن يوجد لديها العبيد ، ولو أنك عبرت أمريكا الشمالية من أقصاها الى أقصاها لم تجد أسرة من كل مائة أسرة لديها عبيد ، وان ألوفا من الناس هناك ليمقتون الرق كما يمقته مستر شارب ويتورعون عن كل ما يتصل به ويبذلون جهدهم فى الغائه . فاذا كان من الاجرام فى رأى ذلك السيد أن يقتنى المرء عبدا فهل من العدل أن نوصم جميعا بالجريمة ؟ واذا كان فى انجلترا واحد من كل مائة يخل بحقوق الأمانة فهل من العدل أن يقال ان الانجليز كلهم لصوص وسراق ؟ زد على ذلك أن الذين يقتنون العبيد ليسوا جميعا قساة أو طغاة ، وكثيرون منهم يعاملون عبيدهم بالرفق والمروءة ويتكفلون بهم فى حالتى الصحة والمرض كما تتكفلون هنا بالعمال الفقراء ، وما هؤلاء العمال الفقراء عبيدا بالاسم ولكنهم ماأشبههم بالعبيد حين تضطرهم الشريعة الى العمل كل تلك الساعات فى خدمة سادتهم بتلك الأجور ولا تسمح لهم بطلب المزيد أو المساومة على الأجر بل تسجنهم فى بعض المشاغل ان رفضوا العمل بالأجر المقدور وقد تسجن السيد اذا قبل أن يزيدهم فى الأجور ، ويحدث كذلك فى الوقت نفسه أن يحال بين الصانع الذكى وبين السفر من هذه الجزيرة اذا منح فى خارجها أجرا أكبر من أجره فيها .

أما وزر انجلترا فى المظالم الأمريكية فليذكر سيدى أنها هى التى بدأت بتجارة الرقيق وأن تجارها من لندن وبريستول ولفربول وجلاسكو يرسلون سفنهم الى افريقية لشراء العبيد . فاذا أساء التجار استخدام

الوسيلة فى اقتناص العبيد ، واذا شنت الغارات لاحتجان الأسرى ، واذا استدرج الأحرار الى متون السفن ثم سيقوا الى الأسر غيلة وغدرا ، واذا بذلت الرشى للأمراء الصغار اغراء لهم ببيع رعاياهم وهم فى الحق طائفة من العبيد — اذا حدث هذا كله فهل تقع جرائر هذه السيئات كلها على عاتق أمريكا ؟

انكم تجلبون العبيد الينا وتغروننا بشرائهم ، ولست أريد أن أسوغ وقوعنا فى الغواية ، ولكننى أقول انكم اذا سرقتم الناس تبيعونهم لنا ونحن نشتريهم فلتذكروا المثل القائل ان المشترى من السارق والسارق سواء ، وقد وضع هذا المثل للذين لايعلمون أن آخذ الشيء المسروق فى حكم سارقه ، ولكن العكس لم يكن بحاجة قط الى مثل لتوضيحه ، اذ ما من أحد يجهل أن اللص كمن يشترى منه فى المنكر والسوء ...

وانكم لم تفعلوا هذا وتقنعوا به وتثابروا على فعله وحسب ، بل زدتم على ذلك أنكم أنكرتم القوانين التى وضعت فى أمريكا لتصعيب تجارة الرق وفرض الضرائب الثقيـلة على الموردين للأرقاء وأمرت حكومتكم بنقضها لأنها ضارة بمصالح الشركة الأفريقية .

انجليزى — ما سمعت من قبل بقوانين من هذا القبيل وضعت فى أمريكا ، غير أن القوانين التى وضعتموها وادعيتم أنها ضرورية لحسن سياسة العبيد بل الخدم البيض ، مما استشهد به مستر شارب فى كتابته ، لاتدعونا الى حسن الظن بمروءتكم العامة أو باحترامكم الحرية ، وليست تلك قوانين آحاد معدودين ، اذ هى مسنونة برأى نوابكم فى الجماعات الممثلة لكم ، وهى لهذا خليقة أن تنسب الى الجميع .

أمريكى — ليس الأمر كذلك . ويجوز أن بعض هـذه القوانين وضع فى المستعمرات التى يربى فيها عدد الأرقاء كثيرا على عدد البيض كما هو الحال فى بربادوس الآن وفى فرجينيا من قبل ، وقد تكون تلك القوانين أقسى مما ينبغى من أثر الخوف والظن الغالب بأن الصرامة هى

الوسيلة الوحيدة التى تروض العبيد على الطاعة وتصون على سادتهم حياتهم . أما الولايات الأخرى التى يقل فيها عددهم ولا يخشى الخطر منهم فالقوانين رفيقة والعبيد فى كفالة القانون من جميع الوجوه الا أن نحسب حساب الحرية ، ويجازى الرجل الأبيض بالموت اذا قتل عبدا يملكه كما يجازى على قتل انسان كائنا من كان . ومن الواجب أن نذكر أن صرامة القوانين على قدر الغباء أو على قدر السوء فى خلائق المحكومين. وقد علمتنا التجربة هذه الحقيقة فى كل مكان . وقد يخطر لك أن العبيد قوم لطاف ودعاء يسلس قيادهم لمن يقودهم ، وانهم لكذلك بعض الأحايين ولكن الأكثرين منهم على خبث وكيد وضغينة وسوء دخيلة وقسوة بالغة على أشد ما تكون القسوة ، وتجاركم وملاحوكم الذين يجلبونهم من غانة يعلمون ذلك ويعانون من تمردهم على السفن السابحة أو المرسية على الشاطىء كل العناء ، وما ظفر العبيد بمن عداهم مرة الا أتوا عليهم أجمعين ، وكلما حدث التمرد من هذا القبيل عالجه قومكم بما يحسبونه ضرورة لا محيص عنها من الصرامة والشدة ، وأطلقوا النار على بعضهم أو شنقوهم على ظهر السفينة ، وربما كان من هؤلاء العبيد أناس مجرمون فى بلادهم يبيعهم أمراؤهم عقوبة لهم على جناياتهم ويجعلون النفى والعبودية جزاء لهم عليها كما تجزون أنتم هنا من تدينونهم من الأشرار ، وما دامت حكومتكم لا تقبل أن تسن القوانين لاخراج العبيد من البلد فهل يحق لكم أن توجهوا اللوم الى تلك القوانين التى تبدو ضرورية لحكمهم وهم فى ذلك البلد ؟

انجليزى — لكن القوانين التى تضعونها لمعاملة الخدم البيض لا تقل فى قسوتها عن القوانين التى توضع للعبيد السود .

آمريكى — هى كذلك فى بعض الولايات ، وبخاصة تلك الولايات التى ينفون اليها مجرميكم ، وان الخدم الودعاء ليعاملون فى أمريكا معاملة الرفق التى يجدونها فى انجلترا . غير أن الأشرار الذين تدينونهم وترسلون بهم الينا لابد لهم من القمع الشديد بعصا من حديد . وقد وضعنا

القوانين فى ولايات عدة لمنع دخولهم ، وكانت هذه القوانين تنقض هنا على اعتبارها مخالفة لقانون البرلمان ، ولسنا نشـــكركم على اقحامهم علينا ، ونحسبها بربرية من حكومتكم أن تخلى سجونها وتملأ بهـم محلات بلادنا ، بل نحسبها اهانة من أسوأ الاهانات ، فان كانت الشرائع الرفيقة تصلح لسياسة هؤلاء القــوم فما بالكم لاتبقونهم عنــدكم وتسوسونهم بتلك الشرائع ؟ على أنك خليق أن تذكر أن الشرائع التى ترمونها بالقسوة قد أرسلت الى حكومتكم كما ترسل جميع الشرائع الى الملك فى مجلسه فأبرمتها . فان كانت مع هذا عرضة للملام فتفضلوا أنتم واحملوا على عاتقكم بعض هذا الملام !

ايقوسى — لا يحق لكم أن تقولوا اننا نقحم المجرمين على بلادكم . اذ فى وسعكم اذا شئتم أن تحجموا عن شرائهم ، ولو لم يكن من طبعكم الطغيان ولم يكن من هواكم أن تتخذوا لكم أتباعا تسومونهم العذاب وتشبعون بتعذيبهم تلك الشهوة فى نفوسكم ، وكان لديكم حقا ذلك الشعور بالحرية الذى تثيرون به تلك الضجة — لما اشتريتم أحدا من العبيد ولا من المجرمين ، ولما احتملتم شيئا كهــذا الرق أن يبقى بين ظهرانيكم .

أمريكى — الحق كما تقول أننا نستطيع أن نكف عن شرائهم ، وان كثيرا من العقلاء ليحجمون عن شراء أحد منهم . الا أن الدنيا فيها العقلاء وغير العقلاء ، وغير العقلاء يطمعهم الثمن البخس فى شرائهم ، وعلينا نحن أن نكبح هذا الطمع وأن نمنع تجاركم أن يصلوا الينا بتجارتهم البغيضة ، ولكنكم لا تأذنون لنا فى ذلك ، ومن أجل هذا قلت انكم تقحمون علينا العبيد كما تقحمون علينا المجرمين . وانى ليدهشنى يا سيدى أن أسمع ملاحظتكم التى تقول فيها اننا لو كنا نحب الحرية حقا لما سمحنا لشىء كالرق أن يبقى بيننا . فهذه ملاحظة غريبة من بريطانى من أهــل الشمال حيث الرق مشروع بحكم القانون لا يزال !

ايقوسى — أحسبك تشير الى قوانين المواريث وهى لاتشتمل على شىء من الرق ، وقد نقضت مع ذلك بقانون صدر من البرلمان .

أمريكي — كلا يا سيدي . انني أعني الرق في مناجمكم : أعني المساكين الذين يحفرون الأرض ليستخرجوا منها الفحم لكم . ففي تلك الأنفاق المظلمة التي لاتطلع عليها الشمس عبيد بحكم القانون يتلوهم في العبودية أبناؤهم من اللحظة التي يستطيعون فيها أن يحملوا السلة الى اللحظة التي يختمون بها أعمارهم . وانهم ليباعون ويشترون مع المناجم وليس لهم من حرية الفكاك من هذا الأسر نصيب أكبر من نصيب العبيد عندنا في الفكاك من مزارع سادتهم ، واذا كان سواد وجوههم مسوغا لاستعبادهم فأنتم لاتجدون حتى هذا المسوغ لاستعباد عمال الفحم عندكم . ولتذكر أنهم تحت غبار الفحم الأسود لهم جلود بيض ، وانهم أناس أمناء طيبون ، وهم فوق ذلك من أبناء وطنكم .

انجليزي — يسرني أنك لاتنحى على انجلترا بمثل هذه الوصمة . فان عمال الفحم عندنا أحرار كسائر العمال .

أمريكي — وهل من أجل هذا تزعمون أنكم لاتعرفون شيئا من قبيل الرق في البلاد الانجليزية ؟

انجليزي — لايوجد في انجلترا شيء كهذا بكل تأكيد !

أمريكي — أخالني قادرا على أن أعرض أمام نظرك ما يقنعك بوجوده اذا اتفقنا أولا على تعريف الرق ما هو ؟ ولئن صح ما يقوله مؤلفكم من أن اقتناء العبيد يسلب حق المقتني في الحرية لتكونن أنتم معشر الانجليز محرومين من هذا الحق حرمان الأمريكيين .

انجليزي — وما تعريفك للرق اذن . أرجو أن نسمعه لنعلم هل نحن متفقون عليه أو غير متفقين .

أمريكي — العبد — فيما أرى — هو كائن بشري يسرق أو يغتصب أو يشترى من غيره أو من نفسه بالمال ويضطر لذلك الى خدمة الآخذ أو الشاري حسب هواه مدى الحياة . وقد يباع مرة أخرى أو يؤجر لغير سيده ويضطر في هذه الحالة الى خدمة مشتريه أو مستأجره ،

ولا يضطر الى اطاعة سيده وحده بل يضطر كذلك الى اطاعة أوضع الخدام لديه ، فيحضر متى استدعاه وينصرف بأمره ويقيم حيث يرتضى له الاقامة ولو بعث به الى أقصى أطراف الأرض وأوخم الأجواء ، وعليه أن يلبس الملابس التى يختارها له سيده ولا يلبس غيرها ولو لم تكن من لباس العرف الشائع وكان الارتداء بها علامة من علامات العبودية ، وعليه كذلك أن يتقبل الطعام الذى يفرضه له سيده أو يتقبل القدر الذى يعطيه اياه من المال بديلا من الطعام والكساء . وينبغى ألا يفارق مكان الخدمة بغير اذن مولاه وأن يخضع للجزاء الصارم عقابا له على أيسر الهفوات ، وأن يسام الضرب بالسياط ، بل القتل ، عقابا له على الأباق من الأسر أو على عصيان الأمر ... أحسب أن كائنا بشريا كهذا انما هو عبد فى كل ما يراد من العبيد ويفرض عليهم .

انجليزى — أوافقك على تعريفك . الا أننى على يقين ، نعم على يقين ، انك لن تجد فى انجلترا أحدا بهذه الصفة .

أمريكى — كلا . بل عدة ألوف اذا كنت قد أحسنت وصف الجندى الانجليزى أو الملاح الانجليزى بذلك التعريف . فالملاح كثيرا ما يجبر على الخدمة وينتزع من جميع روابطه وعلاقاته ، والجندى يشترى عادة بدينار وبعض دينار فى سوق التجنيد ، ولسيده أن يبيع عمله من يشاء من الأمراء الغرباء ، أو يؤجره بما يبرمه من المعاهدات ويقذف به الى حيث يرمى أو يرمى فى ألمانيا أو البرتغال أو غانة أو الجزر الهندية الغربية ، وهو مقيد بالعمل مدى الحياة يصدق عليه كل حرف مما ذكرته فى ذلك التعريف ، وقد يتخطى الرق الانجليزى فى حالة من الحالات كل ما انتهى اليه من الحدود فى الديار الأمريكية .

انجليزى — وماذا تعنى ؟

أمريكى — نحن لا نستطيع فى أمريكا أن نأمر العبد بعمل لا يستقيم مع الخلق أو مع الشريعة ، ولا نستطيع مثلا أن نأمره باقتراف جريمة

القتل ، ولو أمرناه بذلك لحق له أن يأبى وتقره القوانين على الاباء . غير أن الجندى مجبر على طاعة كل أمر أو يعرض نفسه للموت ، ولو كان الأمر كأمر هيرود بقتل كل طفل دون السنتين أو بقطع رقاب الصغار فى المستعمرات أو باطلاق النار على النساء والأطفال فى بطاح سان جورج (اشارة الى مذبحة سنة ١٧٦٨)[1] .

ويسلك فرنكلين مثل هذا المسلك « المنطقى » لاقناع مخالفيه داخل بلاده فى مسألة الرق كما سلكه فى مناقشة المخالفين خارج بلاده لاقناعهم فى هذه المسألة ، وقوام الاقناع عنده فى الحالتين أن يأخذ المخالفين له بما يدينون به ويسلمونه وأن ينبههم الى أحوالهم التى يغفلون عنها ولا يلتفتون الى مغزاها وأن يريهم أنهم يصابون بالحجة التى يسوقونها قبل أن يصيبوا بها غيرهم ، وهذا الأسلوب المنطقى أفعل الأساليب فى الزام حجتهم ، لأنها فى النضال المنطقى بمثابة نقل الهجوم الى معسكر الخصم من داخله ليشتغل بنفسه عن مهاجمة غيره .

وقد تقدم أن فرنكلين كان يقول انه يرحب برسول المفتى الأكبر من القسطنطينية اذا طلب للمفتى الأكبر أن يوفده الى الديار الأمريكية ، ولكنه فى الرسالة التالية يذكر أنصار الرق فى بلاده بحجة القراصنة الذين كانوا يستخدمون شواطىء المغرب بأفريقيا الشمالية لاقتناص ركاب السفن والاتجار ببيعهم والتعلل بالدين لاستباحة رقابهم ، وكان بعض أنصار الرق — مستر جاكسون مندوب ولاية جورجيا — قد ألقى خطابا فى مجلس النواب — يفند به أقوال المعترضين على النخاسة أو تجارة الرقيق ونشرته صحيفة الفدرال جازيت Federal Gazette ، فكتب فرنكلين الى الصحيفة يرد عليه بهذا الأسلوب التهكمى الذى يشبه « محاكاة الصوت » للسخرية والتنديد ، وكان تاريخه يوم الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ قبل وفاة فرنكلين بنحو ثلاثة أسابيع :

---

(١) من كتاب رسائله الى الصحف المتقدم ذكره .

خطاب سيدى محمد ابراهيم

سيدى محرر الفدرال جازيت .

قرأت أمس فى صحيفتكم الغراء خطاب مستر جاكسون فى مجلس النواب يستنكر به تعرضهم لمسألة الرق ومحاولتهم تحسين أحـوال الرقيق ، فذكرنى خطابه هذا بخطاب ألقى قبل مائة سنة بلسان سيدى محمد ابراهيم عضو الديوان بالجزائر كما أثبته مارتن فى سجل قنصليته سنة ١٦٨٧ . وكان هذا الخطاب معارضا لجماعة الطريقة الصوفية التى توسلت الى الديوان أن يأمر بالغاء القرصنة والنخاسة لأنهما تناقضان العـدل والانصاف .

ان مستر جاكسون لم يستشهد به ولعله لم يطلع عليه ، ولهـذا يبدو من براهينه وذرائعه أن عقول الناس ومنافعهم تدين وتدان على منهج واحد فى جميع الأمم والأقاليم كلما اتفقت المطالب والأحوال، وهذه هى ترجمة الخطاب الأفريقى المشار اليه .

بسم الله . الله أكبر . ومحمد نبيه ورسوله .

... ترى هل فكر أصحابهذه الطريقة فىعواقبالاستجابة لرجائهم؟ وكيف ترانا نصل الى البضاعة التى تأتى من البلاد المسيحية ولا غنى لنا عنها اذا نحن كففنا عن شن الغارة على المسيحيين ؟ ومن الذى يزرع لنا الأرض فى هذه البلاد الحارة ان لم تتخذ منهم عبيدا مسخرين ؟ ومن الذى يؤدى لنا عمل الخدم فى المدن والبيوت ؟ ألا يؤول بنا الأمر يومئذ أن نصبح نحن العبيد المسخرين لأنفسنا ؟ ألسنا هنا أحق بالرحمة من أولئك الكلاب ؟

لدينا الآن خمسون ألفا فى الجزائر وحولها ينقصون يوما بعد يوم ان لم يأت المدد من جديد ، فان كففنا عن اغتنام سفن الكفرة واسترقاق الملاحين والمسافرين على متونها فلسوف تصبح أرضنا هملا لاقيمة لنا

لانقطاع العمل فى زراعتها ، وسوف تهبط أجور بيوتنا فى المدينة الى نصفها وتنفد موارد الخزانة العامة تبعا لذلك . ومن أجل ماذا كل هذا يا ترى ؟ كل ما هنالك أن نرضى أهواء طائفة من أصحاب الأحـوال والبدوات يودون لو أننا أطلقنا الأرقاء الذين فى حوزتنا فضلا عن تحريم المزيد من المدد الجديد .

وبعد ، فمن الذى يعوض سادتهم عن ضياعهم ؟ أتعوضهم الدولة ؟ أفى خزانتها كفاية من المال ؟ أترى يعوضهم أبناء تلك الطريقة أم فى وسعهم هذا التعويض ؟ أم هم فى سبيل الانصاف الذى يزعمونه لأولئك العبيد يتجافون عن انصاف أولئك السادة المظلومين ؟ وهبونا أطلقنا عبيدنا فماذا يصير من أمرهم بعد اطلاقهم ؟ ان قليلا منهم من يعودون الى بلادهم لعلمهم بالمصاعب التى تنتظرهم هنالك ، وهم لا يؤمنون بديننا ولا يسيرون على نهجنا فى حياتنا ولا يتبعون عاداتنا ولا يقبل أبناء قومنا أن يدنسوا أنفسهم بمخالطة أنسابهم . فهل ترانا نستبقيهم بيننا متسولين فى طرقاتنا؟ أو ترانا نترك أمتعتنا لمن يريد منهم أن يسرقها ويسلبها ؟ ان الذين طال بهم عهد العبودية لن يعملوا لكسب أقواتهم ان لم يجدوا من يكرههم على العمل لها ، وماذا لعمرى فى معيشتهم اليوم من السوء أو مما يستدر الرحمة والاشفاق ؟ ألم يكونوا عبيدا فى بلادهم قبل هذه البلاد ؟ أليست بلاد الأسبان والبرتغال والفرنسيين والايطاليين مسخرة فى طاعة حكام مستبدين ؟ أليست انجلترا تسوم ملاحيها سوم العبيد وتقبض عليهم حكومتهم كما تشاء لتحبسهم فى سفن الحرب وتكرههم لا على العمل وحسب بل على القتال من أجل رزق قليل أو مؤونة تسد الرمق ولا تفضل فى شىء ما نسمح به نحن للعبيد . فهل تسوء أحوالهم اذن لأنهم يقعون فى أيدينا ؟ كلا . بل قصارى الأمر أنهم يستبدلون رقا برق ، وأقول انه لرق خير من رقهم لأنهم يعيشون هنا حيث تشرق شمس الاسلام فى روعتها وبهائها ، وحيث تتاح لهم الفرصة للاهتداء الى الدين الحق والنجاة بأرواحهم من الهلاك . أما الذين يمكثون منهم فى أرضهم فلا أمل لهم

فى هذه السعادة ، ولن يكون ارسال العبيــد من بلادنا الى بلادهــم الا كاخراجهم من النور الى الظلمات .

وأعود فأسأل : ماذا عسى أن يصير من أمرهم ؟ لقد سمعت من يقول انهم يرسلون الى القفار حيث تتسع الأرض لمعيشتهم ويقيمون أحرارا فى أرضهم . على أننى أحسبهم لاينشطون لعمل قط ما لم يدفعوا اليــه على الرغم منهم ، وانهم لأغبى من أن ينهضوا بحكومة حرة لحكــم أنفسهم ، ولن يلبثوا أن يغير عليهم الأعراب من أهل البادية فيستعبدوهم، ولكنهم حين يقيمون فى خدمتنا يلقون منا الرفق وحسن الرعاية على سنة الرحمة والمروءة ، وليس للعمال فى أوطانهم كما أعلم نصيب من ذلك بل هم على نصيب قليل من الغذاء والمسكن والكساء ، فهم على هذا تصلح أمور الأكثرين منهم بيننا ولا حاجة بهم الى ترفيه أو اصلاح حال . اذ هم هنا فى أمان لا يجبرون على الجندية ولا على أن يعمل المسيحيون منهم فى قطع رقاب اخوانهم المسيحيين كما يحدث فيما يشجر بينهم من الحروب. فاذا كان أناس من هؤلاء المجاذيب الذين يحتجون بالغيرة على الدين فيما بيننا قد حسن لديهم أن يرفعوا العرائض تترى للافراج عن هؤلاء الأسارى فما كان ذلك من كرم فيهم ولا من مروءة ورحمة ، وانما هى أعباء ذنوبهم وخطاياهم يرزحون بها ويخيل اليهم أن هذا المطلب خليق — لما يتوهمونه من احسانه وفضله — أن ينجيهم من الهلاك وســوء الجــزاء .

وما أضل هؤلاء المتهوسين حين يحسبون أن الاسترقاق محرم فى القرآن ؟ أليس أمر السادة بالرفق وأمر العبيد بالطاعة والأمانة نصــا على جواز الاسترقاق ؟ كذلك لايحرم فى الكتاب سلب الكفار لأن المعلوم منه أن الله قد وهب الدنيا وكل ما فيها لعباده المؤمنين يغتنمون ما افتتحوا منها .

فلا نستمعن بعد الآن لذلك الطلب البغيض ، ولنعلمن أن اطلاق الأرقاء النصارى يسلط الكساد والخراب على أراضينا وبيوتنا ويحرم

الكثيرين من رعايانا الأمناء طيبات أرزاقهم فيثير القلق فى النفوس ويغرى المتذمرين بالفتنة ويزعزع مكانة الحكومة ويعم الديار بالفوضى والاضطراب ، ولا يخامرنى الشك — لهذا — فى أن هذا المجلس الحكيم يؤثر سعادة الأمة المؤمنة كلها على ارضاء فئة من أبناء الطريق ، ويعرض عما يطلبون .

ولقد كان من أثر هذا الكلام ، كما أنبأنا مارتن فى سجله ، أن الديوان انتهى الى هذا القرار :

« ان القول بأن سلب النصارى واسترقاقهم ظلم ومجافاة للعدل انما هو على الأقل من الأقوال المختلف عليها ، ولكنه من الواضح أن الابقاء على هذه الحالة فى مصلحة الدولة . فلا تقبل تلك العريضة بناء على هذا الاعتبار » .

وعلى هذا رفضت العريضة .

ولما كانت البواعث المتشابهة تميل بعقول الناس الى ما يشبهها من الآراء والقرارات — أفلا يجوز لنا — يا مستر براون — أن نستخلص من ذلك أن العرائض التى أرسلت الى برلمان انجلترا لالغاء النخاسة ، ولا نذكر ما عدا ذلك من المطالب ، وشيكة أن تصير كما تصير المناقشات فيها الى مصير كهذا المصير .

اننى يا سيدى قارئك المثابر وخادمك المتواضع : مؤرخ

معاهدة مع سيدة[1]

وهذه رسالة من نوع آخر غير الرسائل الى الصحف وغير الرسائل الى سائر الأشخاص ، كتبها الى السيدة بريون Brillon احدى سيدات

---

(١) اعتمدنا فى ترجمة هذه الرسالة على النص الانجليزى المنشور فى الجزء الأول من كتاب أئمة الأدب الأمريكى طبع مكملان
Masters of American Literature

المجتمع الرفيع فى باريس ، وكان يكتب اليها باللغة الفرنسية فتصحح له أخطاءه وتدربه على التعبير الفصيح فى الكتابة والكلام بتلك اللغة ، وقد كتبت اليه من نيس تعاتبه لأنه انصرف عن الاهتمام بها فى غيابها ووجه التفاته الى سيدات غيرها ، وكان الخطاب فى صيغة المراسم الدولية ، فكتب اليها الرد فى صيغة معاهدة سياسية وقدم لها بفاتحة تمهيدية (بروتوكول) فقال :

باسى ، فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٨٢ .

... ما أبعد الفارق بينك وبينى ! انك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربى على الاحصاء ، وأنا لا أرى لك الا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى!. ذاك ضرب من الطمع يوحى اليك أن تعظمى عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لابقية فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات ، وكأنك تحسبين أنها من العواطف التى لا تقبل القسمة الا نقصت وتفرقت ، وهى غلطة فى الحساب وفى النظر الى طبيعة الموقف الذى وقفتنى فيه وقضيت به علىّ . فانك تجردين حبنا من كل صلة جسدية غير ما يكون من عناق كعناق أولاد العم عند مقدمهم من الريف . فماذا بقى من العاطفة مما يسوغ لى أن أتجه به الى الأخريات دون أن يغض ذلك أو ينقص من محبتى اياك ؟ ان خطرات الفكر والتقدير والاعجاب والتوقير ، بل العطف نفسه على موضوع من موضوعاته ليقبل المضاعفة والزيادة كلما تضاعفت تلك الموضوعات وازدادت دون أن يخل ذلك بحق صاحب العطف الأصيل أو يسوغ له الشكاية من ضرر . وانه لفى طبيعته من قبيل تلك الألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الألمية ، ويستمع لها عشرون فيغتبطون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبى الذى تريدين أن يخصنى منها ، وقد يحق لى اذن أن أطالبك بمنعها أن تصل الى أذن غير أذنى . وسترين على هذا كيف جاوزت بمطالبك حد العدل والنصفة ، وزدت عليها اعلان الحرب علىّ ان لم أذعن لجميع تلك المطالب ،

ولو أنصفتنى لكان من حقى أنا أن أشكو اليك . وها هو ذا ولدى الصغير لم يسمن ولم يكتنز كعهدى بالأطفال فى رسومك الرشيقة ، بل هو يهزل ويتضوع الى غذائك المرىء الذى تنكرينه عليه أنت أمه الحنون ، ثم ها أنت ذى تتوعدينه بقص جناحيه كى يقعد عن البحث عنه فى مكان .

ويخيل الى أن الحرب التى تشهرينها لا أغنم منها ولا تغنمين ، ولما كنت أنا الأضعف وجب على أن أصنع ما يصنعه الأحكم ، وأن أبدأ بطلب الصلح ، ولا ضمان لدوام الصلح الا أن تصاغ شروطه فى قالب الانصاف وتبادل الرضا والموافقة ، وهذه هى مواد المعاهدة التى أعرضها للقبول والابرام .

المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقة بين الطرفين مدام بريون ومستر فرنكلين .

المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها .

المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء .

المادة الرابعة

اذا وجد معها فعليه أن يتناول الشاى وأن يلعب بالشطرنج وأن يستمع الى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها .

المادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها .

المادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء .

المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء .

المادة الثامنة

وأن يفعل ما يشاء حين يكون فى حضرتها .

المادة التاسعة

وألا يحب امرأة أخرى الا بمقدار ما عندها من دواعى المحبة .

وأرجو أن أسمع رأيك فى هذه القواعد المبدئية ، وفى رأيى أنها أصدق تعبيرا عن المقاصد والنيات التى يرضاها الطرفان من أكثر المعاهدات ، وبودى أن ألح وأصر على قبول المادة الثامنة وان لم يكن أملى عظيما فى قبولها ، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وان كنت على يأس من لقاء المرأة التى تستولى منى على حب يضارع حبى اياك أيتها الصديقة الغريرة العزيزة[1] .. للمخلص ب . ف .

بين العلة والمريض

وكان السيد بريون قرين السيدة بريون يشكو مرض النقرس الذى أصيب به فرنكلين وحاول كعادته أن يلطف ألمه باستخراج العبرة منه ، فكتب الحوار الآتى مع رسالة الى السيدة للتسرية عن قرينها فى مرضه ، وتكلم عن النقرس بضمير المؤنث وسماه السيدة على سبيل التهكم ، فترجمناه بأم النقارس لتصوير العلة فى هذه الصورة بقدر المستطاع .

---

(١) من كتاب «كتابات فرنكلين الترجمية» تأليف كارل فان دورن
Franklin's Autobiographical Writings by Carl Van Doren.

فرنكلين — أه . آخ . يارب . ماذا ترانى صنعت كى أستحق هذه الآلام القاسية .

أم النقارس — صنعت كثيرا . أكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ، واستسلمت لكسل قدميك فتركتهما فى متعة الراحة الزمن الطويل .

فرنكلين — من ذا يكلمنى ؟

أم النقارس — اننى أنا نفسى أم النقارس .

فرنكلين — عدوى بعجره وبجره .

أم النقارس — لست بعدوك .

فرنكلين — بل عدوى المبين . فانك لا تقنعين بقتل جسدى بآلامك المبرحة وحسب ، بل أراك تعملين على تشويه سمعتى الحسنة ، وتتهميننى بالنهم والادمان ، وكل من عرفنى فقد عرف أنه ما من أحد قط رمانى بهذه التهمة وزعم اننى أفرط فى الطعام أو الشراب .

أم النقارس — ليحكم الناس كما يحبون . فما أكثر مجاملة الانسان لنفسه فى هذه الأيام ! وما أكثر مجاملة الأصدقاء للأصدقاء . الا أننى أنا أعلم أن الطعام الذى لا يحسب كثيرا ، وان الشراب الذى لا يحسب لذلك بالنظر الى انسان كثير الحركة ، لهو الافراط بعينه حين يتعاطاه رجل قليل الحراك .

فرنكلين — اننى . آه . آخ . اننى أتريض جهد ما أستطيع يا سيدتى أم النقارس ، وانك لتعلمين طبيعة حياتى « القاعدة » ... فكان فى وسعك يا سيدتى أم النقارس أن تحسبى حسابها وتعفينى من الألم بعض الاعفاء ، اذ لم تكن غلطتى أنا أن أعمل فى استقرار .

أم النقارس — أبدا . ان منطقك ولباقتك عبث ضائع ، ومعاذيرك لا تساوى قطميرا فى هذا المقام ، فانك اذا كان عملك ساكنا مستقرا فقد وجب أن تكون رياضتك وتسلياتك متحركة ناشطة ، وعليك أن تخرج

للرياضة على قدميك أو على ظهر جواد ، واذا عز عليك الوقت فتريض بلعب البليار ، فتعال نحاسبك على منهج حياتك وكيف تتصرف فى قضاء أوقاتك ... يكون لديك الكفاية من الوقت بعد منتصف النهار وعند الأصيل فماذا تراك تصنع فى هذه الساعات ؟ انك بدلا من شحذ الرغبة فى الطعام بالرياضة الصالحة تدأب على تسلية نفسك بقراءة الكتب والرسائل والصحف التى لا تستحق فى كثير من الأحيان أقل التفات . ثم تتناول الغداء الفخم وتجرع أربعة أكواب من الشاى والقشطة مع قدتين من الخبز والزبدة عليها قطعة من لحم البقر مما لا يحسب فيما أرى من الطعام اليسير الخفيف على البطون . ثم تذهب الى مكتبك على الأثر حيث تكتب أو تتحدث الى الذين يزورونك فى شئون العمل ، وتمضى على ذلك الى الساعة الواحدة دون أن تروض بدنك أقل رياضة. على أننى قد أغفر لك هذا لأنه كما تقول من طبيعة عملك القرير . ولكن تعال نسألك ماذا تصنع بعد الغداء ؟ انك بدلا من التمشى فى حدائق أصحابك الذين تتغدى عندهم كما يصنع أولو الفهم والفطنة ترسخ على المقعد أمام الشطرنج حيث يستطيع من شاء أن يراك مستطردا فى اللعب ساعتين أو ثلاث ساعات . وتلك هى رياضتك الأبدية ، وهى أقل الرياضات موافقة لأصحاب العمل القرير ، لأنها لا تساعد حركة الأخلاط البدنية بل تتطلب الثبات والانتباه الطويل الذى يعطل تلك الحركة ، وكذلك تتلف بنيتك بالاستغراق فى تلك اللعبة التعسة ، فكيف يتوقع أحد أن يعيش تلك العيشة دون أن تركد أخلاط بدنه وتتعرض للفساد ويصبح البدن من جراء ذلك عرضة لجميع الأدواء العضال ان لم أحضر اليك — أنا أم النقارس — بين حين وحين كى أهيج أخلاطك فأصفيها أو أنفيها . ولو أنك فى زاوية من زوايا باريس بين الأزقة التى لا تتخللها طرق الرياضة تقضى فى لعب الشطرنج لجاز لك أن تتمحل تلك المعاذير ، ولكنك تفعل هذا فى باسى وفى أوتيل وفى مونمارتر وفى ايبانى وفى سانوا حيث تكثر الحدائق والمنازه والنساء وينطلق الهواء النقى والأحاديث الممتعة النافعة وتستمتع بذلك كله وأنت سائر على قدميك . غير أنك

تهملها جميعا حبا لتلك اللعبة التعسة لعبة الشطرنج . تعسا لك اذن يا سيد فرنكلين ! اننى نسيت نفسى وأنا ماضية فى نصحك . فخذ الساعة هذه القرصة ، وخذ معها تلك ، وخذ ..

فرنكلين — آه . آه . أوه . هات بربك ما شئت من نصائحك بل من لواذعك ولكن بربك لا تزيدينى من هذه التقويمات والتصحيحات !

أم النقارس — على النقيض يا صاح . لن أعفيك من هباءة منها ، فانها لمصلحتك . خذ ! ..

فرنكلين — أوه . ايه . من الظلم يا سيادتى أن تقولى اننى لا أتريض فاننى لآخذ رياضتى فى مركبتى حين أذهب الى الغداء وحين أعود .

أم النقارس — تلك بين جميع الرياضات أقلها نفعا وأهونها حركة اذ تهتز المركبة على دواليبها ولا زيادة . ولك أن تحكم على مبلغ الرياضة فى الحركة بمبلغ ما تحدثه تلك الحركة من الحرارة . فانك اذا خرجت للرياضة فى الشتاء وقدماك باردتان لم تلبث ساعة حتى تشعر بالحرارة فى قدميك وجميع أجزاء بدنك ، واذا ركضت على ظهر الجواد فأنت فى حاجة الى ساعات أربع للظفر بمثل تلك الحرارة ، ولكنك اذا جلست فى مركبتك فربما قضيت اليوم كله وانتهيت الى قرارك وأنت بارد القدمين . فلا تخدعن نفسك اذن وتقضين نصف ساعة فى مركبتك ثم تسمينها رياضة ، وما منح الله كل من هب ودب مركبة يمتطيها ، ولكنه منح كل انسان قدمين أكمل وأجمل وأنفع ، فاجعل من شكرك لله على هذه المنحة أن تستخدمها وتنتفع بها . وفى وسعك أن تعرف كيف تتحرك أخلاط الجسم وأنت تتنقل من مكان الى مكان . فلاحظ أنك حين تمشى على قدميك ينتقل ثقل جسمك كله دواليك تارة الى الجانب الأيمن وتارة الى الجانب الأيسر وتضغط هذه الحركة على عروق القدم وتدفع منها ما تحتويه ، ويتسع الوقت لامتلاء العروق مرة أخرى ريثما يتم التحول من قدم الى قدم ، فيتم بذلك انتظام الدورة فى الجسم ، ومن

هنا تأتى الحرارة التى تنشأ فى لحظة من الزمن وتنشط الأخلاط وتجرى الأمزجة مجراها فيجرى كل شيء على ما يرام : تحمر الوجنتان وتتمكن العافية .

« ولتنظر الى صديقتك فى أوتيــل — تلك المرأة التى تلقت من الطبيعة نصيبا من العلم الحق أوفر من أنصباء ستة منكم أدعياء الحكمة الذين يقتبسونها من الكتب ، فانها حين تنوى أن تشرفكم بزيارتهــا تمشى على قدميها من الصباح الى المساء وتدع أمراض الكســل كلها تتوزع بين خيلها ، فانظر كيف تحافظ على صحتها بل على محاسنها ، وأنتم تنوون زيارة أوتيل ففى المركبة تذهبون ، ولا فرق بين المسافتين : من أوتيل الى باسى أو من باسى الى أوثيل .

فرنكلين — انك تضجريننى بهذا الجدل .

أم النقارس — صدقت . سأمسك لسانى وأمضى فى اداء واجبى . خذ هذه الوخزة .. وخذ هذه .. وخذ .

فرنكلين — أوه . أوه . لا بل تكلمى . تكلمى . أتوسل اليك . تكلمى .

أم النقارس — كلا . ان عندى حفنة من الوخزات حصتك فى هذه الليلة ، والبقية الى الغد .

فرنكلين — رباه . هذه هى الحمى . لقد هلكت . ألا يوجد أحد يحمل عنى هذه الآلام ..

أم النقارس — اطلب هذا من خيلك . فانها تتعب لتمشى فى مكانك .

فرنكلين ـ ما أشد قسوتك . تعذبيننى كل هذا العذاب لغير سبب .

أم النقارس — أما لغير سبب فلا .. وان لدى لثبتا وافيا أحصى فيه جميع خطاياك فى حق صحتك ، وكلها مسطرة فى وضوح وما من وخزة تتلقاها منى الا وعندى عليها برهان .

فرنكلين — اقرئيه اذن .

أم النقارس — انه شرح يطول ، وسأريكها بعرضها عليك .

فرنكلين — افعلى . فكلى أسماع !

أم النقارس — أتذكر كم مرة عزمت على التمشى فى غاب بولون أو حديقة الصيد أو حديقتك وانثنيت عن عزمك ، تزعم تارة أنه برد وتارة أنه حر وفى ساعة أخرى أنها ريح أو أنها رطوبة أو أنها ما لست تدرى ماذا من التعديلات ؟ تزعم ذلك وما فى كل أولئك من سبب الا السبب الوحيد : وهو أنك كسلان !

فرنكلين — أعترف بأن هذا يحدث .. لعله عشر مرات فى كل سنة .

أم النقارس — اعتراف أبتر ، والحق انه يتضاعف مائة مرة وتسعا وتسعين .

فرنكلين — أيمكن هذا ؟

أم النقارس — نعم ممكن لأنه واقع ، ولك أن تطمئن الى صدق كل ما أقول ، وأنت تعرف حدائق مدام بريونوتعلمأنها ما أصلحها للسير فيها .. انك تعرف الدرج الذى تعد منه مائة وخمسين من الأرض الى المرتقى الأعلى ، وانك لتزور هذه الأسرة المحبوبة مرتين كل أسبوع فيما بعد الظهيرة ، وانك لأنت القائل ان « التمرين » على صعود الدرج ونزوله أكبر من التمرين على المشى فىالسهول . فما كان أجمل الفرص التى تتيح لك أن تجمع بين هذا التمرين وذاك التمرين . فهل انتفعت بهما ؟ وكم مرة يا ترى ؟

فرنكلين — لا أقدر على الجواب الصحيح عن هذا السؤال .

أم النقارس — اذن أتولى أنا الجواب عنك .. ولا مرة !

فرنكلين — ولا مرة ؟

أم النقارس — نعم ولا مرة . ففى أيام الصيف الماضى الجميل وصلت ثمة عند الساعة السادسة ، ووجدت ثمة تلك السيدة المليحة وأطفالها الحسان وأصحابها جميعا على استعداد لمزاملتك فى السير وامتاعك بأحاديثهم الرائقة . فماذا صنعت ؟ جلست على الشرفة وأثنيت على المنظر الجميل وعاينت جمال الحدائق من تحتك ولم تخط خطوة واحدة لتهبط اليها وتسير فيها ، وعلى نقيض ذلك طلبت الشاى ورقعة الشطرنج ورسخت فى مجلسك حتى الساعة التاسعة ولعبت نحو ساعتين بعد تناول الطعام ، ولم تعد بعد ذلك الى منزلك مشيا كى تتحرك بعض الحركة ، بل عدت اليه جالسا فى مركبتك . فأية حماقة تلك التى تسول لك أن تظن أنك مع هذا الشطط تملك صحتك بغير زاجر منى ..

فرنكلين — الآن أومن بصواب ما قال ريتشارد المسكين حيث يقول ان ديوننا وخطايانا أكثر مما نحسب .

أم النقارس — ذلك حق ، وهكذا أنتم معشر الفلاسفة تملأون أفواهكم بالحكمة وتعملون عمل الجهلاء .

فرنكلين — ولكن أتراك تعدينها من جناياتى ، أننى عدت بالمركبةمن عند مدام بريون .

أم النقارس — بكل يقين ، لأنك قضيت اليوم جالسا ولا يسعك أن تزعم أنك قد تعبت من الجهد والمشقة ، أو أنك فى حاجة الى الترفيه عنك بالجلوس فى المركبة .

فرنكلين — فماذا تقترحين اذن ، وماذا ترين أن أصنع بمركبتى ؟

أم النقارس — احرقها ان شئت . انها تعطيك على الأقل شيئا من الحرارة وهى محترقة ! وان كانت هذه النصيحة لا تروقك فانى باذلة لك غيرها . انظر الى الفلاحين المساكين الذين يحرثون الأرض فى الكروم والحقول حول قرى باسى وأوتيل وشايوت . انك سترى كل يوم بين هؤلاء الخلائق المساكين خمسة أو ستة من الشيوخ أو العجائز قد انحنت

ظهورهم ورزحوا تحت وقر السنين فى الكدح والمشقة ، وهم بعد العمل المجهد طوال اليوم يمشون ميلا أو ميلين كى يصلوا الى أكواخهم المصدعة.. فمر سائقك أن يدعوهم الى المركبة ويحملهم الى بيوتهم ، فانه لعمل صالح تدخره لنجاة روحك ، ولئن عدت فى الوقت نفسه على قدميك من عند السيدة بريون ليكونن ذلك عملا صالحا تدخره لجسدك .

فرنكلين — آه . ما أثقل حديثك !

أم النقارس — نعود اذن الى شغلنا . فلتذكر دائما أننى أنا طبيبتك . خذ هذه !

فرنكلين — آه . أوه . يالك فى طبك من شيطانة !

أم النقارس — انك لتنكر الجميل اذ تقول ذلك عنى . ألست قد أنقذتك من الشلل بالقيام على تطبيبك ؟ ألست قد أنقذتك من أدواء الاستسقاء أو الفالج التى كانت وشيكة أن تقضى عليك لو لم أمنعها .

فرنكلين — أعترف بذلك ، وأشكرك على ما أسلفت ، ولكنى أرجوك الآن بربك أن تفارقينى فراق الأبد . فقد يلوح لى أن الموت أهون من علاج فيه مثل هذا الوجع ، واذكرى كذلك أننى كنت صديقك ، وأننى لم أدع أحـد لمصارعتك ومنازعتـك لا من الأطبـاء ولا من الرقاة والمخرقين،فان لم تفارقينى الآن فأنت خليقة كذلك أن تتهمى بالجحود.

أم النقارس — لا اخالنى شاكرة لك كثيرا على هذا . فاننى لأهزأ بالرقاة والمخرقين ، وانهم لقادرون وعاجزون عن المساس بى فى كثير أو قليل . وكم من طبيب حق الطبيب يعرف أخيرا هذه الحقيقة التى تقول له ان النقرس ليس بالداء ولكنه ضرب من الشفاء ، ولا لزوم لتعويق أسباب الشفاء ، ولنرجع — بعد — الى عملنا .. خذ هذه !

فرنكلين — أوه آه . سألتك بالله الا ما تركتنى وأنا واعدك منـذ اليوم ألا ألعب بالشطرنج وألا أدع الرياضة كل يوم ، وأن ألزم الاعتدال مدى الأيام والليال !

أم النقارس — أعلم انك ستفعل . وأنك تعد الوعود الجميلة وما تلبث بعد أشهر قلائل فى الصحة والعافية أن تعود الى عاداتك ومألوفاتك وتذوب وعودك الجميلة كما ذابت ثلوج السنة الغابرة.فلنعدالى حسابنا ولنوازن بين كسبنا وخسارتنا ، ثم انى بعد ذلك تاركتك على يقين من الرجعة اليك فى الوقت اللازم وفى المكان الملائم . فانه لمن مصلحتك واننى لك كما تعلم لنعم الصديق ! [1] .

الرفق بالحيوان

وكتب فرنكلين الى السيدة هلفيتس Helvétius قرينة الفيلسوف المعروف رسالة بلسان قططها حين علم أنها تنوى أن تتخلص منها بمشورة بعض أصدقائها من القسس لأنها تغير على أقفاص الطير التى تربيها فى قصرها ، فأرسل اليها هذه العريضة بلسان القطط تتوسل اليها أن تبقى عليها . فقال :

حضرة السيدة النابهة العلية الشأن والمقام

بلغتنا الساعة نبذة من خبر مرعب نغص علينا سعادتنا التى تنعم بها فى حظائر الطير والغاب لديك . بلغنا انك لما سمعته من بعض الوشايات من أعدائنا (الأب موريليه والأب روس) قد حكمت علينا بالنفى وأننا سنعتقل بوسيلة شيطانية ونحبس فى باطية ويقذف بنا الى أعماق النهر حيث تترك فيه لرحمة الأمواج ، واننا لنسمع فى هذه اللحظة التى نكتب فيهاهذهالعريضةالمتواضعة ضربات المطارقفىأيدىالحوذيةالذين عهداليهم بصنع الآلة الجهنمية التى فيها هلاكنا .

ولكن — سيدتنا علية الشأن — أتسمحين أن يقضى علينا هكذا دون أن يستمع للدفاع من جانبنا ؟ وهل ترينا وحدنا من الذين تطعمينهم وتغذينهم نحرم ما فى صدرك الحنونمن العطف والشفقة ؟ اننا

(١) من كتاب الخزعبلات The Bagatelles تأليف ريتشارد اميشر Richard E. Amacher

نرى يدك الكريمة كل يوم تطعم مئات الفراخ والكنار والحمائم التى لا عداد لها كما تطعم عصافير الجيرة أجمعين وأسراب الشحارير فى غاب بولون ، بل تسخو بالطعام والشراب حتى للكلاب فى هذه الرحاب . فهل نحن وحدنا نحرم هذه الخيرات من يدك ولا يكفينا هذا بل نصبح دون غيرنا هدفا للقسوة التى لا مكان لها بين مآثرك وسجاياك ؟ .. كلا .. ان سجاياك التى انطوت عليها فطرتك البارة ستعيد الى قلبك من عواطف الحنان ما هو أشبه بهذا الحنان .

واآسفاه ! ما هى جرائمنا التى اجترحناها ؟ . اننا نتهم — وما أكثر ما تفعله الوشايات والتهم — أننا نأكل الفراخ الصغار ونغير من حين الى حين على الحمائم ونرقب طيور الكنار حتى تدنو منا فنقبضها وندع الفيران تعيث فى دارك آمنة مطمئنة !

لكن هل يكفى مجرد الاتهام للادانة بالاجرام ؟ اننا لنستطيع أن ندحض هذه التهم جميعا فى غير عناء ، وينبغى أولا ألا ننسى أنها لا تقوم على بينة أو برهان .

فاذا سلمنا أن هناك بقية من أرجل الحمائم وريشها تقدم فى معرض البينة على ادانتنا فهل تصلح هذه البينة للادانة أمام محكمة من المحاكم على وجه الأرض كلها ؟

ان الجرائم يخلقها العوز والحاجة ، ونحن بحمد الله فى رحابك ثمانى عشرة قطة تنعم بالخير الجزيل ولا نشعر بالعوز ولا بالحاجة . فهل يعقل مع هذا أن نخدش اليد التى تطعمنا ؟ ألم تبصرى بعينيك فراخك تدنو منا وتأكل معنا من صحافنا ولا تعترضها حركة مسيئة من جانبنا ؟ واذا قيل لك اننا لا نلتهم الفراخ ونحن نحس رقابة الأعين علينا ، واننا تحت جنح الظلام نجترح ما نجترح من جرائمنا فانما هم أعداؤنا الذين يستترون بجنح الظلام لافتراء الأقاويل علينا . ويحق لنا أن نرميهم بذلك لأنهم ينسبون الينا الجرائم الليلية التى يدحضها مسلكنا فى وضح النهار .

وقد يقول أعداؤنا ان حظائر سيدتنا العلية الشأن تكلفها خمسة وعشرين لويزا ذهبا (أى ستمائة ليرة فى العام) وأنها لا تأكل منها أكثر من خمسين يحسب ثمن الواحدة باثنى عشرة ليرة لحسن تدبيرها وعنايتها بنفقتها .! فأين تذهب البقية يا ترى ؟

ولنا أن نسأل (أولا) هل عدت الفراخ وسلمت الينا فنحن مسئولون عنها ؟ وهل نحن دون غيرنا موضع الشبهة بين أولئك الأعداء المحيطين بها وأولهم أبناء آدم وحواء الذين يخالون أن الفراخ لم تخلق فى هذه الدنيا الا ليأكلوها ؟ فى كل يوم من أيام الآحاد يقدم على باب غاب بولون وفى منتديات أوتيل مئات من صحاف اللحم المفروم . أفلا يجوز أن يكون بعض فراخك قد تسرب فى لطف الى تلك المنتديات ؟ ان كان ذلك كذلك فلم نكن نحن يقينا من يتولى تسليمها الى أصحاب المطاعم والخانات ..

وبعد فنحن لا نريد أن نقف موقف الاعتذار لسارقى الدجاج،ولكنك — سيدتنا — تسمحين لنا أن نلاحظ أن فراخك على اختلاف الأسباب التى تنقصها وتقلل من عددها انما يجرى هذا النقص فيها على سنن الطبيعة ويعود عليك بالراحة والرضا . لأنه يحد من تكاثر نوعها وزيادتها على مقدارها ، ولو أنها تركت تنمو وتتكاثر بغير حد مقدور لم يبق فى رحابك متسع لها ولم تترك لك فترة للراحة من رعايتها .

أما الحمائم فليسمح لنا أن نقول ان فراخا عدة من نسل « كوكو »[1] قد غابت حقا ، ولكن هذا — مع عطفك عليه الى الحد الذى يبيح له أن يحطم خزفك الغالى ما دام يلقط الحب من يدك — لن يرضيك عن ظلمنا واتهامنا فى غير بينة . فأين هو الدليل الذى يثبت علينا أننا اعتدينا على ولد واحد من ذريته ؟ وهل يحدث بين نوعنا ونوعه أن تتقارب وتتلاقى ؟ ألا يزال على نأيه عنا والتجائه الى السقوف والقمم

(١) اسم فرخ من الحمام محبوب عند مدام هلفيتس .

لاتقائنا مما يجيز لنا أن نغضب لكرامتنا ؟ . اننا لنرجو أن تفتش حظيرة الغاب في الربيع القادم ونحن كفيلون فى حالة الكشف عن جريمة من جرائم الغيلة أن نسلم الجناة الى أيدى العدالة . لكن الحمائم ليست مثلنا نحن معاشر القطط المساكين مرتهنة بالأرض التى ولدنا عليها ، وقد تلوذ بالهواء وتطير الى مكان قصى غير هذا المكان ، وربما غار بعضها من ايثار فريق منها لديك على فريق فغادرت الديار طلبا للمساواة فى وكن جمهورى من أوكان الطيور ، مؤثرة هذا الفرار على البقاء فى الديار ، على مشهد من كبرياء (كوكو) الثرثار .

أما التهمة التى رمينا بها من أجل طيور الكنار فانك لترين عفوا بغير عنت أنها محض سخافة وتلفيق . فان فتحات القفص الكبير الذى تقيم فيه أضيق من أن تتسع لمدخلنا ، وربما خطر لنا من باب اللعب واللهو أن نزج بأيدينا خلالها فلا نقدر على اخراجها بعد ذلك بغير جهد ومشقة ، وقد يحدث أحيانا أن نسرى عن أنفسنا بالنظر الى تلك الخلائق الصغيرة البريئة ولا نذكر أننا ندين أنفسنا باهدار قطرة واحدة من دمها.

ولسنا نحاول أن ندافع بمثل هذا الدفاع عن أنفسنا فيما يخص العصافير والشحارير والزرازير التى تتمكن من اقتناصها . الا أننا نسوق فى مساق المعاذير أن عدوينا الأبوين طالما اشتكيا هذه الطيور واستنكرا منها تلك المتالف التى تصيب بها أشجار الكراز والثمرات ، وكثيرا ماسمعنا الأب موروليه يصب اللعنات على الشحارير والزرازير التى تغير على كرومك بغير رحمة ، وتصنع مثل صنيعة بتلك الكروم . ونحن نرى — سيدتنا علية الشأن — أن العنب أهل لأن تأكله الشحارير كما تأكله الآباء ، وأن حملتنا على النابهين المجنحين تذهب سدى ان كنت مع هذا تشجعين النابهين بغير ريش على انتهاب أضعاف ما ينتهبه المجنحون .

واننا لنعلم أننا متهمون كذلك باقتناص البلابل التى تغرد تغريدها الجميل كما يقولون ولا تنتهب شيئا من البستان . ويجوز أننا من حين الى حين نطرف حلوقنا بلقمة سائغة من هذا النصيب ولكننا نؤكد لك

أننا نفعل ذلك عن جهل منا بعطفك على هذه الفصيلة وانها لمشابهتها بعض العصافير والزرازير الأخرى يلتبس علينا الأمر بينها ولا ندعى لأنفسنا من الخبرة بفن الموسيقى ما نفرق به بين الزقاء والغناء فنأكلهـا ونحن نحسبها من تلك الزمرة المستباحة لنا . وقد سمعنا من قطة عند الموسيقار بيشيني Piccini أن الخلائق التى لا تحسن من الأصوات غير المواء ، لن تكون حكما خبيرا بأصوات الغناء ، وعلى هذا نعول فى تسويغ ذلك « الاعتداء » .

على أننا منذ اليوم سنبذل غاية الوسع فى التمييز بين الجلكيين وهم العصافير وبين البشينيين وهم البلابل فيما يروى العارفون[1] ولا نلتمس الا العفو عن خطئنا اذا اتفق فى جولة من جولاتنا بين الأعشاش أن نعثر على طائفة من البشينيين لم ينبت لها الريش بعد ولم يسمع لها صوت فى الغناء فلا تميز بينها وبين طائفة الجلكيين .

وخاتمة التهم التى نرمى بها — سيدتنا علية الشأن — أننا نترك دارك عرضة لذلك الجيش من الفيران يغير عليها فى أمان ، ويقـال انها تقرض المقادير الجمة من السكر والحلوى وتعدو على كتب علمـائك وحكمائك وتجترىء حتى على قرض أخفاف وصيفتك القديمة الآنسة لوبلبيه وهى تلبسها وتمشى فيها .!

ويقال فى سياق الاتهام ان العناية الالهية التى ترعى جميع خلائقها فى الحقيقة على السواء لم تخلق القطط الا لاصطياد الفيران . فان هى قصرت فى هذه المهمة فلا جزاء لها على التقصير فى رسالتها الالهية غير الاغراق .

والحق — يا سيدتنا العلية الشأن — انه لمن أيسر الأمور أن تنكشف هذه التهمة عن أهواء أعدائنا وأغراضهم الشخصية .. فان السـيد

(١) نسبة الى جلك Gluck الموسيقى الألمانى وبيشينى الموسيقى الايطالى وكان لهما حزبان متناظران فى أندية باريس ومعاهدها الفنية .

كابانيس نزيل قصرك الذى لا يزال على استعداد لاختلاس قالب من السكر كلما سنحت له الفرصة لذو مصلحة عظيمة فى اقناعك بجسامة جشع الفيران كلما قرضت قطعة من السكر أو شرعت فى لحس قدر من المربى قبل أن يصل اليها ، غير أنه يفتر عن القسوة — لا عن الغرض فحسب — اذ يقضى علينا بالموت لأننا لا نحول بين تلك الخـلائق الصغار التى تغتنم ما تقدر عليه من الفرصة لاستغلال خطة النهب التى يقترفها — على جلالة قدره — كل يوم بغير أسف وبغير ندم .. أفى وسعه يا ترى أن يشتط فى قسوته وراء هذا الشطط لو أننا نحن كنا مثله ومثل الفيران من آكلات السكر والمربى ؟ ألا يظهر من هذا جليـا أن النهم وحده هو الذى يوحى اليه بمثل تلك البواعث النفسية المنكرة ، وهل تسمحين أنت أن تفسحى لها مكانا فى صدرك الحنون ؟

أما كتب الأب دى لاروش وزميله العالم الآخر الذى اطلعنا على خطابه فى الأكاديمية فى صحيفة لففت بها الرقائق التى أنعمت بها علينا من لحم العجل ، فأى ضرر ياترى فى اقدام الفيران على قرضها من حين الى حين ؟ وما هى جدوى ذلك الاطلاع الواسع على أولئك العلماء ؟ أفما يحق لهم أن يعلموا — وقد عاشوا معك — انه لا جدوى من كل معرفة ؟ انهم يعلمون انك طيبة خيرة بغير اطلاع على المقولة فى أصول الأخلاق ، ويعلمون انك مليحة الشمائل بغير اطلاع على كتاب مسجلنا التاريخى منكريف الذى سماه صناعة الارضاء والاعجاب ، ويعلمون أنك سعيدة بغير اطلاع على مقولة السعادة التى ألفها التعس موبرتويس Maupertius . وانهم لشـهود يوميون على مبـلغ جهالتهم وهم العلماء بكل تلك المعارف عاجزون عن تحصيل تلك المعرفة التى تعرفينها جيدا وهى القدرة على الاستغناء عن كل معرفة . ان علمك بالهجاء كعلمنا ، وان خطك يشبه كثيرا أنابيش أيدينا ، وانك تخطئين فى هجاء كلمـة السعادة ولكنك تستمتعين بالشىء نفسه ، دون أن تعلمى كيف تكتب حروفه ، تلك المتعة التى لا يقـدرون هم — مع كل ما عنـدهم من

الكتب — أن يستخرجوها من صحائفها . وأنت بعد تفيضين عليهم من عظمة جهالتك ما يحيط بهم ويطويهم بين أكنافها . فليس فى مستطاع الفيران كما أثبتنا بالبرهان أن يصيبوهم بضرر بليغ . وأما أخفاف الوصيفة فان الفيران لم تكن لتدركها لو لم تكن الوصيفة تمشى كأنها نائمة ، والعجب منك — سيدتنا — أن تقضى علينا بالموت لأن وصيفتك تمشى بخطوات حازون !

وهذه البراهين على قوتها ليست هى عذرنا الوحيد بين يديك من التلف الذى توقعه الفيران بما فى دارك . آه أيتها السيدة العلية الشأن .. بأى ضمير يجوز اتهامنا فى حين نراك أنت تصحبين كلبيك المتعطشين الى دمائنا فلا نجترىء على الاقتراب منك لأداء واجب التحية التى تنبغى لسيدتنا ؟! كلبان اثنان ! يكفى هذا يا سيدتنا وأنت لا يخفى عليك أنهما من نوع تربى على بغضنا ويملأنا الرعب كلما استمعنا الى نباحهم على مقربة منا ... كيف يجوز لأحد أن يظلمنا بالملام اذا ابتعدنا من الأماكن التى تقيم فيها حيوانات بهذه الضراوة وهذه الكراهية المطبوعة لنا وهذه القدرة على اهلاكنا وهى طليقة لا يكبح لها عنان ؟!..

ولو كان الخطب خطب الكلاب الفرنسية وحدها لأمكن أن تخف وطأتها ويهون الخوف من ضراوتها . ولكنك تدخلين فى خدمتك — على خلاف الأوامر من الرقيب العام — كلبا من فصيلة البل دوج تأتين به من البلاد الانجليزية التى تكرهنا ضعفين لأننا قطط ولأننا فرنسيات ! وحسبنا ما نراه كل يوم من أثر بغضائه فى ذنب أخينا المبتور لينوار Le Noir ، ولا شك أن غيرتنا على خدمتك وأذواقنا التى ركبت على اشتهاء الفيران كانت قمينة أن تؤلف منا طوائف طوائف للصيد فى مسكنك لو لم نكن منفيين منها بالخوف من أولئك الأعداء الذين تبيحين لهم السيطرة عليها ، فلا يلومننا أحد بعد الآن على التلف الذى يحيق بدارك من غارة الفيران ونحن على ما نحن عليه مجردون من كل وسيلة لقمعها واقصائها .

واآسفاه . لقد ذهب ذلك الزمان . ذهب ذلك الزمان الذى كان ذلك القط الفاخر بومبون Pompon يسيطر على هذه الأماكن جميعا وينام فى حجرك ويضطجع على وسادتك ، وكان ذلك الكلب زميرا الذى يسعى اليوم سعيه لاسقاطنا يتزلف الى ذلك المجدود الذى يحتل الآن مكانه . لقد كنا يومئذ نجوس خلال الدار وأذنابنا مرفوعة فى الهواء ، وكان المرحوم بومبون ينزل أحيانا الى مشاركتنا فى قسمة الأرانب التى كان صاحب الجلالة يبعث بها الينا عقب عودته من رحلات الصيد ، وكنا فى ظل تلك الحظوة الفاخرة نسعد بالأمن والسعادة .

ونعود فنكرر الأسف على تلك الأيام التى خلت ، وعلى العهد القططى الذى خلفه هذا العهد الكلابى ، وقد كانت الحظوظ حظوظنا فى أيام دولته ، فأما اليوم فكل ما نملكه من العزاء أن نذهب الى ضريحه ونروى بدموعنا غصون البان التى ترفرف على مثواه الأخير .

آه . أيتها السيدة العلية الشأن . لتكن ذكرى ذلك القط الحبيب باعثة فى صدرك على الأقل شيئا من الرأفة بنا ، ونحن لا ندعى أننا من زمرته لأنه كان منذورا للعفة من صباه ، ولكننا من نوعه على كل حال ، ولا يزال طيفه يحوم حول هذه البقاع ويدعوك أن تنقضى ذلك الحكم الدموى الذى يتوعدنا ، وكل ما تسدينه الينا من البقايا الصالحات موقوف منذ اليوم الى أواخر أيامنا على المواء لك بوفائنا الدائم ، حافظين ذكراه الى أبنائنا وأبناء أبنائنا جيلا بعد جيل .

شــواغل الشيخوخة

وكان الاقتصادى الانجليزى جورج هويتلى صاحب كتاب أصول التجارة صديقا لفرنكلين يهتم مثله بالمسائل الاجتماعية الانسانية ، فكتب اليه فى الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٧٨٤ خطابا يعتب فيه على تأخير الرسائل ويتناول فيه بعض المسائل التى تعرف من جواب فرنكلين اليه ، فكتب اليه فرنكلين جوابه هذا فى الثالث والعشرين من شهر

مايو سنة ١٧٨٥ بعد نبذة وجيزة أرسلها اليه قبل ذلك ، واستهل الجواب المسهب بالاعتذار وأتبعه بالرد على المسائل الأخرى . قال :

« كتبت اليك بضعة أسطر منذ أيام ومعها الوسام ، وكان ينبغى أن أكتب اليك أكثر من ذلك لولا أننى فوجئت بفضولى شغلنى الى مساء ذلك اليوم ، فاحتملته جهدى كما أرجو أن تحتملنى جهدك الآن . فلعلى أفيض فى ثرثرة الفضول بما أجيب به الآن .

لا أعرف كلمة الفونس Alphonsus التى أشرت اليها مستشهدا بها على صوابك فى التشدد اذ تأبى أن تتقبل علة الشيخوخة عذرا من تأخير المراسلة . فما هى تلك الكلمة يا ترى ؟ انك على ما أرى لا تشعر بالداعى الى ذلك الاعتذار وان كنت كما قلت لى تصعد الى الخامسة والسبعين .. لكننى أنا أصعد الى الثمانين ، أو لعلى أنحدر اليها ، وأدع الاعتذار الى أن تبلغها أنت عسى أن تكون أدنى الى قبوله والايمان بصحته ، وتراه أنت صالحا للانتفاع به يومذاك .

وأوافقك على أن النقرس سىء وان الحصاة أسوأ ، وأحسبنى سعيدا لأننى لم أجمع بينهما معا فى وقت واحد ، وأدعو معك أن تعيش وتودع الحياة بمنجاة من هذه وذاك . الا أننى أزعم أن صاحب القبرية التى أرسلتها الى على خطأ فيما أوصى بكتابته على قبره وهو : «لم يحفل مقدار ذرة أن يقول القائلون خيرا أو شرا فى ساكن هذه الحفرة » ... فانه لمن طبيعة الانسان حيا أو ميتا أن يحب ذكراه بالخير ، ولا أخاله معفى من هذه الرغبة والا لما شغل نفسه بما يكتب على قبره .. ولقد كان — كما يظهر من قبريته — يحب أن يقال انه رجل ساخر من أصحاب النكتة ... أو ليس جديرا منه بمثل هذا الشغلان أن يقال ما كان أصدقه أو أطيبه من انسان ! وتعجبنى أكثر من هذا خاتمة الأنشودة التى عنوانها أمنية الشيخ التى يذكر فيها الناظم انه يتمنى فى الشيخوخة البيت الدافىء فى بلدة من بلاد الريف والجواد الطيع والكتب الممتعة والرفاق الموافقين من ذوى البشاشة والذكاء ، وفطيرة فى يوم الأحد وقنينة من

الجعة وأخرى من خمر برجندى الى أن يقول ويعيد هــذه المقولة فى ختام كل قطعة :

وليتنى أملك شعورى كالملك المطلق ، وأزداد فى الحكمة والخير كلما نقصت قواى ، ولا نقرس ولا حصاة ، الى أن تحين الوفاة .

ولقد أضاف الى تلك الأمانى أمنيته الأخرى قائلا : « وبالشجاعة التى لا تهن ولا تضعف ليتنى أواجه اليوم الأخير ، وليت خيار الناس يقولون بعد اليقظة فى الصباح أو بعد الشراب فى المساء : لقد ذهب بغير نظير ، لأنه حكم شعوره حكم السادة المطلقين ! » [1] .

على أنها محض أمنية . وماذا تغنى الأمانى ! ان الأمور لتجرى كما يتفق لها . وقد انشدت ذلك النشيد ألف مرة فى شبابى ثم بلغت الثمانين فاذا بالمحظورات الثلاثة قداصطلحت علىّ .فتعرضت للنقرس وللحصاة ولم أملك شعورى كالملوك المطلقين ! وكأننى تلك الفتاة المترفقة التى نذرت ألاّ يكون زوجها من طائفة القسس ولا من الكنيسة المشيخية ولا من أبناء ايرلندة . فلما تزوجت اذا بالثلاثة يجتمعون فى واحد : قسيس ايرلندى من الكنيسة المشيخية .

وانك لترى اذن اننى أتمنى — لسبب معقول — ألا أكون فى الحياة الأخرى كما كنت فى هذه الحياة وحسب ، بل أفضل وأسعد ولو قليلا ... ولى رجاء فى ذلك لأننى كشاعركم أومن بالله ، ويؤيد هذا الرجاء أننى أرى فى آيات خلقه دلائل القصد والتدبير ، وهى ظاهرة فى ابداعه وسيلة التناسل والتجديد التى تعمر عالمه بالنبات والحيوان بدلا من خلقها كل مرة من جديد ، وظاهرة كذلك فى جعل الأشياء قابلة للرجوع الى عناصرها الأولى كى تصلح لاستخدامها فى تركيب بعد تركيب بدلا من خلق مادة جديدة فى كل حين ، وهكذا قد يتركب الخشب من التراب والهواء والنار

---

(١) صاحب هــذه الأبيات فلكى انجليزى هو والتربوب Walter Pope توفى سنة ١٧١٤ .

ثم يعود بعد انحلاله ترابا وماء وهواء ونارا ... وكلما نظرت فلم أر شيئا يفنى ولا قطرة ماء تضيع فى الغمار لم يسعنى أن أتصور فناء الأرواح ولا أن أعقل أنه يدع الملايين من العقول تزول وينشىء فى مكانها عقولا أخرى بادىء ذى بدء كأول مرة . ولهذا أرى نفسى فى الدنيا وأعتقد أننى باق فيها على صورة من الصور ، واننى على كل ما فى الحياة الانسانية من النقائص والنقائض لا أمانع فى اخراج طبعة جديدة منى ، على أمل فى تصحيح الأغلاط التى كانت تشوب الطبعة السابقة .

— أعيد اليك مذكرتك عن الأطفال الذين تلقاهم ملجأ اللقطاء فى باريس من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٥٥ وقد أضفت اليها السنوات السابقة منذ سنة ١٧١٠ مع بيان تسجيلات التنصير واحصاء السنوات اللاحقة الى سنة ١٧٧٠ ، ولم أستطع العثور على غير هذا الاحصاء ، وفى الهامش ملاحظات على التدرج فى الزيادة من اعتبار الطفل عاشرا الى اعتباره ثالثا بين المواليد. وقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك التاريخ فلا يبعد أن النسبة قد وصلت اليوم الى النصف! فهل من الصواب تشجيع هذا النقص فى حاسة العطف الطبيعية ؟ اننى لقيت طبيبا هنا يتهم نساء باريس بقلة الصبر أو قلة القدرة على الارضاع ، ويؤكد لى ذلك قائلا انك تستطيع أن تعرف ذلك من النظر الى صدورهن السوية ! فليس فيها نمو أكبر من النمو الذى تراه على ظهر كفى ! ومنذ ذلك الحين يلوح لى أن كلامه لا يخلو من الصدق وان الطبيعة أحست أنهن لم ينتفعن بالأثداء فكفت يدها عن ملئها . هذا وان تكن الحالة قد تغيرت بعض الشىء منذ تكلم روسو بفصاحته المعجبة عن حق الأطفال فى ألبان أمهاتهم فأصبح بعض النساء من العلية يرضعن أبناءهن ويجدن فى أثدائهن اللبن اللازم للرضاع ، وأسأل الله أن تهبط « البدعة » الى الطبقات الدنيا فتبطل تلك العادة التى مردن عليها : عادة القاء الأطفال الى الملاجىء زاعمات فى غير اكتراث ان الملك أقدر على تربيتهم وتموينهم منهن .

وقد اتصل بى من ذوى ثقة ان تسعة أعشارهم يموتون على الأثر مما

يفرج عن الملاجىء التى لا تكفى مواردها لولا ذلك للانفاق على البقية . أما فيما عدا النسوة القلائل من العلية اللائى أشرت اليهن ، وفيما عدا غيرهن ممن يضعن أبناءهم فى المستشفيات فالعرف الشائع أن يدعى بالمرضعات من الريف ليعهد اليهن فى تربية الأطفال هناك ... وفى المدينة مصلحة تعنى بالكشف على المرضعات واعطائهن الشهادة التى تثبت صلاحهن لهذا العمل ، وكثيرا ما نراهن عائدات الى قراهن يحملن طفلا على كل ذراع ، ولكن الفئة التى تبلغ بها الطيبة أن تربى أطفالها على هذا النحو قد تعوزها النفقة التى تكفى للتربية ، وتمتلىء السجون بالآباء والأمهات المقصرات فىهذا الواجب وان يكن منالعادات المستحبة هنا أن يؤدى المحسنون غرامة أولئك الآباء والأمهات لتسريحهم من السجون ، وحبذا لو أفلح المشروع الجديد الذى يدبر الوسائل لتمكين الفقراء من تربية أطفالهم فى البيوت ، اذ لا مرضع كالأم ، أولا كثير من المرضعات يغنين غناءها ، ان وجدن . ومتى بقى الطفل فى حجر أمه أياما ولم يعجلوا بارساله الى الملجأ تمكن حبه من قلوب أبويه وبذلا من الجهد فوق ما يبذلانه لكسب الرزق والاتفاق عليه . وانها لمسألة تعرفها أنت خيرا من معرفتى فحسبى ما ذكرت عنها الآن ولا أزيد عليه الا ملاحظة مقتبسة من تاريخ مجمع العلوم تثنى على ملاجىء اللقطاء .

— يسير مصرف فلادلفيا سيرا حسنا على ما سمعت ، وما تدعوه معهد سنسناتى ليس بمعهد من معاهد حكومتنا بل جماعة خاصة ألفها الضباط فى الجيش السابق وتكرهها جمهرة الشعب منأجلذلكحتىيغلب على الظن أنها ستنحل ، وكان المظنون أنها محاولة لانشاء طبقة وراثية كطبقة النبلاء ، وأوافقك على أنها خطأ ثم أزيد على ذلك ان كل « التشريفات » الموروثة خطأ وسخافة ، فانما الشرف شرف الأعمال الفاضلة لمن يقوم بتلك الأعمال وليس من طبيعته أن ينقل من انسان الى انسان ، واذا صح أن ينقل من وارث الى وريث وجب أن يقسم بين جميع الوارثين وقل نصيب كل وارث تبعا لتقادم العهد وازدياد العدد ، ودع عنك ما يحدث من الاقتضاب والانقطاع أثناء الطريق .

وظهر أن دستورنا — أو مواد اتحادنا — غير مفهومة لديك ، فلو كان المؤتمر — الكونجرس — هيئة دائمة لكان من الخطر ودواعى الحذر تخويلها السلطان ، غير أن أعضاءها ينتخبون كل سنة ولا ينتخبون ثلاث سنوات على التوالى ولا ثلاث سنوات فى خلال سبع سنوات ، ويجوز على كل منهم أن يستعاد اذا كانت دائرته الانتخابية غير راضية عن مسلكه ، وكلهم من الشعب ويعودون أخيرا الى الشعب بغير صفة دائمة تميزهم الا كما تمتاز حبات الرمل فى الساعة الرملية ، ومثل هذه الجماعة لا يسهل أن تكون خطرا على الحرية العامة ، وأعضاؤها خدام الشعب يجتمعون معا لخدمة الشعب ورعاية مصالحه فلا يتيسر لهم أداء واجباتهم ما لم تكن لهم القوة الكافية لحسن أدائها ، وليست لهم رواتب مجزية غير الأجور اليومية التى قلما تساوى نفقاتهم ، وهم لقلة حظوظهم من المناصب والرواتب والمعاشات التى تعطى فى بعض البلاد لا يدعو الأمر معهم الى الدس أو الرشوة أثناء الانتخاب .

واننى لأتمنى لانجلترا — العجوز — توفيقا كهذا التوفيق فى نظام الحكومة ولا أراه . فان قومك يحسبون دستورهم أفضل الدساتير فى العالم ويظهرون الازدراء بدستورنا ، ولعله من أسباب الرضا أن يحسن الانسان ظنا بنفسه وبكل ما ينتسب اليه ، وأن نعتقد أن دياناتنا ومليكنا وربة بيتنا خير الديانات والملوك وربات البيوت ، ومما أذكره أن ثلاثة من جرينلاند ساحوا نحو سنتين فى أوربة برعاية المرسلين الورافيين فزاروا ألمانيا والدنمرك وهولندة وانجلترا وسألتهم فى فلادلفيا وهم قافلون الى بلادهم الأمريكية عما اذا كانوا بعد ما شاهدوه من معيشة الرجل الأبيض بصنع يديه يؤثرون البقاء بيننا ؟ فكان جوابهم انهم مسرورون بما شهدوه من المناظر الكثيرة ولكنهم يؤثرون المعيشة بين قومهم وفى ديارهم ، وهى لعمرك أرض صخرية لم يجد المورافيون بدا عن زيارتها من نقل الطين فى سفينتهم من نيويورك لزرع الكرنب فيها .

— أشك فيما بلغ مستردونالدعن تركيبالنظارةالتى اخترعتها لقوله

انها تصلح لأناس دون آخرين . ويخيل الىّ أن القول بأن التحـديب الذى يصلح للقراءة لا يصلح للنظر البعيد صوابه، ولهذا كان لى من قبل نظارتان أبدل بينهما فى السياحة لأننى أقرأ حينا وأحب التطلع الى المناظر حينا آخر ، ووجدت هذا التبديل متعبا لا يسعفنى فى كل وقت فقطعت الزجاج ووضعت نصفا من كل نوع فى الحلقة الواحدة ، واستطعت بهذه الوسيلة أن أدير بصرى علوا أو سفلا مذ كنت أستمر على وضع النظارة فوق عينى ، ووافقنى ذلك على الخصوص فى مقامى بفرنسا حيث وجدت أن النظارة التى ترينى صحاف الطعام أمامى لا ترينى وجوه الجالسين على الجانب الآخر من المائدة وهم يتحدثون الىّ . ولا يخفى أن الأذن اذا لم تكن قد تعودت على تمييز لهجة الكلام فى لغة من اللغات فنظرة العين الى ملامح المتكلم تساعد على الايضاح ، وهكذا أصبحت أفهم الفرنسية بمساعدة النظارات .

— انى أرشح لترجمة رسالتك الشخص الوحيد الذى أعرف أنه يفهم الموضوع كما يفهم كلتا اللغتين ، وهذا عندى هو شرط المترجم والا تعذر عليه اتقان الترجمة ، وهو الآن مشغول بعمل لا يمكنه من الاشتغال بترجمة الرسالة ، وسيفرغ منه قريبا .

— أشكر لك تعليقاتك وأود لو أحصل على غيرها من الكراسـات المطبوعة .

— واننا على الدوام مرحبون بالأطفال فى أى وقت تشاء أن ترسلهم الينا . وكل ما ألاحظه أن لندن تستوعب عددا كبيرا من أبناء الريف ، فمن الحق أن يتسع الريف لمن يعرضهم من أولئك الأطفال ، وهذا مع كثرة الذين ينزلون عن حريتهم الانسانية ليعملوا حينا عمل الخدم أو يعملوا طوال العمر عمل الجند — برهان فى نظرى على ازدحام جزيرتكم ... ومع هذا نراها تخاف من المهاجرة ..

وداعا أيها الصديق العزيز ، واننى على الدوام صديقك المخلص ..

وكتب اليه صهره ريتشارد باخ يقول أن آرثر لى ورالف ازارد من أهل بنسلفانيا المقيمين فى باريس يسوءون سمعته ويشهرون به لأنه اتخذ « تمبل » حفيده سكرتيرا له مع أن أباه كان مواليا لبريطانيا العظمى ، فأجابه فرنكلين بهذا الخطاب :

باسى — فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٧٩

اننى مستريح البال من ناحية تلك المساعى التى يقوم بها (ل) و (ر) للاضرار بى فى العدوة الأخرى من المحيط ، ومطمئن الى عدالة المؤتمر — الكونجرس — وأنه لن يصغى الى تهمة توجه الىّ دون أن أعلم بها قبل ذلك ويتسع لى الوقت للاجابة عنها ، واننى لأعلم أن ذينك السيدين ينطويان لى على أسوأ النيات وان لم أسىء الى أحد منهما أو أمسه بما يسوغ له أن يشعر بالمساءة . غير أن السمعة الكبيرة التى تحيط بى والمحبة التى ألقاها من القوم هنا والتوقير الذى يقابلوننى به ، بل التحيات التى يخصوننى بها تحزن ذينك السيدين التعسين : التعسين حقا بما اشتملت عليه طواياهما من الظلام والحقد والغيرة والشبهة والحسد والضغينة . وان النفس الطيبة ليكفيها ما تجده من الحزن لمصائب الآخرين . أما الذين يزعجهم كل حظ طيب يتملاه غيرهم فلن يسعدوا قط ولن يستريح لهم بال ، وليس بى من حاجة الى الانتقام من أمثال هؤلاء الأعداء غير أن أتركهم حيث أوقعتهم طبائعهم الناقمة مجتهدا أن أحافظ على الخصال التى تجعلنى أهلا للرعاية والتقدير ، وكلما دامت لى السمعة التى يحيطنى بها الناس أدمتهم فى تلك اللعنة التى يتمرغون بها ، ولا يخطر لى أن أغير من خصالى كى أخفف عنهم بعض ما يعانون .

ويدهشنى أن أسمع أن وجود حفيدى تمبل فرنكلين معى يستوجب النقمة منى والسعى فى اقصائه عنى ، وأحسب بحق أننى أحسنت بحمايتى

هذا الفتى أن يصبح من زمرة المحافظين الانجليز وابقائه الى جانبى فى زمرة خدام الجمهورية الأحرار ، وأرى من مبادئه الحرة واستقامة خلقه ودأبه على العمل وفطنته المبكرة وكفايته النادرة أنه وشيك أن يكون عظيم النفع لوطنه ، وكفى أننى فقدت ولدى فهل يريدون فوق ذلك أن أفقد حفيدى ؟ اننى شيخ فى السبعين عمدت الى رحلة شتوية باذن الكنجرس وليس معى من يتولى العناية بى سواه ، ولا أزال هنا فى بلد أجنبى يكلأنى برعايته البنوية اذا مرضت ويغمض عينى ويحرس ما عندى من بقية تراث اذا حم الأجل .

ان أدبه فى معاملتى ونشاطه ودأبه فى عمله يرضينى ويفيدنى ، وسلوكه فى عمل الأمانة على السر — السكرتارية — لا غبار عليه ، واننى لواثق أن الكنجرس لا يفكر فى الفصل بينه وبينى .

واننى كذلك لعظيم الغبطة بولدنا « بن » (١) وأراه خليقا أن يصبح رجلا ذا شأن . وقد انتفع من المدرسة الداخلية التى هو فيها جهد ما ينتفع بالتعليم فى تلك المدرسة ، وقد فكرت فى المدرسة التى تفضلها بعد هذه الخطوة فاستقر عزمى على ادخاله مدرسة أعلى منها بمـدينة جنيف ، والفرصة حسنة لأننى أعرف سيدا من أهل المدينة له ولد فى مثل سنه يتعلم فى تلك المدرسة بعينها ، وقد وعدنى أن يتكفل برعايته وتبادلت معه فى هذا الصدد رسائل أبعث بها اليكم مع هذا الخطاب ، وقد سافر «بن» فرحا وفهمت أنه سعيد جدا بهذه النقلة الى المدرسة الجديدة . ولقـد أوحشنى غيابه عنى أيام الآحاد وفى نيتى اذا عشت أن أذهب الى سويسرة فى الربيع القادم لأراه وأرى فى الوقت نفسه تلك الولايات الثلاث عشرة العجوز فى البلاد السويسرية .

والحمدلله اننى ماض على صحة ورضا ، واننى أكبر وأشيخ ، ولكننى فيما أظن لم يصبنى تغيير كبير فى السنوات العشر الأخيرة ، ويعـاودنى

---

(١) ابن ريتشارد باخ صاحب الخطاب .

النقرس من حين الى حين ولكنهم يقولون انه الى العلاج أقرب منه الى انحراف المزاج ، والله يباركم ويتولاكم ..

جواب على تحذير

وحذره هارتلى من أعدائه وأوصاه باتقاء الخطر على حياته ، فكتب اليه فرنكلين كما جاء فى خطاب نشره حفيده يقول فيه :

« شكرا لك على تحذيرك . غير أننى قاربت النهاية من عمر طويل ولست أبالى كثيرا بما بقى منها ، وانما هى عندى كالفضلة من الثوب يقول البائع للشارى الذى يلح فى المساومة عليها : خذها كما تريد أو بالثمن الذى تريده ولا خلاف بينى وبينك عليها فما هى الا بقية ! وربما كان أنفع شيء يصنع بالشيخ الذى بلغ هذه المرحلة من العمر أن يحشر فى زمرة الشهداء .

بيـان عن خدمات وطنية

وكتب الرسالة التالية الى شارل تومسون سكرتير الكنجرس على أثر اشاعة بلغته عن أناس يزعمون أن الحكومة وضعت بين يديه أموالا كثيرة قد تأخر حســابها ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك ، اذ كان الكنجرس يرجيء حسابه ولا يعطيه ما استحقه بخدماته ، ويسأل فرنكلين صديقه عن الوسيلة المثلى لانجاز المحاسبة وتوفية تلك الحقوق :

فلادلفيا فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٨٨

صديقى العزيز القديم

أرسل مع هذا خطابا الى رئيس الكنجرس فى الوقت الحاضر أرجو أن تراجعه وتبلغنى ما تراه اذا عَنّ لك فيه ما يدعو الى الملاحظة أو التنقيح ، واننى أعتمد كثيرا على نصيحتك الأخوية لأنك تعلم ما لست أعلمه عن الأشخاص والأحوال ، وأظن أن فى الوقت متسعا قبل تأليف

الكنجرس الجديد للتنقيح الذى تشير به ، على أن يكون تقديم الخطاب — اذا قدم — الى الرئيس القديم .

وستجد فى خطابى الى مستر باركلى اشارة الى « أعمال هامة لم أثبتها فى حساب الكنجرس وأرجو من انصافه أن يكون لها اعتبار فى التقدير» . ولكى تكون على علم بهذه الأعمال أبعث اليك مع هذا الخطاب ببيان مجمل عن الخدمات التى قمت بها للولايات المتحدة ، ومنها أعمال نافلة لا تتصل بوظيفة السفارة ، كعمل القضاء فى البحرية ، وعمل القنصلية قبل وصول مستر باركلى ، وعمل الصرف لمراجعة قوائم المصارفة وسفاتجها ، وعمل السكرتارية عدة سنوات ، وسائر هذه الأعمال التى لم أتناول شيئا عنها وكانت لها مكافآت ترسل الى السفراء الآخرين .

وأصارحك اننى آمل — كما جرت العادة فى القارة الأوربية — أن يمنح السفير بعد اعتزاله منحة يستعين بها على اصلاح شئونه الخاصة التى لا شك أنها تصاب بالضرر أثناء غيابه وانقطاعه عن مباشرتها فى وطنه ، ورجائى أن يتفضل الكنجرس بمنحى قطعة من الأرض فى أقاليم الغرب يستفاد بها وتبقى لذريتى شرفا وذكرى ، ولا أخال الا أن الكنجرس صانع" شيئا من هذا القبيل عند النظر فى خدماتى وأعمالى كما أرى من تقديرهم السخى لخدمات مستر لى فى انجلترا قبل ذهابه الى فرنسا ، وهى خدمات وأعمال كان لى ولمستر بولان Bollan معاونة فيها ولم نحصل على مثل هذه المكافأة عنها . وقد كوفىء مستر لى بعد عودته بمنصب حسن كما كوفىء صديق مستر جاى Jay ، وان تكن هذه المكافأة زهيدة بالقياس الى انعام الملك على مسيو جيرار Gerard عند عودته من الديار الأمريكية .

أما فى أمرى أنا بعد عودتى فما أبعد الاختلاف !

رجعت من انجلترا سنة ١٧٧٥ فتفضل الكنجرس على بوظيفة مدير مصلحة البريد مشكورا على فضله ، وهى وظيفة أحسب أن لى بعض

الحق فيها منذ توليتها تحت التاج فأصلحت نظامها وضاعفت مواردها ، وتركتها لصهرى بعد سفرى الى فرنسا يقوم فيها بوظيفة الوكيل ، ولم يمض غير قليل بعد سفرى حتى حولت هذه الوظيفة الى مستر هازارد . وقد عن للادارة الانجليزية قبل ذلك أن تحرمنى هذه الوظيفة فحفظت لى الحق فى اعفاء رسائلى الصادرة والواردة من الأجر كما جرى العرف فى معاملة المديرين الذين يعتزلون الوظيفة لسبب لا يمس كرامتهم . أما فى أمريكا فان هذا الأجر قد طلب منى وبلغ نحو خمسين جنيها ، لكثرة الرسائل التى ترد الىّ على اعتبارى مديرا سابقا لمصلحة البريد .

ولما أخذت معى حفيدى تمبل الى فرنسا رأيت — بعد تعليمه الفرنسية — أن أخرجه فى دراسة القانون والاشتغال بعمله ، ثم استبقيته لعمل السكرتارية بعد أن وعدت بهذه الوظيفة وتكررت تجربتى للسكرتيرين وتكررت خيبة الأمل فيهم ، ولم تزل تتكرر بعد عودتى الى أمريكا ، حتى فات الوقت الذى يشتغل فيه بالدراسة المطلوبة وانتظمت حياته على غير نظامها ، فلما رأيت أنه — لطول مرانته فى الأعمال الدبلوماسية — جدير بوظائفها ، وهو رأى يشاركنى فيه ثلاثة من الزملاء ندبوه بغير طلب منى للعمل معهم خلال المفاوضات فى شئون المعاهدات ، رشحته فى خطاب الى الكنجرس لوظيفة السكرتارية فكان الرد الوحيد الذى تلقيته على هذا الرجاء الوحيد الذى تقدمت به أمرا بوقف التعيين وانتداب الكولنل همفرى سكرتيرا فى مكانه ، وهو سيد قد يكون له العلم بالشئون الحربية كما هو الواقع ولكنه لم يختبر العمل فى الشئون السياسية ولا يعرف الفرنسية ولا عهد له بالمسلك اللازم فى هذه المهمة .

واننى أفضى بهذا كله اليك — شخصيا — افضاء صديق الى صديق لأننى لم أتعود الشكاية العامة ولا أريد أن ألجأ اليها بعد الآن .

واننى لو استطعت أن أعلم — مقدما — أن الكنجرس سيعاملنى هذه المعاملة التى لا مجاملة فيها ويستكثر علىّ توجيه الشكر الىّ — لم يكن من شأن هذا أن يوهن من عزمى أو من غيرتى فى خدمته وتأييده ،

وقد أعرف بعض الشيء عن أطوار هذه الهيئات التي تتغير حينا بعد حين ويأتي فيها خلف لا يعلم ما قد علمه السلف من خدمات أسديت الى الهيئة ولا يشعر بواجب الجزاء عليها ، مع بعد القائمين بالخدمة فى بلاد أجنبية وامعان واحد أو اثنين من الحاقدين وذوى النية السيئة فى الدس والتأثير على عقول الأعضاء الآخرين ، وان كانوا من أهل الاخلاص والانصاف والمروءة . ولهذا أوثر أن أطوى هذه الخواطر فى أطواء النسيان والكتمان .

وانى لألتمس المعذرة منك — يا صديقى — لما جشمتك من متاعب هذا الخطاب ، واذا حاق بك يوما ما يقال عن نسيان بعض الجمهوريات للعاملين فى خدمتها فاذكر على الدوام أن لك صديقا قديما تكشف له عن ذات صدرك فى شخص الخادم المطيع المتواضع .

فرنكلين

وبعد هذا التمهيد تلخيص لخدمات فرنكلين كما أجملها فى ملحق خطابه لتذكير صديقه ، وهى كما يلى :

— فى انجلترا قاوم قانون الدمغة وكتابته فى الصحف ومناقشاته فى البرلمان من الأسباب التى يظن أنها انتهت بالغاء ذلك القانون .

— عارض قانون المكوس ، ولم يتمكن من وقف تنفيذه ولكنه أقنع مستر تونزند بحذف مواد كثيرة منه ، ومنها الملح بصفة خاصة .

— وكتب فيما بعد ذلك رسائل شتى يفند بها دعوى البرلمان أنه يملك حق تقرير الضرائب فى المستعمرات .

— عارض جميع القوانين الجائرة .

— قام بمفاوضتين سريتين مع الوزراء لالغاء تلك القوانين وشرح ذلك فى محضر مكتوب ، وقدم فى سياق واقترح — على تبعته ومع المخاطرة بالنتيجة — عوضا عن الشاى الذى تلف فى حالة نفاذ الالغاء .

— اشترك مع مستر بولان ومستر لى فى جميع الطلبات التى قدمت الى الحكومة لهذا الغرض ، وطبع عدة نشرات على نفقته ينتقد بها اجراءات الحكومة ، واستهدف بذلك للسخط والنفور والاتهام أمام المجلس الخاص ، وعزل من وظيفة يتقاضى منها ثلثمائة جنيه فى السنة ، وهى وظيفة مدير البريد ، واضطر الى الاستقالة من جميع أعمال التوكيلات ومكافآتها ، وهذا بيانها :

جنيه

٥٠٠ من بنسلفانيا

٤٠٠ من مساشوست

١٠٠ من نيوجرسى

٢٠٠ من جورجيا

وصدرت الأوامر الى الولاة الملكيين أن يكفوا عن توقيع كل ترخيص بالصرف لحساب مرتباته من خزانة الدولة ، ولم تكن الولايات قد عزلته من توكيلها ، ولكنه — مع العلم بضغينة الحكومة الانجليزية عليه — تعذر عليه أن يخدم الولايات وييسر مصالحها لدى تلك الحكومة ، وأحس أن الواجب يقضى عليه باعتزال التوكيلات فاعتزلها ليفسح مجال العمل فيها لمن هم أقرب الى القبول عند الحكومة الانجليزية ، ويحمى نفسه أن يلجئها الى عزله .

ولما قفل الى أمريكا حض على الثورة وعين رئيسا لجماعة « سلامة الوطن » ونظم وسائل الاستيلاء على فيلادلفيا ومقر الكنجرس .

— أرسله الكنجرس الى مركز القيادة العام على مقربة من بوستون مع السيدين هاريسون ولينش سنة ١٧٧٥ لتسوية بعض المسائل مع الحكومات الشمالية والجنرال واشنطون .

— فى سنة ١٧٧٦ أرسل الى كندا مع السيدين شاس Chase وكارول عابرا البحيرات قبل ذوبان الثلج ، فعمل مع زميليه فى كندا على ازالة

بعض الشكايات مما كان له أثر فى ضم الشعب الى قضيتنا ، وقدم هناك الى الجنرال أرنولد وبعض خدام الكنجرس مبلغ ثلثمائة وثلاثة وخمسين جنيها ذهبا من ماله على ذمة الكنجرس كانوا فى أمس الحاجة اليها وكان لها نفع كبير فى تلك الآونة فى الحصول على الأزواد لجيشنا .

وقد كان حين تكليفه بهذه المهمة يجاوز السبعين. فشقت عليه مصاعب الرحلة، اذ كان يتنقل بين الغابات فى ذلك الفصل القاسى من فصول السنة ولم يكد يبل من مرضه حتى أمره الكنجرس بالسفر الى فرنسا ، فسلمهم قبل سفره كل ما استطاع جمعه من المال بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه ، وكان ذلك مشجعا لغيره على اعارة أموالهم لخدمة القضية العامة .

ولم يساوم على المكافآت ولكنه وعد — باقتراع الأصوات — بمبلغ خمسمائة جنيه مساناة مع نفقاته ومبلغ ألف جنيه لوظيفة السكرتارية ومصروفاتها .

ولما أرسلته الهيئة النيابية فى بسلفانيا الى انجلترا سنة ١٧٦٤ بمثل هذه المكافأة سمحوا له بمكافأة سنة مقدما لتكاليف السفر وتعويض الخسائر التى لحقته من جراء الانقطاع فجأة عن مباشرة مرافقه الخاصة ولم يمنحه الكنجرس مثل هذه المنحة بل أنزله فى سفينة رثة لا تصلح للملاحة فى البحار الشمالية ، وحدث فعلا أنها جنحت عند عودتها ، مع سوء تدبير الطعام له على متنها حتى بلغ الشاطىء وهو يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وان خدماته للدولة وكيلا ثم وزيرا مفوضا لمعروفة للكنجرس كما هى معروفة من رسائله ، وربما كانت خدماته الاضافية مجهولة فلا داعية الى ذكرها .

ثم مضى فى عمله ولم يعين له السكرتير الموعود . وقام ببعض الأعمال قبل انفصال زملائه ثم قام بها جميعا بعد انفراده بمعونة حفيده الذى سمح له أولا بمقابل للكساء والسفر والسكن ثم بمرتب لم يرـ قط

على ثلثمائة جنيه فى السنة (الا حين عمل فى السكرتارية للجنة الصلح) وهو فرق فى المرتب على مدى سنوات مقداره سبعمائة جنيه كل عام .

— وعمل وحده بوظيفة القنصل عدة سنوات الى حين وصول مستر باركلى وبعد وصوله فترات من الوقت لاضطرار ذلك السيد الى التغيب فى هولندة وبلاد الفلاندر وانجلترا ، وحدثت خلال ذلك محاولات متتابعة لاختلاس دفعة ثانية وثالثة بعد سداد الدفعة الأولى ، وكانت قوائم الحساب عن هذه الدفعات ترد مع كل سفينة وكل بريد وتستوجب الرقابة المتوالية . ولم يستطع مستر فرنكلين أن يسافر للرياضة والراحة كعادته قبل ذلك مما عرضه للاصابة بمرض قد لازمه بقية حياته .

ونوجز البيان فنقول انه على دأبه وصبره طوال حياته لم ترهقه الأعمال كما أرهقته خلال السنوات الثمان التى قضاها فى فرنسا ولم يعتزلها مع ذلك حتى شهد بشائر الصلح وتمت هذه البشائر بخير . ثم ألفى نفسه فى الثمانين من عمره وهى السن التى تخول من يبلغها بعض الحق فى الراحة والاستقرار .

الطيران والحروب

وقد شهد فرنكلين تجارب الطيران الأولى حول باريس وسمع المتفرجين وهم يرقبون المنطاد كأنه لعبة من لعب الفراغ ويتساءلون : وما فائدة هذا ؟ وبأى شيء تنفعنا هذه النفاخات الكبيرة ؟ فكان من جوابه لهم أن يسألهم : وما فائدة طفل وليد ؟ وفى هذا السؤال كل الجواب على الذين لا يعرفون الصبر على المخترعات حتى تنمو وتؤتى ثمرتها ، ولكنهم يعرفون أننا نربى الطفل الوليد الذى لا نفع له فينفع نفسه وينفع غيره اذا أحسنا القيام على تربيته ، ومما كتبه فرنكلين على أثر مشاهداته الأولى لتجارب الطيران خطاب الى صديقه العالم الهولندى جان انجنهوز Ingenhousz الذى كان يصاحبه فى رحلاته العلمية بشمال انجلترا نظر فيه نظرة بعيدة الى مستقبل الطيران فى الحروب قبل أن

تستخدم المناطيد والطائرات فى ميادين القتال بأكثر من مائة وثلاثين سنة فقال فى خطابه من باسى بتاريخ السادس عشر من يناير سنة ١٧٨٤ :

« .. ليس فى المسألة سر . ولست أشك أنك اذا أرسلت رسولا من قبلك أمكنه أن يشاهد مناطيد منتجلفير وشارل المختلفة ويطلع على جميع التعليمات المطلوبة ، واذا أردت أنت أن تصنع منطادا فمن الضرورى ومن الأوفق فى رأيى ، أن تبعث من عندك برسول ذكى لهذا الغرض ، اذ يخشى ألا يلتفت الى بعض الملاحظات أو يسهو عن العلم بها فتحبط التجربة ويؤدى حبوطها فى هذه المسألة التى يكثر حولها الترقب والاستطلاع الى تعريضك للملامة الشديدة والمساس بسمعتك . فانه لمن الضرر الوخيم تجميع الناس فى المدن الكبيرة وضواحيها ثم مصادمتهم بالخيبة والغضب . وقد حدث فى بوردو أخيرا أن شخصا زعم أنه صنع منطادا يصعده فى الهواء وأخذ نقودا من أناس كثيرين ولم يستطع أن يرفع المنطاد فهاجت عليه هائجة الناس وعمدوا الى بيته فهدموه وهموا به ليقتلوه .

وظاهر — كما رأيت — أنه اختراع هام يوشك أن يتجه بالشئون الانسانية وجهة جديدة ، وقد يكون من آثاره أن يقنع ذوى السلطان بخطل الاقدام على الحروب لما فى حماية بلادهم من المصاعب — بعد هذا الاختراع — على أقدرهم وأقواهم ، ولعل خمسة آلاف منطاد يحمل كل منها جنديين لا تبلغ تكاليفها ثمن سفن خمس من سفن القتال ، وأين هو الأمير الذى يتسنى له أن يملأ أرضه بالجند فى كل مكان حتى يعجز عشرة آلاف جندى هابطين من السحاب عن اصابته بأخطر النكبات قبل أن يتمكن من حشد القوة اللازمة لصدهم والتغلب عليهم ؟

ومما يحزن أن تحول العصبية القومية — كما بدا لك — دون قيام الانجليز بالتجربة ، فانهم على براعتهم فى فنون الصناعة قمناء أن يسبقوا غيرهم الى اتقان هذا المخترع والانتفاع بكل ما يعود به من الفائدة .

ان منطاد شارل وروبرت كان ممتلئا حقا بالهواء الساخن ، ولوفرة المقدار اللازم كان العمل فى ملئه متعبا عظيم النفقة يحتاج الى يومين أو ثلاثة ليلا ونهارا لانجازه . وللمنطاد صمام عند أعلاه يفك بشد الحبل الذى يربطه كلما أريد اطلاق جزء من الهواء استعدادا للنزول ، والراكبان يقذفان بجزء من الرمل الذى يوازن الهواء اذا أراد الصعود بعد ذلك ، ولابد أن يكون مقدار كبير من الهواء قد انطلق من المنطاد لموازنة أحد الراكبين ساعة نزوله ، ولخفة المنطاد بعد نزوله تكفى البقية فيه لحمل زميله ، وهما لا يحملان فى المنطاد نارا كما يفعل مسيو منتجلفير فى منطاده الذى يفتح من أسفله ويوقد فيه التبن لاستبقاء ناره . وهذا الطراز من المناطيد أسرع امتلاء وأقل نفقة ، ولكنه يستلزم مضاعفة الحجم لرفع الثقل نفسه ، اذ كان الهواء المشعشع بالحرارة لا يقل ثقله عن نصف ثقل الهواء الجوى ، على حين أن الهواء الساخن يقل عن ثقله عشر مرات ، وقد كشف مسيو مورفو الكيمى الشهير بمدينة ديجون هواء ساخنا لا تزيد كلفته عن جزء من خمسة وعشرين جزءا من كلفة الهواء الساخن الذى يحدث من صب الزيت أو الزاج على برادة الحديد ، ويقال انه مستخرج من فحم البحر ولم يذكر وزنه بالنسبة الى غيره [1]..

ثمن الصفارة

وهذه رسالة من رسائله الى السيدة بريون ضمنها حكاية من الحكايات « المثلية » أو الحكايات التى تستوحى من مغزاها بعض المعانى الأخلاقية أو الاجتماعية ، وكانت شائعة فى ذلك العصر يؤلفها الكتاب وغير الكتاب لتزجية الفراغ بما يشبه امتحان الذهن بالأحاجى السهلة والألغاز الخفيفة ، وتتلى هذه الرسائل عادة فى السهرات والاجتماعات كأنها مادة من مواد السمر والفكاهة ، وقد كتب فرنكلين

(١) هذه الرسالة والرسائل الأربع التى تقدمتها مترجمة من النصوص التى اشتملت عليها مجموعة الكتابات الترجمية لجامعها ڤان دورن .

هذه الرسالة الى صديقته جوابا على رسالة منها تصف فيها نعيم الفردوس كما تتخيله ، فقال بعد أسطر فى التمهيد والاعتذار من تأخير الجواب :

« .. أعجبنى وصفك لجنة الفردوس وبرنامجك الذى درسته للمعيشة فيها . وأقرك كثيرا على ما ختمت به الوصف حيث تقولين اننا — فى الوقت نفسه — ينبغى أن نستخلص فى هذه الدنيا كل ما نستطيع من خير ونعمة . وأرى أننا جميعا قادرون على أن نستخلص منها فوق ما ننال من خيرها ونعانى أقل مما نعانيه من شرها لو جعلنا بالنا الى شىء واحد : وهو ألا نشترى الصفافير بأكثر من أثمانها .

.. وتسألينني ماذا أعنى ؟ وأنت تحبين الحكايات .. فاسمحى لى أن أقص عليك احدى حكاياتى حين كنت فى السابعة من عمرى ، فقد حدث فى بعض أيام الأعياد أن امتلأ جيبى بأنصاف البنسات من هبات أصدقائى فذهبت توا الى دكان اللعب واشتريت منه صفارة سمعت بعض الأطفال فى الطريق يصفر بها ، فأعجبتنى وبذلت فى ثمنها كل ما احتواه جيبى .

ورجعت الى المنزل فطفقت بين جوانبه نافخا فى صفارتى راضيا عن نفسى مزعجا كل من فيه من اخوانى وأخواتى وأبناء عمى ، فلما سألونى عن هذه الصفقة وأخبرتهم بها قيل لى اننى بذلت فى الصفارة أربعة أضعاف ثمنها ، وذكرونى بالطيبات التى كنت قمينا آن أنعم بها لو لم أبذل فيها فوق ما تستحقه وضحكوا من حماقتى وغفلتى وأكثروا من الضحك حتى بكيت غما وأسفا وساءنى من التفكير فى الخسارة أضعاف ما سرنى من الصفارة .

ونفعتنى العبرة فلم تبرح ذاكرتى بعد ذلك ، ولم أزل كلما أغريت بشراء شىء لا حاجة بى اليه أعود فأقول لنفسى : لا تبذل فى الصفارة فوق ما تساويه ، وادخرت نقودى !

ثم كبرت واختبرت الدنيا وراقبت أحوال الناس فلقيت الكثيرين ممن يشترون الصفارة بأضعاف ثمنها ، وأصبحت كلما رأيت انسانا يطمع

فى الحظوة لدى البلاط فيبدد وقته فى التردد على الحشم والحاشية ويفقد راحته وحريته وفضائل نفسه وربما فقد أصدقاءه فى هذا السبيل — أعود فأقول : هذا الانسان يغالى بقيمة الصفارة ويبذل فيها أضعاف ما تساويه .

وكلما رأيت انسانا مشغوفا بالشهرة يزج بنفسه فى مشاكل السياسة ويغفل عن مصالحه فيجر على نفسه الخراب بهذه الغفلة — أعود كذلك فأقول : وهذا انسان آخر يشترى الصفارة بأضعاف ثمنها .

وكلما عرفت بخيلا يحرم نفسه أطايب العيش وغبطة الاحسان الى الناس ومنزلة التقدير والرعاية بين قومه ومتعة المودة والصداقة بينه وبين خاصته — أعود فأقول لنفسى : يالك من مسكين ! انك أيضا تشترى الصفارة بأضعاف ما تساويه .

وكلما التقيت بانسان من طلاب الشهوات والمسرات يذهل عن تهذيب نفسه وعقله ، أو عن تدبير ماله من أجل متعة جسدية تستغويه وتجور على جسده — أناديه فى ضميرى : أيها المخدوع ! انك تجنى الألم من حيث تنشد اللذة وتعطى الصفارة ثمنا لا تستحقه ... !

وقد أرى انسانا مفتونا بالمظهر والزينة مأخوذا بغواية البيت الأنيق والأثاث الأنيق والعتاد الأنيق مما لا يطيقه ولا تحتمله ثروته وقد يوقعه فى الدين ويسوقه الى السجن ، فأقول : واآسفا . انها الصفارة يشتريها أيضا بهذا الثمن الثقيل .

وقد أرى الفتاة الحلوة الجميلة تتزوج من الرجل السيىء القبيح فأقول . يا لها من شقوة وخيبة . انها تعطى الصفارة أضعاف ما تأخذ منها .

وجملة القول ان معظم الشقاء الذى يبتلى به بنو الانسان انما يجنيه عليهم ذلك التقدير الباطل لقيم الأشياء ، وذلك البذل المضاعف فى ثمن الصفارة .

على أننى أرفق بهؤلاء البائسين فلا تنسينى هذه الحكمة التى أتشدق بها أن فى هذه الدنيا كثيرا من المغريات ، ومنها تفاحات الملك حنا التى لا تباع لحسن الحظ . ولو أنها كانت مما يباع بالمزايدة لخشيت أن أجر على نفسى الخراب لأشتريها وأعود فأبذل فى الصفارة قيمة لا تساويها [1].

رسائل شخصية

وهذه رسائل متفرقة فى موضوعات عائلية أو عامة كتبها الى أقربائه وصفوة أصدقائه ، ومنها هذه الرسالة الى أخته تعزية لها فى موت أخيه :

فيلادلفيا فى ١٢ فبراير سنة ١٧٥٦ .

أختى العزيزة

أشاطرك الحزن فى مصابنا بموت أخينا العزيز . وليكن بيننا مزيد من الحب كلما أصبنا بنقص فى العدد .

وقد عدت الآن من بعثتى العسكرية ووقتى مشغول بأعمال الهيئة النيابية ، وكأنما العناية الالهية تطالبنى بصنوف شتى من الواجبات ، فلا أعلم الآن ما سيأتى بعد ، ولكنى أجد أن شواغلى تزداد كلما بحثت عن الفراغ وتطلعت الى الاعتزال .

وانى أفهم ان « بينى » يميل الى ترك « اتنيجوا » . وربما كان على حق ، ولا مانع عندى .

محبتى للأخ وللأطفال ، واننى يا أختاه العزيزة .

. . . .

وكتب اليها هذه الرسالة تعزيه فى موت ابنتها ساره :

---

(١) هذه الرسالة مأخوذة من كتاب الخزعبلات ، وفى هامشها يقول جامع الكتاب ان التفاحات فى الحقيقة كمثريات مسمومة أهداها قس الى الملك حنا صاحب (الماجناكارتا) لأنه علم أنه يهم باغتصاب راهبة مصونة.

فيلادلفيا فى ١٠ يوليو سنة ١٧٦٤ .

أختى العزيزة

نحن جميعا نشاطرك الحزن فى موت كريمتك . وقد كنت أراها دائما على خلق عذب محبوب وشمائل طيبة تضاعف الحزن عليها فى نفس الأخ ونفسك فوق ما تحتملان ، وكل ما نملكه من العزاء فى مثل هذا المصاب أن نؤمن بأن الله يعلم ما هو أصلح وأجدر ويقدر على صنع الخير مما يبدو لنا أنه شر . وانها لسعيدة تلك السعادة التى لا يشعر بها أحد منا وهو بقيد الحياة .

وكتب اليها فى مسألة من مسائل العقيدة تعنيها بعد الاطلاع على بعض الكتب التى أرسلها اليها من البلاد الانجليزية :

لندن فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٧١

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ فى العاشر من شـــهر مايو . . . ويلوح لى انك تحسين احساسا شديدا بخطئك فى التعجل باتهامى حتى ليحق لى أن أقول انه الآن دورى فى الأسف لملاحظة ذلك الخطأ ، فقد تعادلت الحسبة اذن فلندعها ولا نعد الى التفكير فيها .

ويخيل اليَّ أننى ذكرت ثمن الكتب فى رسالة سابقة ونسيتها الآن ولكننى أظن أن ثمنها ثلاثة شلنات لكل كتاب .

ولا ريب أن هناك اختلافا فى أمر وجودنا قبل هذا الوجود ، وأحسب أن هذه الفكرة قد صدرت عن حسن نية ، لتبرئة حكمة الله من تعاسة الخلق فى هذه الدنيا بغير جريرة لحقت بهم فى دنيا قبلها ، وربما كان هذا من الفضول بغير داع لتأييد قصة السفينة .. واذا كان الإله قد شاء أن يلقى عليها سترا فقد يكون الاجتراء على كشف ذلك الستر من قبيل التطفل واللجاجة ، ولعل نجاحنا فى هذه المحاولة لا يربى على نجاح أبوينا فى محاولة المعرفة الممنوعة يوم أكلا من الشجرة .

ولست أعنى بقولى ان بنى آدم بعضهم شياطين لبعض الا أنهم —

لارتقائهم على غيرهم من الخلق — لا يعذبهم الخلق الآخرون كما يعذبون أنفسهم.ومن جانبى أنا أرانى أتقبل الدنيا على علاتها وأرى أن أشك فى حكمتى كلما فكرت فى وجوه صلاحها واصلاحها ، وانى لأبصر من الحكمة فيما أدرك من خلق الدنيا ونظام تدبيرها ما يلهمنى أن هناك حكمة تعادلها فيما لست أدركه وأتقصاه . ومن ثم لا تكون الثقة التى عندى بالله دون الثقة التى عند سائر المسيحيين الأبرار .

ويسعدنى أن التفاهم الحسن مستمر بينكم وبين آل فيلادلفيا ، وقد كان أبونا حكيما جد حكيم ، وكان من عادته أن يقول انه لا شىء أكثر من ظهور أسباب النفور بين المتحابين على البعد اذا اقتربت بهم الديار... ولهذا لم يكن ليستحسن زيارات الآل فى الأماكن البعيدة ، لأنها تطول ولا يمكن أن تقصر الى الحد الذى يتركهم على المودة والوئام حين يفترقون . وقد لمست برهانا على ذلك — العلاقة بين أبى وأخيه بنيامين ، فقد كنت يومئذ طفلا ولكننى كنت أحس الفرق بين عبارات المودة فى رسائلهما قبل اللقاء وبين المناقشات والمجادلات التى تنشب بينهما اذ يقيمان فى مسكن واحد . غير أنك أنت أدنى الى الصواب فيما تختارينه من التوفيق آنة بعد أخرى لاسداء النصيحة من بعيد فى شئون الآخرين ومرافقهم ، وكله خير ما دام يفضى الى خير .

وأذكر انك أشرت فى احدى رسائلك الى النظارات ورغبتك فى ارسال بعضها اليك ، وليس لدى هذه الرسالة الآن فلهذا أبعث اليك بزوج من كل مقاس من الواحد الى الثلاثة عشر ، وستعرفين المقاس الذى يوافقك بامتحان زوج بعد زوج على كلتا عينيك فى النظر الى مطبوعة دقيقة ، واعزلى ما لا يوافقك لكيلا تعودى الى تجربته مرة أخرى ، وانك لتجدين النظارة التى توافقك بالتجربة والمقارنة على مهل ، وهو الأمر الذى لا يتيسر فى الدكاكين حيث يعجل الناس باختيار النظارات فترهق أبصارهم وتضرهم ، وأشير عليك بتجربة كل عين على حدة ، اذ قلما يوجد بين الناس من تتساوى لديهم العينان ، ويكاد كل ناظر

أن يعتمد على احدى عينيه فى القراءة والعمل لضعف فى عينه الأخرى ، أو لأنها أصلح للنظر البعيد . ولهذا تفيد النظارة المتساوية تلك العين المهملة ولا توافق العين المعول عليها ، ومتى عرفت ما يوافقك من النظارات فاحتفظى بالأقوى منها للمستقبل حين تحتاجين اليها مع الزمن ، وقدمى ما تستغنين عنه هدية للأصدقاء .

أما الخطأ الذى أومأ اليه فرنكلين فى مقدمة الخطاب السابق فقد يظهر من خطابيه التاليين ، وأولهما بتـــاريخ الثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٠ .

قال : « سنحت لى الفرصة ، أثناء انتظار السفينة أكثر من وقتها المعهود — أن أكتب اليك بعد ما فاتنى ، على ما أظن ، أن أفعل حين رجوت ابن عمنا وليامز أن ينوب عنى فى الاعتذار اليك .

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر على يد السادة الفتيان الذين حببوا أنفسهم الىَّ والى كثير من معارفنا بمسلكهم الحميد . وقد حقق « جوشيا » أمنية قلبه بالتتلمذ على مستر ستانلى الذى استجاب رجائى بعد طول انقطاعه عن التدريس فقبل أن يعلمه بعض الدروس وسرَّ من سرعة فهمه وتقدمه ، ويبدو لى أن جوناثان فتى ذو قيمة رصين منتظم يميل الى العمل والتدبير ، وهى مخايل النجاح فى الأشغال ، وانى فى صحبتهم لجد سعيد .

أما الاشاعة التى ذكرتها — وأخبرنى جوشيا فحواها وهو أننى عزلت من وظيفة مدير البريد من أجل كتاب أرسلته الى فيلادلفيا — فربما كان أساسها أن بعض الرؤساء قد ساءهم كتابتى أمثال تلك الكتب ولاح عليهم انهم يريدون أن يعبروا عن استيائهم على ذلك المنوال ، ولكن أناسا من أصدقائى أشاروا برأى غير هذا الرأى على غير علم منى ، فاضطر خصومى الى القناعة بشتمى — عن سعة — فى الصحف واستثارتى بذلك الى الاستقالة . ولا أخالهم يفلحون فى هذه الاستثارة ، لأننى لا أملك

تلك الفضيلة المسيحية فضيلة التسليم [1] .. فمن أراد أن يحتل مكانى فليأخذه عنوة !

ولقد سمعت عن عظيـم من العظماء كان ديدنه فى أمر الوظائف ألا يطلبها وألا يرفضها ، وأضيف اليه كذلك ألا يستقيل منها ، وقد قلت لأصدقائى اننى ترقيت الى تلك الوظيفة على درجات من الوظائف التى هى دونها ، وكانت مواردها قبل ولايتى لا تأتى بمرتبها فأصبح المرتب بعد ولايتى لا يعطى الا اذا أتت به مواردها ، وكانت فى السنوات الأربع الأولى لا تقوم بتكاليفها حتى بلغ دينى ودين زملائى عليها تسعمائة وخمسين جنيها فاجتهدت اجتهادى حتى وصلت الى ما هى عليه الآن من الوفر والفائدة ، واعتقدت من ثم أننى صاحب نوع من الحق فيها ، وقد قمت حتى الآن بالأمانة والصدق على أعمالها مما أرضى عنى الرؤساء كل الرضا ، وهو غاية ما كان يطلب منى فى هذه الوظيفة . أما الكتب التى أنفذتها الى فلادلفيا فقد كتبتها فعلا قياما بواجب آخر وهو واجبى نحو وطنى ولا شأن له بعملى فى ادارة البريد ، وان مسلكى فى هذه المسألة لشبيه بمسلكى فى مسألة سابقة لها حين كان الرؤساء يهمون باحتضانى واعتناقى لمساعدتى اياهم فى الغـاء قانون خاص بالايراد ، ولا يزال شعورى اليوم كشعورى بالأمس فى أمر هذه القوانين التى لا يجوز أن تصدر هنا لتطبيقها فى أمريكا ، وانها اذا صدرت وجب السعى الى الغائها على الأثر ، ولست أعتقد أننى مطالب بتبديل شعورى كلما خطر لصاحب الجلالة هنا أن يغير وزراءه ووكلاءه ! وقد كانت هذه عبارتى التى فهت بها لهذه المناسبة ، ثم سمعت أنهم — وان حسبونى حقيقا باللوم وفهموا أن الموظف مطالب بمجاراة الوزير على رضاً منه أو على غير رضاً — قد عادوا فنظروا الى مسلكى الطيب وخلقى الشخصى كما تفضلوا فوصفوه ، وقرروا من ثم ألا تنتزع الوظيفة منى .

وجائز أنهم ينكصون عن رأيهم هذا ويعزلوننى ، ولكننى على ثقة

(١) هذه الكلمة بالانجليزية تفيد معنى الاستكانة والتسليم للمقادير .

أن شيئا من هذا لن يبدل من خطتى السياسية ، وخطتى التى اطمأننت اليها دائما هى ألا أحيد عن خطة فى الشئون العامة رعاية لشأن من الشئون الخاصة ، بل أمضى قدما فى عمل الصواب الذى أعتقده وأدع المصير بين يدى العناية الالهية . وقد كان مما يسَّر لى أن أستقيم على النهج فى صباى أننى كنت صاحب صناعة وكنت أعلم أننى أقنع بالقليل فى معيشتى ، ولم يكن من همى يومئذ أن أجمع ثروة كبيرة وأن أذهب مع الأطماع ، قانعا بما أكسبه من الكفاية من موارد عملى . والآن أخال أن الاحتفاظ بحريتى ونزاهتى أيسر على بعد ان بلغت النهاية من مراحل عمرى وقلَّت النفقة التى بقيت للبقية منها ، وأن ما أملكه الآن ببركة الله وحسن القصد فيه ليكفينى ، الا اذا وقع من الكوارث العظمى ما ليس فى حسابى ، فلا حاجة بى الى الزيادة عليه من موارد وظيفة أو ادارة .

أبعث اليك فى هذه الفرصة الكتابين اللذين كتبت عنهما ، وثمن كل منهما ثلاثة شلنات ، وقد كنت فى زيارتى السابقة للندن قبل خمس وأربعين سنة أعرف انسانة تفكر تفكير مؤلفك اسمها « اليف » أرملة أحد الطباعين ، وماتت على أثر سفرى من انجلترا فكان من وصيتها لولدها أن يلقى علانية فى قاعة صولتر خطابا يؤكد فيه أن هذه الدنيا هى الجحيم الحق مقر العذاب والعقاب للأرواح التى أذنبت فى حياة أفضل من الحياة فنفيت الى الأرض لتجزى على ذنوبها فى أسلاخ الحيوان على اختلاف أنواعه ، وانقضى زمن طويل منذ اطلعت على الخطاب المطبوع الذى كان يستشهد بالكثير من آيات الكتاب المقدس ، ومرماه أننا سنتذكر بعد الموت ما كنا عليه قبل الولادة وان كنا ننساه أيام المقام فى هذه الدنيا، واننا نذكر كذلك ما لقيناه من العقاب لنعتبر به ويعتبر به سوانا ممن لم يذنبوا مثلنا فلا يقعوا فى الخطيئة اعتبارا بما أصابنا .

والواقع أننا نرى هنا أن كل حيوان من الحيوانات الدنيا له عدوه الذى ركبت فيه الرغبات والغرائز والأسلحة التى تمكنه من تخويفه وجرحه والقضاء عليه . أما الانسان — وهو أرفعها جميعا — فبعضه

لبعض شيطان ، وتلك حال تستدعى فرضا كفرض السيدة اليف مع الايمان بكرم الله وعدله فى قضائه للتوفيق بين هذا الايمان وكرامة العزة الالهية . الا أن عقولنا لا تذهب بنا بعيدا حين نسومها أن تبحث عما كان قبل وجودنا أو ما سيكون بعد هذا الوجود لقلة التواريخ والوقائع التى بين أيدينا . وانما يعطينا الوحى معرفتنا الضرورية بهذا ويقصد غاية القصد على الخصوص فيما أعطانا من المعرفة عما كان قبل وجودنا .

— أرجو أن تتابعى الكتابة الى أصدقائك بفلادلفيا ، ومحبتى لأنجالك وعلى العهد .. أخوك المحب الودود .

وكتب اليها ينفى اشاعة عن تعيينه فى وظيفة انجليزية أثناء قيامه بالوكالة عن بعض الولايات الأمريكية :

لندن فى ٢٨ يوليه سنة ١٧٧٤

« .. ان الاشاعة التى أشرت اليها وقيل فيها اننى اقترحت أن أتخلى عن توكيلاتى وأنقطع عن وطنى انما هى أكذوبة خبيثة كما قلت فى خطابك وليست بالاشاعة الكاذبة وحسب بل هى سخيفة مضحكة . اذ هى تفترض على الأقل اننى لا أعرف من الحساب ماأفرق به بين ثلثمائة وألف! وانهم ليعاودون الاشاعة هنا حينا بعد حين زاعمين أننى ألتمس الوسائل للعودة الى وظائف الحكومة ، ولعلهم يتمنون ذلك وينتظرونه . فلينتظروا اذن الى يوم الدين .

ان الله لأعلم بسريرتى ، واننى لآسف أن أتقبل أحسن الوظائف التى ينعم بها الملك هنا ما دامت تلك الأفاعيل الجائرة تسلط على وطنى . وثقى أننى لن أصنع شيئا يمسنى فى نظرك أو ينقض المسلك الأمين الذى سلكته حتى الآن فى الأعمال العامة ، وقد احتفظت بوظيفتى السابقة حتى عزلت منها ولم أعتزلها لأننى لم أكن قد تلقيتها مكافأة من الحكومة بل ارتقيت اليها بحق الخدمة فيما دونها والأمانة فى تلك الخدمة ، فجاز لى أن أعتبر لى حقا فيها أو حقا عليها، ولم أشأ أن أيسر لهم الأمر بالاستقالة لكى

يبوء منهم من أراد أن يبوء بمسبة حرمانى منها ، وقد شرفونى باخراجى من تلك الوظيفة فليكن حذرى الآن ألا يحملونى المسبة باعادتى اليها .

وكل هذا أكتبه اليك أنت . أما الدنيا فربما خطر لها أن هــذه التصريحات والتوكيدات أمر لا يقبل التصديق ومحض ادعاء يدعيه المرء لتفخيم شأن نفسه . فلا تطلعى أيتها الأخت العزيزة أحدا على هذا ، فانما أكتبه اليك لمرضاتك واراحة ضميرك مما عسى أن يساوره من القلق لسماع تلك الاشاعات .

وكتب اليها بعد انتخابه رئيسا للجمعية فى فلادلفيا يعرب لها عن شعوره بالاجماع على انتخابه :

فلادلفيا فى ٤ نوفمبر سنة ١٧٨٧

وصل الىّ منك أخيرا كتاب كريم سرنى بما علمته من تمتعك بالصحة وأنك اتخذت العدة للشتاء كما أنبأتك . ومطالبك مستجابة محترمة ، وقد يتعذر على أحيانا أن أعرف ما تحتاجين اليه فأرجو ألا تحجمى أبدا عن اخبارى بكل ما فى وسعى أن أعمله لاسعادك فى حياتك .

لقد عزمت من قبل أن اعتزل العمل فى الهيئة النيابية سنة أخرى كى يتسع أمامى الوقت للسفر الى بوستون فى الربيع . الا أننى أذعن للاجماع الذى انعقدت عليه آراء بنى وطنى فأقرونى مرة أخرى على كرسى الرياسة ، وتمّ لى الآن أكثر من خمسين سنة فى الخدمة العامة .

لما أخبرت صديقك الطبيب دكتور كوبر أننى أمرت بالسفر الى فرنسا بعد أن بلغت السبعين ، وقلت له ان « الجمهور » قد أكل لحمى ويريد اليوم على ما يظهر أن يأكل عظمى — أجابنى قائلا : انه يحبذ منهم حسن الذوق . لأن أطيب اللحم ما جاور العظم كما جاء فى الأمثال ، ولابد لى أن أعترف لك بأننى مغتبط بذلك وأحسب أن أختى العزيزة حقيقة أن تسر باختيارى للمرة الثالثه بعد طول التجربة ، وان بنى قومى يتفقون باجماع الأصوات — ما عدا صوتى — على توجيه هذا التشريف الىّ ، وهو أكبر

ما يملكونه من تشريف . وان هذه الثقة العامة بغير قيد ولا حد من شعب كامل لأعز عندى وأرضى لكبريائى من أرفع ألقاب النبلاء . فان الأشرطة والحمائل التى يعلقونها حولهم قد تضفى على أصحابها شرف الألفاظ والأسماء ، ولكنها لن تمنحهم لباب الشرف الصميم [١] ..

---

(١) رسائل فرنكلين الى أخته مأخوذة كلها من مجموعة رسائل بنيامين فرنكلين وجين ميكوم Mecom طبع جامعة برنستون سنة ١٩٥٠ .

خرافات وحكايات ذات مغزى

نشأت الخرافات ، أو الحكايات الموضوعية ذات المغزى ، فى أوقات متقادمة قبل الميلاد بعدة قرون ، وعرفتها الأمم الشرقية والغربية بأنواعها المتعددة ، ومنها الحكايات التى توضع على ألسنة الحيوانات ، والحكايات التى توضع على ألسنة مخلوقات عاقلة كالمخلوقات الآدمية مع اختلاف الشكل والفطرة كالجن والملائكة والمردة والأقــزام ، ومنها الحكايات المنتحلة التى تنسب الى بعض الأشخاص التاريخيين أو الذين تدعى لهم صفة تاريخية لاجراء الحكمة القديمة على ألسنتهم ، وكل هذه الأنواع كانت معروفة قبل القرن السابع عشر فى البلاد الغربية ، ولكن هذا القرن — ولا سيما النصف الأخير منه — قد خص بظاهرة منفردة بين القرون الأخيرة وهى شيوع هذه الحكايات فيه بجميع أنواعها وانتقال الكثير منها الى مجال النقد الاجتماعى والآراء التعليمية التى تنزع منزع الحرية واعادة النظر فى حقائق الحياة ، وقد نبغ بين منتصف هذا القرن ومنتصف القرن الذى يليه أعلام بارزون فى هذا الفن من الأدب والحكمة من أمثال لافونتين الذى كان يلقب بايسوب الفرنسيين وأمثال جون جراى الذى كان يلقب بايسوب الانجليزى ، ونبغ فى هذه الفــترة أمثــال فولتير وسويفت الذين اتخذوا من القصص المخترع وسيلة لنقد المجتمع وكشف عيوبه منقولة الى أناس بعيدين أو أزمنة بعيدة لا تخفى على القــارىء وجوه الانتحال والاختراع فيها ، وتعليل هذه الظاهرة فى أواخر القرن السابع عشر ليس بالأمر العسير ، لأنه الزمن الذى تفتحت فيه العقول لحرية التفكير ولم تبلغ مداها من الحرية دفعة واحدة ، بل بدأت بالتلميح والكناية وتدرجت منهما الى التصريح الذى بلغ حد التهجم فى كثير من الأحيان ، وهذه الحكايات بأنواعها أداة صالحة للنقد المستور والحرية الفكرية المقنعة ، يقبلها المنقودون ولا يتذمرون منها لأنها تسليهم بالفكاهة

ولا تخص أحدا منهم بالهجوم الصريح عليه ولا تهدد مصلحة معلومة تهديدا يخشى منه أو تعرف عقباه .

وفرنكلين كعادته سريع الى اقتباس كل وسيلة من وسائل المعرفة والتعليم « الأبوى » الذى يهدى الجميع ولا يجرح أحدا مقصودا لذاته، وقد اقتبس هذه الوسيلة وتوسع فيها كما نرى من بعض رسائله السابقة، واقتبس الخرافة والحكاية ذات المغزى بأسلوبها القديم مع تجديدها بالاتجاه بها الى الحكمة الواقعية فى زمنه، وقد اخترنا منها هذه الحكايات الأربع لأنها من حكاياته المعبرة عنه وعن شواغل ذهنه وحيـاته على التخصيص ، فمنها حكاية عن الثورة الأمريكية ، وحكاية عن حـدود العقل الانسانى فى طموحه الى أسرار الكون وأصول الحياة وصفات الخالق ومقاصده فى خلقه ، وحكاية عن عمر الحىّ كيف يتسـاوى فيه الدهر الطويل واليوم الواحد عند نهاية الأجل ، وحكاية عن السماحة الدينية لها تاريخ خاص بين هذه الحكايات ، وهى حكاية ابراهيم الخليل وحواره مع ربه فى أمر الكفرة الجاحدين ، فهذه الحكاية قد وقع عليها فرنكلين فى بعض مطالعاته ويعزوها بعضهم الى السعدى الشيرازى شاعر الفرس المعروف،ويقال ان السعدى نفسه سمعها من أصحاب الاسرائيليات، ولم يزعم فرنكلين قط أنها من تأليفه ولكنه كان يداعب ضيوفه ويسألهم أن يفرقوا بين الأسلوب الذى وضعها فيه وبين أسلوب الكتب الدينية التى احتواها العهد القديم ، وكان يقول لطائفة منهم أمام بعض القسس انه سيقرأ لهم الاصحاح الحادى والخمسين من سفر التكوين ، ولاوجود لهذا الاصحاح فى الكتاب ، لأنه ينتهى بالاصحاح الخمسين ! ولكنها دعابة من دعاباته وعادة من عاداته فى محاكاة الأساليب ، وكان يعالج هذه المحاكاة فى ابان تعلم اللغة الفرنسية ليمتحن نفسه قبل أن يمتحن غيره . وقـديما صنع ذلك ، كما مر بنا ، بأساليب اديسون وغيره من الكتاب المحدثين ، ولعله لم ينس هنا نزعته القديمة الى مذهب الربوبية Deism وآراء الربوبيين فى طبيعة الوحى الإلهى الذى يتنزل على طبيعة البشر ،

فانهم يعتقدون أن مضـــامين العهـــد القديم تسجيل توفر عليه الكتاب والحفاظ لاثبات ما وعوه من الأقوال الملهمة على ألسنة الرسل والأنبياء .

وقد أثارت حكاية ابراهيم هذه ضجةلطيفة فى ابان تأليفها والقائها ، ثم أثارت بعد ذلك ضجة أخرى بعد طبعها وجمعها، وسوّل الحسد لأناس من شانئيه أن يتهموه بالسرقة الأدبية عمدا لظهور هذه الحكاية بين أوراقه المجموعة ، وعملت الخصومة السياسية عملها فى تكبير هذه التهمة فنشرت فى مجلة الخزانة البريطانية British Repository فى عدد شهر مايو سنة ١٧٨٨ حملة صحفية ترميه فيها بالسرقة والادعاء ، ونفى صـــديقه فوجان Vaughan هذه التهمة بخطاب أرسله الى المجلة ونشرته فى عدد تال ، وكتب فرنكلين نفسه الى فوجان يعزز مقاله ويعيد قوله فى المجلة انه ينسبها الى نفسه وليس له فيها من عمل غير الصياغة وما أضافه الى ختامها من الوعد والوعيد [1] ... فالحكاية — لما أحاط بها من هـــذه الحواشى جميعا — أحق الحكايات ذات المغزى بالنقل فى هذا السياق .

وهذه هى الحكايات الثلاث :

ملك الغـــاب

كان للأسد ملك احدى الغابات جند من الكلاب الأمناء مخلصون له ولدولته ، وعلى أيديهم اتسعت تلك الدولة وهابها من حولها جميع الأعداء .

الا أن الأسد —ذهابا مع نصيحة السوء من مشيريه — نفر من أولئك الجند ودانهم بالتهم دون أن يستمع اليهم وأمر بِبَارَدَ وفهوده ونموره أن تغير عليها وتفتك بها فتكا ذريعا ، وشكا الكلاب فلم يؤبه لهم ورفضت شكاياتهم بغير اكتراث ، فلم يكن لهم بدٌّ من الذود عن أنفسهم وحماية حوزتهم ، وفعلوا مستبسلين .

(١) صفحة ١٥٣ من كتاب الخزعبلات Bagatelles

وكانت منهم فصيلة مدخولة النسب من سلالة الذئاب والثعالب أفسدتهم وعود الملك بالمكافآت الجزيلة فخذلوا سلالتهم وذهبوا الى معسكر الأعداء .

وانتصر الكلاب أخيرا فانعقد الصلح بينهم وبين الأسد أن يصبحوا أحرارا وألا يكون له عليهم بعد ذلك من سلطان .

وتعذر على الأوشاب المدخولين أن يرجعوا الى السكن بين الكلاب فراحوا يلحون فى طلب المكافأة الموعودة ، واجتمع من السباع مؤتمر كبير للنظر فى هذا الطلب ، فاتفق الذئاب والثعالب على عدالة الطلب وأن الوعود الملكية لابد من نفاذها ، وعلى كل مخلص من رعاياه أن يسهم فى تمكين صاحب الجلالة من الوفاء بتلك الوعود .

وخالفهم الحصان وحده فجهر برأى جرىء يجمل بما فى طبعه النبيل من الشجاعة والطلاقة ، وتصدى لهم قائلا : « ان الملك قد أساء نصحاء السوء مشورته وأوغروا صدره على رعاياه الأمناء ، وان وعود الملوك ينبغى أن تنفذ حقا اذا وعد بها من يصدقون الخدمة وكان فى انجازها منفعة للجميع ، ولكنها اذا استنفرت رعاياه بعضهم على بعض فهى باطلة من مبدئها ، ومن جزاء المحرضين عليها والذين اقترفوا جرائم العدوان والغيلة من جراء ذلك التحريض أن يلقوا أشد العقاب بدلا من المكافأة وحسن الثواب ، ولننظر كيف نقصت قوتنا وهيض من بأسنا بما أصابنا من فقدان كلابنا ، فاذا زينتم للملك أن يحسن الى الذين قتلوا اخوتهم أقمتم بذلك سابقة تغرى من طغى بأمثال تلك الوعود وأصبحت كل مكافأة ينعم بها أولئك الناشزون المنحرفون توكيدا لها وتشجيعا عليها ، وتعرض الخيل والبقر كما تعرض الكلاب لشر الوقيعة فيما بينهم والانقسام بين صفوفهم ، وتتابعت الحروب الأهلية فى ديارنا حتى لا أمان ولا حرية فى هذه الغاب ، ويحيق بنا الضعف فلا حيلة لنا غير الخضوع والانقياد لكل طاغية يحلو له أن ينكل بنا وينعم بافتراسنا حين يشاء » .

ولم يخل المؤتمر من عقل وحكمة ، فأصاخ الى الرأى الصراح ، وقضى برفض ذاك الاقتراح .

أبو معشر الساحر

كبر الفلكى الطيب أبو معشر فكفّ عن العمل ، ولاذ بقمة الجبل ، وتجنب عشرة الناس وأنس الى أصحابه من المردة والجان الذين يحبونه ويرفهون عنه الوحدة بالأحاديث والأسمار ، وما فيها من معارف وأخبار .

وزاره بلوبيل المريد ذات مساء ، وهو مارد عظيم تعلو هامته سبعة فراسخ وينبسط جناحاه على رحاب دولة شاسعة ، فاستراح فى لطف وهينة على ذؤابات الشجر فى الوادى وأسند رأسه الى جبل قلبون ، واستقبل خيمة الساحر الكبير بوجهه المنير .

وتحدث اليه الساحر حديث الخشوع والتقوى عن حكمة العلى الأعلى وعما فى مقاديره من الخير والبركة ، وقال للمارد ان نعمته سبحانه وتعالى أجل من أن يحصيها ، وأنه يركض عقله الى أقصاه . ولا يدرك به الشأو فيما ينقب عنه ويتقصاه .

قال بلوبيل : على رسلك أيها الصديق ولا تسرف فى أمر تلك المزية التى تسميها بالعقل والحكمة ، فانك لو علمت أصلها ولمست مواطن ضعفها كنت الى الخجل منها أدنى منك الى الزهو بها والاتكال عليها .

قال أبو معشر : أنبئنى اذن بما لا أعلم ، واكشف عنى غشاء الجهالة ، وسدد فهمى بنور الهداية .

قال بلوبيل : تأمل يا أبا معشر فى سلم الخلق من الفيل الى الصدفة ، وانظر الى درجة منها بعد درجة تجدها قريبا من قريب حتى لا فجوة بينها ولا تكاد تلمح الفارق بين منازلها ودرجاتها . وان الناس عامة ليجهلون ما يجهلون ، ولكنك أنت — أبا معشر — أهل لأن تعلم ما فوق الفيل من منازل ودرجات الى غاية الغايات من العظائم والطيبات . فلا

فجوة هناك بين خلق وخلق ، بل هى درجة فوق درجة وأفق يعلوه أفق، لايدركها البصر ولا يستوعبها الضمير ، ولا يرتفع اليها الطرف الا ارتد وهو حسير [١] .

ذبابة الربيع

وألف فرنكلين هذه الخرافة،أو هذه الحكاية الرمزية ذات المعنى ، بعد رحلة خلوية الى جزيرة مولان جولى Moulin Joli بنهر السين ، مع السيدة بريون التى كانت مشغولة — كسيدات المجتمع الباريسى كله — بالحرب الموسيقية بين المدرسة الألمانية والمدرسة الايطالية ، وكان فى الرحلة معها طائفة من العلية المهذبين تحدثوا فى مسائل شتى فى مسائل الأدب والفن والفلسفة ، وكتب فرنكلين هذه الحكاية ليضمنها عبرة الحياة بعد اليوم الذى قضوه فى النزهة أو بعد الأجل المعدود لأجيال الذباب التى تظهر فى موسم الربيع وتكثر فى جزر الأنهار الفرنسية ولا يطول بها العمر وراء اليوم الذى تولد فيه .

قال وهو يهدى الحكاية ، أو العبرة ، الى تلك السيدة :

تذكرين يا صديقتى العزيزة أننى فى ذلك اليوم السعيد الذى قضيناه فى الحديقة البهجةوالصحبةالحلوةعند مولانجولى—قد تنحيت هنيهةعن الزمرة وتخلفت وراءها قليلا منفردا بنفسى ، وقد رأينا أثناء ذلك عددا كبيرا من « الهياكل العظمية » لذلك الذباب الذى يسمونه تارة «بالمنا» وتارة بذباب الربيع ، وقيل لنا ان أجيالا منه تحيا وتموت وتتعاقب فى مدى النهار الواحد ، وصادفنى جمع من هذا الذباب منعقد على ورقة من أوراق الشجر مستغرقا فى الحوار والجدل ، وأنت تعلمين أننى بألسنة هذه الخلائق الدنيا خبير ..

---

(١) الحكايتان من كتاب الخرافات الكبرى جمع كمروف
Great Fables, Komroff

ان اشتغالى بألسنة هذه الأحياء لهو العذر الذى أعتذر به من التقدم البطىء فى تعلم لسانكم الجميل ، فأصغيت — بداعى الفضول — الى حديث المؤتمر ولم يتيسر لى أن أستوضح جلية القول من كل حديث لأنهم كانوا فى اندفاعهم وحمية شبابهم يتكلمون كل أربعة أو خمسة فى وقت واحد . الا أننى أدركت من كلمة هنا وكلمة هناك أنهم يتناقشون فى المفاضلة بين الطنين الذى يسمع من احدى مدارس الذباب الغنائية والطنين الذى يسمع من المدرسة الأخرى ، وكانوا مستغرقين فى هذه المناقشة كأنهم على ثقة من امتداد العمر بهم شهرا أو يزيد ..

قلت فى نفسى : ما أسعد هؤلاء القوم ! وقلت كأننى أخاطبهم : لاشك أنكم تعيشون فى ظل حكومة رفيقة عادلة لا تشغلكم بالشكايات والمظالم عن الاسترسال فى أمثال هذه الأحاديث عن الموسـيقى الأجنبية التى تبحثون فى محاسنها أو عيوبها ، وأدرت بصرى عنهم فلمحت واحدا منهم أشيب الرأس منفردا على ورقة أخرى يناجى نفسه نجاء أعجبنى وراقنى فدونته على الورق لساعته .

كان هذا الحكيم الذبابى يقول : « ان حكماء أمتنا الذين عاشوا قبلنا منذ عصر بعيد يقولون ان هذا العالم الفسيح المسمى بالمولان جولى لن يعمر أكثر من ثمانى عشرة ساعة ، وأخالهم على حق فيما يقولونه لأن هذا النهر العظيم الذى تتولد منه الحياة كلها قد مال فى حياتى الى جانب البحر المحيط حيث يغرق لا محالة وينطفىء وتخمد معه شعلة الحياة فى كل مكان ويدع هذا العالم الكبير مطويا فى غمرة البرد والظلام !

ولقد عشت سبعا من هذه الساعات — عمرا طويلا ولا ريب ، لأنه لايقل عن أربعمائة وعشرين دقيقة ، وما أقل الذين يعمرون منا مثل هذا العمر الطويل ! لقد أبصرت بعينى أجيالا تولد وتحيا وتموت ، وصحابتى اليوم انما هم الأبناء والحفدة لمن كانوا صحابة لى فى ريعان الشباب ولم يبق منهم أحد أراه وآسفاه .

وانى لا محالة لاحق بهم عما قريب ، فاننى — وان كنت فى صحة وعافية — لن أخرق قانون الطبيعة ولا مطمع لى فى البقاء بعد سبع دقائق أو ثمان . فما غناء هذا العناء الذى عانيته وهذا الشهد الذى جمعته على هذه الورقة حيث أتركه ولا أنعم بمذاقه ! ما غناء الغزوات السياسية التى غزوتها فى سبيل هذه الجماعة على تلك الأجمة . ما غناء الفلسفة ومعضلاتها التى تعمقت فيها عسى أن أفيد بها أبناء النوع كله ! وما غناء القانون فى السياسة بغير أخلاق !!

ان جيلنا الحاضر من ذباب الربيع لوشيك أن يخالطه الفساد والمنكر خلال لحظات ويصبح كغيره وغيره من سكان تلك الأجمات فى ضروب الفساد والشقاء ! أما الفلسفة فما أقصر الخطى التى خطوناها فى مضمارها! وما أصدق قول القائلين : ان الفن لطويل وان العمر لقصير .

ويواسينى أصدقائى فيذكرون لى السمعة التى سأتركها من بعدى ويقولون لى اننى استوفيت حكم الطبيعة وحكم المجد أجمعين . فماذا تجدى السمعة ذبابة قد فنيت وليس لها من وجود ، وماذا يبقى من التاريخ كله بعد الساعات العشر والثمان ، وبعد فناء الدنيا وفناء المولان جولى نفسها فى غيابة الظلام والخراب ؟ .

اننى — بعد السعى الحثيث والدأب الطويل — لم يبق لى من متعة فى العمر غير التدبر فى تلك الأيام الطوال التى أحسنت فيها المقصد والنية، وغير الأحاديث التى أبادلها نخبة من الذبابات الطيبات ، وغير ابتسامة من حين الى حين ، أو أغنية فى يوم بعد يوم، تجود بهما الحبيبة الحسناء.

ابراهيم والضيف الكبير

.. وحدث بعد هذه الأشياء أن ابراهيم جلس على باب خيمته قريبا من وقت غروب الشمس .

ونظر فرأى رجلا حنته السنون مقبلا من ناحية البرية ، متوكأ على عكاز .

ونهض ابراهيم واستقبله وسأله قائلا : بحقك أن تأوى الى خيمتى أغسل قدميك وتستريح طول الليل وتمضى الى سبيلك عند الصباح .

ولكن الرجل قال : لا .. وقال انه سينام تحت تلك الشجر .

وكرر ابراهيم الدعوة وألح عليه كثيرا ليقبل دعوته ، فقبل ودخل معه الخيمة وصنع له ابراهيم خبزا فطيرا وأكلا معا .

ولما رأى ابراهيم أن الرجل لم يحمد الرب ولم يتوجه اليه بالصلاة سأله : ما لك لا تعبد الرب العلى الأعلى خالق الأرض والسماء ؟

وأجاب الرجل فقال : اننى لا أعبد الإله الذى تتحدث عنه ولا أسبح باسمه . لأننى اتخذت لنفسى ربا يقيم معى فى بيتى ويزودنى بجميع الأشياء .

وثارت ثائرة ابراهيم على الرجل فقام ودفع به الى البرية مشيعا باللطمات والضربات .

وفى منتصف الليل نادى الرب ابراهيم قائلا : أين الرجل الغريب ؟

وأجاب ابراهيم فقال : انه لايعبدك ولا يسبح باسمك ، فأخرجته لأجل هذا من خيمتى ودفعت به الى البرية .

وقال الرب : هل أصبر عليه أنا هذه السنين المائة والثمانى والتسعين أطعمه وأكسوه ولا أبالى عصيانه لى وتأتى أنت صاحب الخطيئة فلا تصبر عليه ليلة واحدة ؟

وقال ابراهيم : لا يحم غضب الرب على عبده . لقد أخطأت وأتوسل اليك يا رب أن تغفر لى خطيئتى .

ونهض ابراهيم وخرج الى البرية وبحث عن الرجل بحثا شديدا فوجده وعاد به الى الخيمة فأكرمه وتلطف له وشيعه فى اليوم التالى بالهدايا .

وتكلم الرب مرة أخرى مع ابراهيم قائلا : من أجل خطيئتك هذه يتعذب أبناؤك أربعمائة سنة فى أرض غريبة .

ولكن من أجل توبتك أنقذهم وأخرجهم أقوياء بقلوب فرحة وخير كثير [1] .

---

(١) من كتاب الخزعبلات Bagatelles

علميات

الزيت على الماء

والرسالة الآتية كتبها فرنكلين الى صديقه وليام برونتج من علماء انجلترا الطبيعيين فى عصره ، يطلعه فيها على تجاربه فى تهدئة البحر الهائج بصب الزيت على الماء ، وقد تليت هذه الرسالة على مجمع العلوم البريطانى فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٧٤ ثم نشرت فى مجموعتها الفلسفية ، وقد ترجمناها من « الكتابات الترجمية » التى سبقت الاشارة اليهـا .

لندن فى السابع من نوفمبر سنة ١٧٧٣ .

سيدى العزيز :

أشكر لك ما أبلغتنى من ملاحظات صديقك العلامة فى كارليسل ؛ وقد كنت فى صباى أبتسم حين أقرأ كلام بلينى Pliny عن عادة الملاحين فى زمنه أن يعالجوا تهدئة الأمواج فى العاصفة باراقة الزيت على البحر ، وهى عادة أشار اليها مع اشارته الى استخدام الغطاسين للزيت ، ولكننى لم أتلفت الى تهدئة الهواء العاصف برش الخل فيه ، وأرى كما يرى صديقك أن المتأخرين أفرطوا فى السخرية من معارف الأولين ، وأرى كذلك أن العلماء أيضا يفرطون فى السخرية من معارف العامة ، ومن الأمثلة على ذلك أن التبريد بالتبخير تجربة عرفها العامة منذ زمن طويل ، وأما تهدئة الأمواج بالزيت فهى من الأمثلة على كلا الأمرين .

ولعلك لا تأبى أن أبسط لك كل ما سمعت وعلمت وعملت فى هذا الصدد ، وها أنا ذا أستأذنك فى أن أبسطه بين يديك :

فى سنة ١٧٥٧ كنت فى أسطول مؤلف من ستة وتسعين شراعا يتجه

الى لويربورج ، ولاحظت أن مؤخرة سفينتين فى الأسطول هادئة على نحو يلفت النظر ، على حين لاحظت الاضطراب فى السفن الأخرى بمهب الريح التى أخذت فى الهبوب . وحرت فى الاختلاف بين المنظرين وأفضيت بحيرتى الى الربان سائلا عن سر هذا الاختلاف ، فقال لى ان الطباخين على ما يظهر قد أفرغوا فى البحر بقايا الماء الوضر فأسلست قليلا جوانب السفينتين ، وكان فى اجابته مسحة من الاستخفاف بهذا الجهل لأمر من الأمور التى لا يجهلها أحد ، ولكننى استخففت أيضا بالتفسير الذى أبداه وان لم يكن فى وسعى أن أعثر على تفسير خير منه ، ثم تذكرت ما قرأت فى بلينى فعولت على تجربة أثر الزيت على الماء عند سنوح الفرصة الملائمة .

وعدت الى البحر منفردا سنة ١٧٦٢ ، فلاحظت أولا ذلك الهدوء العجيب فى الزيت الذى كان على ماء المصباح المترجح الذى علقته فى الكبينة كما وصفته فى أوراقى ، وطفقت أنظر اليه وأظنه ظاهرة ليس لها تفسير . وكان معى من الركاب ربان قديم لم يهتم بالملاحظة لاعتقاده أن الظاهرة من قبيل ظاهرة الزيت الذى يراق على الأمواج لتهدئتها ، وهى كما قال عادة البرموديين كلما أرادوا اصابة سمكة يحول اضطراب الموج دون رؤيتها ، ولم أكن قد سمعت بهذه العادة قبل ذلك فكنت مدينا له بما أخبرنى عنها وان كنت لا أوافقه على التشابه بين ظاهرة المصباح وظاهرة الموج لما بينهما من الاختلاف فى العمل والنتيجة . اذ كان الماء فى احدى الحالتين هادئا حتى يوضع الزيت عليه فيضطرب ، وكان الماء فى الحالة الثانية مضطربا حتى يوضع الزيت عليه فيهدأ ..

وأخبرنى السيد نفسه أن العادة متبعة بين الصيادين من أهل لشبونة كلما عادوا الى النهر وأبصروا على حوافى القوارب طفاوات يخشون أن تغمرها ، فانهم فى هذه الحالة يفرغون زجاجة أو زجاجتين على ماء البحر فلا يطغى على القوارب ويمرون بسلام .

ولم تسنح لى فرصة لتعزيز هذا الخبر حتى تحدثت مع شخص آخر

طويل الخبرة بالملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، فأخبرنى أن الغطاسين هناك اذا احتاجوا الى النور فى القاع وحال بينهم وبينه اضطراب سطح الماء نفثوا من أفواههم قليلا من الزيت بين حين وحين فصعد الى السطح وهدأ الماء فنفذ منه النور ، وجعلت أقلب هذه المعلومات فى ذهنى وأعجب لخلو كتبنا فى التجارب الفلسفية من الاشارة اليها .

وألفيتنى آخيرا فى كلافام ، وفيها بركة لاحظت يوما من الأيام أنها مضطربة الماء فأرقت عليها قليلا من الزيت ورأيته ينتشر على سطحها بسرعة مدهشة ولكنه لم يؤثر فى تهدئة الماء ، لأننى أرقته فى اتجاه الريح حيث كان معظم الموج فعادت به الريح الى الشاطىء . فقصدت بعد ذلك الى الجهة التى تهب منها الريح ويتموج عندها الماء وألقيت ثمة قليلا من الزيت لا يزيد على ملء ملعقة من ملاعق الشاى ، فما هو الا أن وصل الى الماء حتى سكن على الأثر الى مدى عدة ياردات وراح ينتشر وينتشر حتى بلغ الجانب الآخر مهدئا تلك الرقعة كلها — قرابة نصف فدان — كأنها صفحة مرآة .

بعد ذلك تعودت أن آخذ معى — كلما ذهبت الى الخلاء — قليلا من الزيت فى تجويف القصبة العليا من عصاى لأكرر التجربة حيث تتهيأ لى الفرصة ، فوجدتها ناجحة على الدوام .

وقد لفتنى فى جميع هذه التجارب شىء واحد بصفة خاصة ، وهو هذا الانتشار الواسع السريع القوى الذى تنتشره قطرة واحدة من الزيت على صفحة الماء ، ولا أعلم أن أحدا اهتم بهذه المشاهدة قبل الآن . فان قطرة الزيت اذا وضعت على مائدة من المرمر المصقول أو على مرآة فى وضع أفقى تلبث فى موضعها ولا تنتشر الا قليلا .

الا أنها اذا ألقيت فى الماء لا تلبث أن تنتشر على صفحته عدة أقدام وترق جدا حتى تنعكس عليها ألوان الطيف الى مدى غير قصير ، ثم لا تزال ترق وراء هذا المدى حتى لاتبدو للنظر الا ما يكون من أثرها

فى تهدئة الموج ، وكأنما يحدث بين أجزائها تدافع مشترك فى اللحظة التى تقع فيها على الماء ، ويكون ذلك التدافع من القوة بحيث يعمل عملا فى الأجسام العائمة على صفحة المـــاء من قبيل القش أو ورق الشـــجر أو الحتاتة ، مضطرا اياها أن ترجع عن القطرة كأنها ترجع عن مركز حركة الى مدى غير قريب ، ولم أتبين بعد مقدار هذه القوة ولا قياس المدى الذى يمتد اليه أثرها ، ولكننى أحسبها مسألة من مسائل البحث وأود أن أستطلع سرها .

وقد سافرت الى الشمال تلك السفرة التى سعدت فيها بلقائك فى أورماثويت Ormathwaite فزرنا النابه الشهير مستر سميتون على مقربة من ليدز ، وهممت أن أريه التجربة على بركة صغيرة بجوار بيتـــه فقال لنا تلميذ ذكى من تلاميذه — وهو مستر جيسوب — انه شهد هنالك ظاهرة غريبة منذ وقت قريب ، وكان يهم بأن يغسل فى الماء قدحا من أقداح الشاى يضع فيه الزيت فألقى منه على الماء بضع ذبابات غرقت فى الزيت ، فما كادت تصل الى الماء حتى أخذت تتحرك وتدور دورة سريعة كأنها حية ناشطة وان كان قد لمسها فعلم أنها ليست كذلك ، فاستخلصت من ذلك على الأثر أن الحركة آتية من التدافع الذى أشرت اليه ، وأن الزيت الذى يرسله جسم الذبابة الاسفنجى تدريجا يدفع تلك الحركة الى الاستمرار ، وعاد التلميذ فوجد فى الزيت بعـــض الذبابات الغرقى كررنا التجربة عليها وأردت أن أستوثق من أن الحركة لم تحدث من رجعة الذباب الى الحياة فأجريت التجربة على الفتـــات وقطع الورق مقصوصة على شكل الواو فى حجم الذبابة المألوف فوجدنا التيار يدفعها ويدير الواو الى الجهة المضادة ، وليست هذه تجربة بيتية بين جدران حجرة ، لأنها لا يمكن أن تعاد فى ماء جردل أو اناء على المائدة ولا بد من صفحة كبيرة على وجه الماء تتسع لامتداد قطرات الزيت القليل . أما الطبق أو الاناء فان قطرة الزيت الصغيرة فيه اذا ألقيت فى الوسط شاعت على وجه الماء كله طبقة وضرة صادرة من القطرة وتوقف صدورها لمجرد

وصول الطبقة الى جوانب الاناء ، ومنعتها تلك الجوانب أن تتخذ شكلا غير شكل الزيت بمنع الامتداد من مصدرها .

وقد ذهب صديقنا سير جون برنجل بعد ذلك الى سكوتلاند فعلم أن الصيادين الذين يعملون فى صيد سمك الرنجة يستطيعون رؤيتها على بعد وأنهم ربما ساعدهم على الرؤية مادة زيتية تنبعث من أجسامها .

وأخبرنى سيد من جزيرة رود أنهم لاحظوا هناك فى ميناء نيوبورت أن الماء يظل ساكنا ما بقيت فيه سفينة من السفن التى تستخدم فى صيد الحيتان ، وربما كان ذلك لأن الآنية التى يودعونها دهن الحوت يرشح منها الدهن الى الماء الذى يفرغونه من سفنهم وينتشر على صفحة الماء فى الميناء فيحول دون اثارة الأمواج عليه .

وسأحاول تفسير ذلك المانع :

فالظاهر أنه لاتوجد بين الماء والهواء طبيعة التدافع التى تمنع اتصال أحدهما بالآخر ، ومن ثم نجد فى الماء بعض الهواء ويعود الهواء بمثل ذلك المقدار الى الماء اذا استخرجناه بالمضخات ، وعلى هذا يمكن أن يمر الهواء على صفحة الماء الساكنة ويحدث فيها الثنايا التى تتكون منها الأمواج ، ومتى برزت موجة — بالغة ما بلغت من الصغر — على وجه الماء لم تهبط على الأثر فتترك الماء الى جانبها على سكونه ، بل يكون هبوطها سببا لبروز موجة أخرى بغير اختلاف فى احتكاك الأجزاء ، واذا ألقى فى الماء حجر نشأت منه موجة واحدة حوله فى أول الأمر ويتركها فيرسب فى القاع ، ولكن هذه الموجة تهبط فتبرز الى جانبها موجة أخرى فموجة غيرها الى أمد بعيد .

والقوة الصغيرة اذا تكررت كان لها أثر كبير . فالأصبع اذا لمست جرسا كبيرا لمسة واحدة لم تحركه الا حركة يسيرة ، ولكنها اذا لمسته مرة بعد مرة بالقوة نفسها زادت الحركة حتى يصل الجرس الى أعلى ذروته بقوة لا تستطيع الذراع كلها أن تقاومها ، وكذلك الموجة الصغيرة

الأولى التى تظل الريح مؤثرة فيها تزداد فى الامتداد وان كانت الريح لا تزداد فى القوة ، وترتفع ثم ترتفع فتمتد قواعدها حتى تشمل مقدارا كبيرا من الماء فى كل موجة وتندفع فى حركتها بقوة شديدة .

أما اذا وجد التدافع المتبادل بين أجزاء الزيت ولم يوجد التجاذب بين الزيت والماء ، فالزيت الذى يراق فى الماء لايتماسك فى الموضع الذى ألقى فيه ولا يمتصه الماء ، وينطلق ممتدا بغير عائق فينبسط على صفحة واسعة تحول — فضلا عن ملاستها — دون احتكاك الهواء مباشرة بالماء، ويستمر هذا المانع مع امتداد الزيت حتى يبلغ من الامتداد غايته القصوى فيضعف أثره ويزول .

واننى أتخيل الآن أن الريح متى هبت على ماء مغطى على ذلك النحو بطبقة من الزيت لم يسهل احتكاكها به ذلك الاحتكاك الذى يبرز الموجة الأولى ، بل تنساب فوقه وتدعه ساكنا كما كان ، وهى تحرك الزيت قليلا ولا شك ، ولكنها حركة بين الزيت والماء تساعده على الانسياب وتمنع الاحتكاك كما يمنع احتكاك أجزاء الآلات ، ولهذا يذهب الزيت الذى يراق فى اتجاه الريح الى الوجهة المقابلة ، اذ كانت الريح فى هذه الحالة لاتتمكن من اثارة الخلجات الأولى التى تتكون منها الأمواج ، فتبقى البركة كلها على حالها من الهدوء .

وفى وسعنا اذن أن نقمع الموج حيث نريد اذا وصلنا الى المهب الذى تنشأ منه أوائلها ، ويتعذر ذلك فى البحر المحيط أو يحدث فى الندرة القليلة ان حدث ، الا أنه قد يتيسر بعض العمل لتخفيف دفعة الأمواج حين نكون فى وسطها فنمنع انكسارها كلما وافقنا ذلك . اذ لايخفى أن الريح كلما هبت من جديد نجم وراء كل موجة خلجات صغار تزعج صفحتها وتهيىء للريح أن تأخذ بمقبضها لتدفعها دفعة أقوى ، وهذا المقبض لا يتهيأ للريح بمنع الخلجات الصغار ، وربما لم يتهيأ كذلك عند تزييت صفحة الموجة فتدفعها الريح الى أسفل بدلا من تحريكها الى جانبها وتعمل بذلك على تهدئة الموج بدلا من استمراره .

وهذا — على اعتباره من قبيل التخمين — لاقيمة له ان لم يكن صب الزيت فى وسط الأمواج ذا بال ولم يفسر بعد بتفسير غير هـذا التفسـير .

ان الريح عندما تهب متوالية بحيث لا تسرع الموجات الى تلبية فعلها تكون رؤوسها خفيفة فتندفع وتتكسر كالرغو الأبيض ، وان الأمواج عادة ترفع السفينة ولا تدخلها ، ولكن هذه الأمواج المرغية المزبدة اذا تعاظمت وارتفعت قد تغمرها وتعرضها للخطر العظيم .

وليس لدينا تجربة تثبت لنا أن هذا الخطر يمكن منعه وأن ارتفاع الأمواج فى البحر الزاخر مما يمكن تخفيفه ، لأن ملاحظـة بلينى عن تجارب الملاحين فى عصره لم يلتفت اليها . الا أننى حادثت أخيرا صاحب السعادة الكونت بنتنك الهولندى ، وابنه الربان بنتنك ، والأستاذ العلامة اليماند ، وأريتهم تجاربى فى تهدئة الأمواج العالية على رأس البستان الأخضر فذكر لى الكونت خطابا تلقاه من بتافيا عن انقاذ سفينة فى زوبعة بصب الزيت على الماء ، وودت لو حصلت على نسخة من هذا الخطاب فسمح لى الكونت بها بعد ذلك ، وهذه هى نبذة من الخطاب المؤرخ فى الخامس من شهر يناير سنة ١٧٣٠ يقول فيها مستر تنجناجل للكونت بنتنك :

« انه على مقربة من جزائر بول وأمستر دام لم يوجد ما يستحق التبليغ الا ما حدث من اضطرار الربان طلبا للسلامة أن يصب الزيت على الماء لمنع تدفق الأمواج فيها فكان لذلك أثر بيّن ونجونا بفضله ، ولما كان الربان قد حرص على صب الزيت قليلا بعد قليل فشركة الهند الشرقية مدينة بنجاة سفينتها لست قنينات من زيت الزيتون ، وقد كنت على ظهر المركب عند اجراء هذه التجـربة ولم يحملنى على الكتابة بها اليـك الا ما وجدته من شك القوم فى نفعها وضرورة العلم بهذا النفع واقرار هذه التجربة بشهادتنا وشهادة الضباط فى السفينة ، مما تيسر لنا بغير مشقة » .

لهذه المناسبة رويت للربان بنتنك فكرة خطرت لى أثناء الاطــلاع على رحلات ملاحينا المتأخرين ، وبخاصة حين يذكرون الجزر الجميلة الخصبة التى يتوقون الى الارساء بها اذ يلجئهم الى ذلك الدوار والمرض ثم يحول البحــر المضــطرب دون بلوغهم شــواطئها ، والفكرة التى خطرت لى أنهم يستطيعون الارساء بها اذا ترددوا جيئة وذهــوبا على مسافة قريبة من الشاطىء وصبوا الماء أثناء ذلك مع اتجاه الريح الساحلية، فربما هبطت الأمواج قبل وصولهم الى الشاطىء وهدأت حركتها العنيفة هدوءا يمكنهم من الوصول اليه اذ يكون فى الأمر من الفائدة ما يساوى قيمة الزيت المصبوب .

وتفضل السيد ، الذى أثرت عنه الغيرة على تحقيق كل مافيه المصلحة وان لم يلتفت الى مخترعاته الذكية الالتفات الواجب لها ، فدعانى الى بورتسموث حيث يرجى أن تسنح الفرصة للتجربة على شواطىء سبتهيد ، وتلطف فزاملنى فى الرحلة ووعد باعطائى الزوارق اللازمة لتلك التجربة.

وعلى ذلك ذهبت الى روتسموث حوالى منتصف أكتوبر الماضى مع بعض الصحاب،وهبت ريح ساحلية بين مستشفى هسلار والموقع القريب من جليكر ، فخرجنا من السفينة سنتاءور فى زورق طويل وصندل متجهين الى الساحل ، وكان ترتيبنا هكذا : الزورق الطويل على مسافة ربع ميل من الساحل ، وفئة من الصحبة نزلت على الساحل وراء الموقع القريب من جليكر وهو مكان محمى من ناحية البحر ، ثم جاءت واستقرت على مكان مواجه للزورق الطويل حيث يتسنى لهم أن يراقبوا صفحة الماء ويلاحظوا ما يطرأ عليها من التغيير بعد صب الزيت ، وكانت فئة أخرى على الصندل على اتجاه الريح من ناحية الزورق الطويل فى موضع وسط بينه وبين الساحل تذهب وتجىء وهى تصب الزيت على الماء من قدرة فيها سدادة مفتوحة أوسع قليلا من ريشة الأوزة ، فلم تسفر التجربة عن النجاح الذى رجوناه ولم يلاحظ فرق محسوس على الموج بجــوار الساحل غير أن ركاب الزورق الطويل شاهدوا ممرا هادئا على طول

المسافة التى كان الصندل يصب الزيت عليها يتسع كلما اقترب من الزورق الطويل ، وأقول انه ممر هادىء ولا أعنى أن صفحة الماء كانت مستوية، بل أعنى أنها مع ارتفاع الموج فيها لم يكن ثمة أثر للخلجات الصغيرة التى أشرت اليها آنفا ولا للزبد الذى يعلو فوق رؤوس الأمواج ، وان يكن فى متجه الريح والجانب المقابل له كثير من تلك الخلجات ، واتفق مرور زورق منشور الشراع هناك فاختار الممر طريقا للعبور .

وقد يفيد وصف التجربة التى لم تنجح عسى أن تصحح التجربة فى مرة أخرى ، ولهذا وصفتها بالتفصيل وأرجو أن أضيف الى وصفها تعليلا لحبوطها وخيبة الأمل فيها .

يلوح لى أن عمل الزيت على الماء « أولا » أن يمنع ارتفاع موجات جديدة بهبوب الريح ، و « ثانيا » أن يمنع اندفاع الموجات التى ارتفعت فعلا بقوتها الأولى فلا تحدث موجات أخرى ترتفع مثل ارتفاعها كما يحدث لو لم يكن على صفحة الماء زيت مصبوب . الا أن الزيت لايمنع التموج الذى يحدث لسبب آخر أو قوة أخرى كقوة الحجر الذى يسقط فى بركة ساكنة لأن الموج يرتفع اذن بقوة الحجر الدافعة « الميكانيكية » التى لاتستطيع الصفحة المزيتة أن تمنعها كما يمتنع اتصال الهواء بالماء واثارة الأمواج فيه .

والموجات التى ترتفع بقوة الريح أو بغيرها تعمل عملا واحـدا فى الارتفاع والهبوط كما يعمل الرقاص بعد انقطاع عمل القوة التى دفعته الى الحركة الأولى ، وهى حركة تسكن مع الزمن ولكن لابد لها من زمن على أية حال .

وعلى ذلك يمكن أن يضعف الزيت على البحر الهائج دفعة الموج الذى على صفحته فيهبط لامتناع التأثير الجديد الذى يطرأ عليه ، ولكنه لابد من مرور زمن قبل ظهور الأثر على مثال ما يحدث عند هدوء الريح فجأة ، فان الأمواج لا تهدأ فجأة بهذه السرعة بل تأخذ فى الهدوء شيئا فشيئا حتى تنقطع الريح .

ونحن كذلك وصلنا بصب الزيت على الماء الى تهدئة الأمواج التى ارتفعت قبل ذلك، ولم يكن منتظرا أن تتم هذه التهدئة على الأثر حتى تستوى الصفحة كل الاستواء ، ولا بد للحركة التى بعثتها أن تستمر بعض الوقت وأن تصل الى الساحل بقـوة وسرعة ان لم يكن على مسافة بعيـدة فلا يلاحظ عليها ضعف محسوس ، ويجوز أننا — على مسافة أبعد من تلك — كنا نحس للتجربة أثرا أكبر من ذلك لو أننا بدأنا عملنا على مسافة أبعد من الساحل ، أو يجوز أن الزيت الذى صببناه لم تكن فيه الكفاية، وتظهر النتيجة فى التجارب التالية .

ولقد شكرت الربان بنتنك لمساعدته الطيبة الرضية ، ولا أنسى فضل مستر بانكس والدكتور سولاندر والجنرال كارنوك والدكتور بلاجدن الذين اشتركوا فى التجربة فى ذلك اليوم المضطرب المزعج وصبروا على الدأب فيها صبرا لا باعث له غير زيادة المعرفة، وبخاصة تلك المعرفة التى تنفع الناس فى مواقف الشدة والحرج .

وبودى لو أطلعت صديقك الألمعى مستر فاريس على هذه الرسالة مع تبليغه تحيتى واحترامى ، واننى يا سيدى العـزيز مع تقـديرى الخالص ... الخ الخ .

اجتماعيات

والاجتماعيات التى كتبها فرنكلين تتسم — كسائر كتابته — بسمة السماحة الفطرية التى تنظر الى الحقائق من وراء حدود الأجناس والألوان، وتعرف فى الوقت نفسه حدود الطاقة الانسانية فلا تنسى الأعذار وهى تحكم على الذنوب ، ولا تجهل الضرورات وهى تتكلم على الواجبات ، ونجتزىء من هذه الاجتماعيات بفصلين : أحدهما عن الهنود الحمر ، والآخر عن المرأة الخاطئة .

قال بعنوان : « فى شئون المتوحشين المقيمين بأمريكا الشمالية » : نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم تخالف عاداتنا التى نحسبها غاية الدماثة والأدب ، وانهم ليحسبون عاداتهم كذلك .

وأخالنا لو درسنا عادات الأمم المختلفة بغير تحيز لم نجد شعبا قط يبلغ من خشونته أن يتجرد من قواعد الأدب والمجاملة ، ولم نجد شعبا قط يبلغ من أدبه ومجاملته أن يخلو من بعض الخشونة .

ان الرجال الهنود فى صغرهم صيادون ومقاتلون ، وهم فى كبرهم نصحاء مستشارون ، لأن أمور الحكم كلها تجرى بينهم وفاقا لمشورة الحكماء ، فلا سلطة ولا سجون ولا شرطة تكرههم على الطاعة ، ولهذا تراهم يمارسون صناعة الكلام ، فأبلغهم أكبرهم نفوذا بين قومه .

والنساء الهنديات يحرثن الأرض ويطهون الطعام ويرضعن الأطفال ويربينهم ، ويحفظن للخلف مأثورات السلف .

وهذه الشواغل التى يشتغل بها الرجال والنساء معدودة بينهم من الأمور الفطرية الموقرة . وهم — لقلة مطالبهم الصناعية — يجدون متسعا من الوقت لتهذيب المحادثة والسمر ، وينظرون الى أسلوبنا المجهد

فى المعيشة نظرتهم الى ضعة الرق والخسة ، كما ينظرون الى التعليم الذى تفخر به كأنه تفاهة وعبث بغير جدوى ، وقد شهدنا مثلا على ذلك فى معاهدة لانكستر ببنسلفانيا سنة ١٧٤٤ بين حكومة فرجينيا والأمم الست الهندية . فبعد التفاهم على المسائل الهامة أبلغ المندوبون عن حكومة فرجينيا جماعة الهنود مشافهة أن فى وليامبرج كلية ذات رصيد مخصص لتعليم أبناء الهنود ، وان رؤساء الأمم الست اذا راقهم أن يرسلوا الى الكلية فئة من أبنائهم — ستة مثلا — فالحكومة هناك على استعداد للعناية بهم وتوفير لوازمهم وتعليمهم كل ما يتعلمه أبناء البيض .

ومن آداب الهنود المرعية أنهم لايجيبون مقترحا عاما لساعته ، اذ يرون فى ذلك شيئا من الاستخفاف به وأنه غير جدير منهم بالبحث والمراجعة ، ويستمهلون المقترح ريثما ينظرون فيه ليدلوا بذلك على اهتمامهم بأمره ، ووفاقا لهذا العرف طلبوا المهلة لليوم التالى كى يجيبوا عن ذلك الاقتراح ، فلما كان الموعد أعرب مدره القوم عن شعورهم العميق بلطف الحكومة الفرجينية فى عرض تلك المنحة الكريمة لأنه يعلم أن البيض يكبرون شأن التعليم فى الكلية ، وأن توفير المطالب لأبناء الهنود فى تلك الكلية يكلفها كثيرا من النفقة ، وأن الاقتراح ولا شك ينم على حب الخير ويستوجب منهم الشكر الجزيل .

قال : الا أنكم — بما لكم من الحكمة والخبرة — تعلمون أن الأمم المختلفة تختلف فى النظر الى الأشياء وتقديرها ، وانكم لاتلوموننا اذا كانت آراؤنا فى ذلك النمط من التعليم لايتفق لها أن تطابق آراءكم . وقد بلونا ذلك بعض الشىء منذ سنوات حيث تخرج نفر من شباننا من كليات الشمال وحذقوا فيها جميع علومكم ، ثم عادوا الينا لا يحسنون العدو ، ولا يعرفون شيئا عن الحياة فى الغابات، ولا طاقة لهم بالصبر على البرد والجوع ، ولا دراية لهم ببناء كوخ او اقتناص غزال أو الغلبة على عدو ، وقد ساء نطقهم بلغاتنا فلا هم قادة مقاتلون ، ولا هم نصحاء مستشارون ، ولا هم على الجملة صالحون لأمر من الأمور .

على أننا لانبخس حقكم من الشكر على منحتكم الكريمة لأننا لم نتقبلها ، ولكى نعرب عن شعورنا بها نقترح على السادة الفرجينيين أن يرسلوا الينا نحو اثنى عشر من أبنائهم نعنى بهم ونعلمهم على نهجنا وندربهم على كل ما تدربنا عليه ، ونخرج منهم رجالا أشداء .

والهنود — لتعودهم عقد المجالس والمجتمعات للمشاورة — قد كسبوا القدرة على حظ عظيم من النظام واللباقة فى ادارتها . فيجلس الشيوخ فى الصف الأول ، ويجلس المقاتلون فى الصف الثانى ، ويجلس خلفهم النساء والأطفال ، وعمل النساء فى هذه المؤتمرات أن يعلقن فى ذاكرتهن كل ما يجرى وكل ما يقال فيها ويحفظنه تراثا للأبناء لأنهم لايعرفون الكتابة .

فالنساء سجلات المؤتمرات ، يحفظن من شروط المعاهدات ما قد مضى عليه مائة سنة ، ونقارن بينه وبين المكتوب عندنا فنرى أنه مطابق له كل المطابقة .

وصاحب الدور فى الكلام عندهم ينهض قائما فيصغى اليه المستمعون فى صمت وسكون ، ومتى فرغ من كلامه وجلس فى مكانه تركوه بضع دقائق يتذكر ويتأنى لعله أن يكون قد نسى شيئا أو خطر له بعد الجلوس ما يستدركه من مقاله فينهض ثانية ويقول ما أراد ، وانهم ليحسبون المقاطعة — حتى فى المحادثة الدارجة — غاية فى سوء الأدب والنبو عن المجاملة . فما أبعد هذا مما نشاهده من نظام المناقشة فى المجلس المهذب مجلس النواب البريطانى ... اذ يندر أن يمضى يوم دون أن يعرض فيه ضرب من الاختلاط يبح صوت الرئيس وهو ينبه المتناقشين فيه الى النظام . وما أبعد هذا مما يحدث فى كثير من الجماعات المهذبة على القارة الأوربية ، اذ تحس أنك مضطر الى اتمام عبارتك على عجل والا قاطعك فى وسطها أولئك الذين يحادثونك ولا صبر لهم على كبح لجاجتهم فى الحديث ، ثم لايتاح لك أن تعود ثانية الى اتمامها .

والحق أن مجاملات الحديث عند هؤلاء القوم قد بلغت حد الافراط لأنها لاتسمح لهم بمناقضة كلام يسمعونه أو تفنيده ، وهم — بذلك — يتجنبون المنازعات ولكنهم لا يظهرون لك حقيقة ما يريدون ولا يعربون عن أثر لكلامك فى نفوسهم ، وقد طالما شكا المرسلون المبشرون من هذه العادة وعدوها احدى العقبات الكبار فى طريق رسالتهم . فان الهنود ليستمعون فى صبر وأناة الى حقائق الكتاب التى تشرح لهم ويردون عليها ردودهم المعهودة من علامات الموافقة والاستحسان ، ويخطر لك انهم قد آمنوا وصدقوا ولا شىء من ذلك هناك ، وانما هى مجاملات وتقـاليد .

* * *

ومن أخبارهم فى ذلك أن قسا سويديا جمع زعماء القبيلة المعروفة بسكويهانا وخطب فيهم شارحا لهم أسس الوقائع التاريخية التى تقوم عليها دياتنا ، كسقوط أبوينا لأكلهما من تفاح الجنة ، وظهور السـيد المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة وما عمله من العجائب واحتمـاله من الآلام . فلما فرغ من كلامه نهض خطيب هندى ليشكره ، فقال : « ان ما أخبرتنا به شىء حسن ولا ريب ، وانه لمن القبيح حقا أن يؤكل التفاح بدلا من تخميره واستخراج الشراب منه ، واننا لشاكرون لك ما تجشمت من مشقة لتبلغنا هذه القصص التى سمعتموها من أمهاتكم ، ونود فى مقابلة ذلك أن نروى لك طرفا مما سمعناه نحن من أمهاتنا .

كان آباؤنا الأولون ولا غذاء لهم الا من لحوم الحيوان ، وكانت حبالاتهم فى الصيد لاتنفع فجاعوا وأوشكوا أن يهلكوا جوعا ، وانهم لكذلك اذ أفلح اثنان من شباننا فى اقتناص غزال فأوقدا نارا فى الغاب ليشويا بعض لحمه ، ثم جلسا يأكلان منه فلاحت لهما على تلك القمة التى تلمحها بين جبالنا الزرقاء فتاة حسناء هبطت من السماء واستوت على ذلك المكان ، فقال أحدهما لصاحبه : لعلها قد شمت رائحة الطعام فجاءت تلتمس نصيبا منه تأكله ، فلنعطها اذن ذلك النصيب . وقدما لها اللسان فالتذت مذاقه وقالت لهما : ان الهدية التى تفضلتما بها لمجزية

أحسن الجزاء . فتعاليا الى هذا المكان بعد ثلاثة عشر شهرا تجدا فيه شيئا ينفعكما فى الطعام وينفع أبناءكم الى الجيل الأخير . فعادا كما قالت وأدهشهما أن يجدا فى المكان نباتا لم تقع عليه أعينهما من قبل ، ولم يزل ذلك النبات ينمو بيننا وننتفع به أحسن انتفاع . وقد نبتت الذرة حيث مست يمينها الأرض ، ونبت اللوبياء حيث مست الأرض بشمالها ، ونما التبغ حيث جلست عليها .

وامتعض القس الطيب من سماع هذه القصة الفارغة وقال لهم : ان ما حدثتكم به هو الحق المقدس وأنتم تحدثوننى بعد ذلك بالترهات والأباطيل . وساء الهندى أن يسمع منه هذه الكلمة الجافية فقال له : ان أصحابك يا أخانا لم ينصفوك بحقك من التعليم ولم ينشئوك النشأة الحسنة فى آداب العرف والمجاملة . ولقد رأيت أننا سمعنا أقاصيصك فصدقناها ، فما بالك أنت لا تقابل منا ما سمعت بالتصديق ؟

ويفد الواحد منهم الى مدننا فيتكوف الناس حوله ويحملقون فى وجهه ويتطفلون عليه حيث يحب أن ينفرد بنفسه ، وهم يعيبون ذلك ويعدونه من الخشونة وسوء الأدب والنقص فى عرف التحية والمجاملة ، ويقولون اننا نتطلع كما تتطلعون ونحب الفضول كما تحبون ، بيد أننا نختبىء لنراكم وراء الآجام ولا نعترضكم فى الطريق أو نتطفل باصطحابكم حيث تسيرون .

وان لهم لآدابا متبعة فى دخول القرى التى يفدون عليها ، فلا يستحسنون من القادم أن يدخل الى القرية فجأة بغير استئذان ، وهم لهذا يقفون على مرأى من أهل القرية ويصيحون ولا يتقدمون خطوة حتى يأتيهم من يدعوهم للدخول ، وقد جرت عاداتهم أن يستقبل القادمين اثنان من شيوخ القرية يهديانهم الطريق الى بيت خال يسمونه بيت الغرباء . ثم يذهبان من خص الى خص يبلغان القوم بمقدم الضيوف ، وانهم ربما كانوا فى حاجة الى طعام وراحة ، فيرسل كل منهم ما فى وسعه من زاد ومن جلود يستريحون عليها ، فاذا استوفوا راحتهم جاءوهم

بالتبغ يدخنونه وبدأوا بالحديث سائلين عنهم وعن وجهتهم وما هـم قادمون من أجله ، وينتهى الأمر أحيانا بعرض الخدمة عليهم لاصطحابهم وتموينهم مسافة الطريق بغير أجر ولا ثمن .

وهذه الضيافة التى يعدونها بينهم من الفضائل العالية مطلوبة من آحادهم كما تطلب من جماعاتهم ، وقد أخبرنى مترجمنا « كونراد ويزر » بالقصة التالية فقال : انه نشأ بين الأمم الست وحذق لغة الموهوك ، وانه فى رحلة من رحلاته بين بلاد الهنود يحمل رسالة من حاكمنا الى مجلس « اونداجا » زار مسكن « كناستيجو » أحد أصدقائه الأقدمين ، فعانقه الرجل وفرش له الفراء ليجلس عليه ووضع أمامه فولا مسلوقا ولحما وقدحا من شراب الروم مشعشعا بالماء ، فلما استراح وأخذ فى التدخين بدأه « كناستيجو » بالحديث وسأله عن أحواله فى السنوات التى افترقا فيها وعن وجهته والمكان الذى أقبل منه والغرض الذى خرج من أجله، فأجابه مونراد عن هذه الأسئلة حتى أوشك الحديث بينهما أن يفـتر ويتعثر ، فقال له الرجل : ايه كونراد . انك عشت طـويلا بين البيض وعرفت شيئا من عاداتهم ، وقد زرت أنا اقليم « ألبانى » ولحظت أنهم يغلقون دكاكينهم يوما فى كل سبعة أيام ويتجمعون فى منزل عظيم . فهلا حدثتنى عن ذلك الاجتماع ما مقصدهم منه وماذا يصنعون فيه ؟

قال كونراد : انهم يجتمعون هناك ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورة!

قال الهندى : لست أشك فى أنهم أخبروك بما تقول لأنهم أخبرونى بمثله . غير أننى أشك فى مقالهم وأصارحك بأسباب شكى . ثم استطرد قائلا :

ذهبت الى « ألبانى » كى أبيع جلودى وأشترى ما أحتاج اليه من الأغطية والسكاكين والبارود وشراب الروم ، وأنت تعلم أننى تعودت أن تكون معاملتى مع هانس هانسون ولكننى فى هذه المرة أردت أن أجرب غيره من التجار . على أننى زرت هانسون بادىء الرأى وسألته :

بكم يشترى جلد السمور ؟ فقال انه لايزيد فى تقديره على أربعة شلنات للرطل الواحد ، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث الىّ فى أمور المعاملة لأنه اليوم الذى خصصوه لتعلم الآداب والطيبات المأثورة . وأنه سيذهب الى الاجتماع اذ كان لايقدر على مباشرة عمل من الأعمال .

قال الهندى : فذهبت معه ، وألفيت ثمة رجلا يلبس السواد آخذ يخاطب الناس فى غضب شديد ، فلم أفهم ما قال ، ولكننى رأيته ينظر الىّ والى هانسون فظننت أنه غاضب لرؤيتى هناك ، فخرجت وجلست الى جانب الدار وأشعلت قصبتى لأدخن منتظرا حتى ينفضّ الجمع ، وظننت كذلك أن الرجل قد ذكر شيئا عن السمور وخطر لى أن الاجتماع كله يدور على هذه الحكاية . فلما انصرف المجتمعون لقيت تاجرى وقلت له : ايه يا هانس ! أظنك قد فكرت فى الأمر وزدت فى تقديرك على الشلنات الأربعة . فأجابنى قائلا : كلا ! أنا لا أستطيع أن أعطيك هذا الثمن ولا أزيدك على ثلاثة شلنات وستة بنسات . وانطلقت أتحدث الى غيره من التجار فألفيتهم جميعا يعيدون هذه النغمة بعينها : ثلاثة وستة بنسات ! ثلاثة وستة بنسات ! ووقر فى خلدى من ثم أننى على حق فى شبهتى وأنهم مهما يزعموا من سبب لتلك الاجتماعات وأنهم يلتقون فيها ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات فانما السبب الصحيح أنهم يجتمعون ليخدعوا الهنود عن ثمن السمور ، واذا تأملت قليلا — ياكونراد — فلا شك أنك تثوب الى رأيى وتعلم أنهم لو كانوا يجتمعون ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات لكانوا قد تعلموا طرفا منها قبل ذلك . الا أنهم على جهلهم القديم ، وأنت تعلم عاداتنا معهم اذا قدم منهم أحد الى آكواخنا كيف نعامله كما نعاملك ونجفف ثيابه ان كان بها بلل وندفئه ان كان به برد ونبسط له الطعام من اللحم والشراب ليفثأ ظمأه ، ويشبع جوفه ، ونفرش له الفراء لينام ويستريح ولا نتقاضاه أجرا على شىء من هذه الأشياء . ولكننا اذا ذهبنا الى بيت من بيوت البيض فى « ألبانى » والتمسنا لحما أو شرابا سألونا : أين نقودك ؟ فان

لم تكن معى نقود طردونى وصاحوا بى : اغرب من هنا أيهـا الكلب الهنـدى !

فأنت تبصر اذن أنهم لم يتعلموا تلك الطيبات الصغار التى نتعلمها نحن بغير حاجة الى اجتماعات وخطابات ، لأن أمهاتنا يعلمننا اياها ونحن أطفال ، ومحال أن تكون اجتماعاتهم هذه لغرض من تلك الأغراض التى يدعونها ، أو أن يكون لها أثر فيما يزعمونه ، وكل ما فيها أنها حيلة يحتالونها لخداع الهنود عن ثمن السمور [١] .

(١) من كتاب الخزعبلات المتقدم ذكره .

محاكمة السحرة فى جبل هولى

وهذه نبذة مترجمة من كتاب أئمة الأدب الأمريكى Masters of American Literature ونشرت أولا فى صحيفة بنسلفانيا Pennysivania Gazette بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٣٠ .

* * *

« فى يوم السبت الماضى ، عند جبل هولى ، على مسافة ثمانية أميال من برلنجتون ، اجتمع نحو ثلثمائة انسان للتفرج على تجربة أو تجربتين فى أشخاص متهمين بالسحر الأسود ، ويظهر أن المتهمين قد اتهموا بأنهم جعلوا خراف جيرانهم ترقص على أسلوب غير مألوف ، وجعلوا خنازيرهم تتكلم وتنشد المزامير مما أفزع رعايا جلالة الملك الأمناء الوادعين فى الأقليم . وقد أصر المدعون على ادعائهم أن المتهمين لو وضعوا فى كفة ووضع الكتاب المقدس فى كفة لخف ميزانهم وثقلت كفة الكتاب ، وأنهم لو أغرقوا مقيدين طفوا على وجه الماء عائمين .

وأراد المتهمون أن يظهروا براءتهم فقبلوا التجربة واقترحـوا أن يوضع معهم اثنان من أشد المدعين اصرارا على الادعاء ، وعلى هذا تم الاتفاق على المكان والزمان وأعلن عن الموعد فى صحف الأقليم .

وكان المدعيان رجلا وامرأة ، والمدعى عليهما كذلك رجل وامرأة ، وانعقد الجمع وتلاقى الفريقان فدارت المشاورة بينهم قبل البدء بالتجربة وتفاهموا على الابتداء بالوزن واختاروا جماعة من الرجال لتفتيش الرجال وجماعة من النساء لتفتيش النساء ، تحققا من تجردهم جميعا من الأوزان الزائدة ولا سيما الدبابيس .

وبعد البحث والتفتيش جيء بنسخة ضخمة من الكتاب المقـدس يملكها قاضى البلد ، وفتحت طريق فى وسط الزحام من دار القاضى الى مكان الميزان الذى علق بمشنقة أقيمت فى مواجهة الدار ليراها ربات

الدار دون أن يخرجن لمخالطة الدهماء ، وتوسطت المكان حلقة على حسب المألوف . ثم خرج من الدار رجل طويل وقور يحمل الكتاب بوقار كوقار السياف الذى يمشى فى لندن أمام عمدتها الكبير .

ووضع الساحر أولا فى كفة الميزان حيث تلى عليه اصحاح من أسفار موسى ، ثم وضع الكتاب فى الكفة الأخرى التى كانت مهبطة على الأرض وأرسات على الأثر . فما كان أعظم دهشة الناظرين حين أبصروا اللحم والعظام تهبط والكتاب العظيم يعلو ويرتفع ويرجحها اللحم والعظام بكثير ، وتكررت التجربة مع الآخرين فكانت أثقالهم كذلك أعظم من أثقال كتب موسى والأنبياء .

وانتهت هذه التجربة ولم يكتف بها الجمع بل أرادوا أن يتمموها بتجربة الاغراق فى الماء . فتقدم الجمع فى موكب وقور الى البركة حيث جرد المدعون والمتهمون من ثيابهم الا ما يسترهم وقذف بهم فى النهــر مقيدين بالحبال وفى وسط كل منهم حبل يمسك به بعض الواقفين على الحافة ، وكان المتهم نحيفا هزيلا فلم يرسب لأول وهلة وبعد لأى ما غاص فى جوف الماء ، وجعل الآخرون يسبحون خفافا على وجه الماء . وقفز ملاح على الحافة فوق ظهر الرجل المتهم يظن أنه يهبط به الى قعر البركة، ولكن الرجل المقيد عاد الى الظهور قبل الآخر بهنيهة وجيزة .

ولما أخبرت المرأة المدعية أنها لم تغطس فى الماء ، وأنها ستعاد اليه عادت وطفت مرة أخرى خفيفة كما كانت فى المرة الأولى ! فراحت تقول ان المتهم قد سحرها وطفف وزنها وأنها تريد أن تعيد التجربة كرة أخرى بل مائة مرة حتى ترغم الشيطان على الخروج منها .

أما المتهم فقد رأى أنه يطفو على الماء فتزعزعت ثقته ببراءته وصاح : لئن كنت ساحرا ليكونن ذلك على غير علم منى .

وكان ذوو المسكة من العقل بين المتفرجين قد آمنوا أنه ما من أحد يلقى فى الماء مكتوفا الا طفا على وجهه ما لم يكن عظاما فى جلد ولا شىء!

وأنه يظل كذلك حتى يذهب نفسه وتمتلىء رئتاه بالماء . الا أن الرأى السائد بينهم كان يميل الى الظن بأن فضول الكساء على أجساد النساء تساعدهن على العوم ، فلا بد من تجربة أخرى وهن عاريات فى الموعد المقبل من مواعد الصيف .

خاتمة

قليل من القراء من يعلم انني دخلت مدرسة (الصنائع) ببولاق لدراسة الكهربا والتلغراف ، وأقل منهم من يعلم الصلة بين اتجاهي الى هـذه الوجهة وبين اسمين من كبار المخترعين الذين بدأوا حياتهم بالعمل فى الصحافة والكهربا ؛ هما فرنكلين واديسون .

ولست أذكر على التحقيق متى سمعت لأول مرة باسم فرنكلين واسم اديسون ، ولكنني أذكر جيدا أنني لم أعرفهما من كتاب أو من دراسة علمية ، وانما سمعت بهما من موظف فى التلغراف شديد الاعجاب بهما ، على أثر حادث من حوادث المصادفات ، تناولته الصحف بالتعليق السياسى فى ذلك الحين ، ولم تعره شيئا من الاهتمام من الناحية العلمية .

كان ذلك الحادث ، على ماأذكر الآن، سقوط صاعقة على بناء مجلس الوزراء وكنت لاأزال يومئذ فى بلدتى أسوان لم أبرح مدرستها الابتدائية ودار الحديث عن الصاعقة وعن التعليقات السياسية عليها ، وتحدث الموظف بالتلغراف من جيراننا عن رجل يسمى فرنكلين ورجل يسمى اديسون : كلاهما عامل صغير بدأ حياته بالعمل اليدوى فى الصحافة ثم اخترع باجتهاده أكبر المخترعات فى الكهربا ، ثم جرى — فى شىء من اللغط المبهم — ذكر عمود الصواعق وذكر الفنغراف ، وفضل العاملين الصغيرين فى كل من هذين الاختراعين .

وقام بذهنى أن أصنع مثل هذا الصنيع يوما من الأيام ، فلم أزل حتى دخلت مدرسة (الصنائع) فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرى ، وشعرت يومئذ كأننى أفسر حلما قديما كاد أن يذهب بين الوعى والنسيان ، وكاد فرنكلين اذن أن يتوجه بحيـاتى وجهة غير وجهتها ، يوم كان اسم فرنكلين يحضرنى مقرونا بالكهربا ولا يحضرنى منه شىء من سيرته الطويلة فى الكتابة والتفكير والسياسة .

ووقع فى يدى بعد ذلك كتيب من سلسلة كبيرة تلخص التراجم والمؤلفات لأعلام النوابغ فى الثقافة الغربية فبدأت به قراءة تلك السلسلة لأنه مكتوب عن صاحبنا القديم فرنكلين .

ومن تحكم الذاكرة أننى أذكر حتى اليوم منظرين من مناظر السيرة التى لخصها ذلك الكتيب الصغير .

أحدهما منظر الطفل الجائع فرنكلين يقضم رغيف الخبز وتترصد له طفلة فى طريقه لاتزال تداعبه وتلح فى مداعبته وتوقع فى روعه أنها تريد أن تخطف الرغيف من يديه ، حتى يوشك أن يبكى من الغيظ الذى لم يكن يكرهه كل الكراهية على ما يظهر !

والمنظر الآخر منظر الحوار بين فرنكلين ورجل من رجال الدين تلقى من يديه عارفة مشكورة ، فاذا هو يشكره بالنيابة عن الله كأنما هو غريب عن الموضوع لا شأن له بين المحسن والمحسن اليه ، ويأبى فرنكلين أن يفوت على الرجل روغانه هذا من واجب الشكر ، فيقول له : انما أعطيتك أنت يا أبتاه !

وأقول ان بقاء هذين المنظرين دون غيرهما من مناظر تلك السيرة فى ذلك الكتيب الصغير انما كان من تحكم الذاكرة فيما تأخذ وفيما تدع ، لأننى حين توسعت فى قراءة فرنكلين ، وفى القراءة عنه بعد ذلك ، وجدت فى السيرة الحافلة مناظر لاتحصى مما يصح أن يعلق بالذاكرة ويغطى على منظر الرغيف المهدد ومنظر القس الرائغ من الشكران... ولا أحسب ، على هذا ، أن أظلم الذاكرة كل الظلم ، فلعل هذين المنظرين يجمعان من فرنكلين فى نفس القارىء الشاب ، ما لم يجتمع من منظرين غيرهما فى الكتيب الصغير .

وقرأت بعد ذلك كثيرا من فرنكلين وعن فرنكلين ، ولم أنس قط أنه كاد أن يوجه حياته وجهة أخرى فى يوم من الأيام .

ثم دخلت السجن ودعوت بكتاب أتعلم منه اللغة الفرنسية بغير معلم،

واخترت القراءة فى الجزء المخصص للمطالعة قبل الجـزء المخصص للأجرومية ، فلم أقلب من الكتاب صفحة بعد صفحة حتى التقيت بصاحبنا القديم فرنكلين فى الصفحة الرابعة والسبعين من الكتاب [1] .

والقصة قصة اللقاء الأول بين فرنكلين والعـالم الفلكى الفرنسى الكبير دى بايلى De Bailly ، وهى أعجب ما قرأت من نوادر هـذا الرجل العجيب .

« فرنكلين مندوب المستعمرات الأمريكية الثائرة على الوطن الأم ، وفد الى باريس سنة ١٧٧٧ ، ورأى الفلكى دى بايلى من واجبه أن يزور الأمريكى النابه ، فاستقبله فرنكلين بترحاب غاية فى المودة وبادله بضع كلمات من التحيات التى تتبادل فى مثل هذا المقام ، وجلس بايلى على مقربه من الفيلسوف الأمريكى وترقب بكل عناية ما يفوه به من الأسئلة ، وانقضى نصف ساعة وفرنكلين لايفتح فمه ، وأخرج بايلى علبة السعوط وقدمها الى جاره دون أن ينبس بكلمة ، فأشار فرنكلين بيده اشارة معناها أنه لايتعاطاه ، واستمرت هذه المساجلة الصـامتة ساعة كاملة ، فنهض دى بايلى واستعد للانصراف ، وبدا على فرنكلين كأنه فرح بلقاء فرنسى يستطيع أن يلوذ بالصمت ويمسك لسانه ، فأخذ بيده وشدها شدة حميمة وهو يقول فى حماسة بينة : حسن جدا يا سيد بايلى . حسن جدا . وتوثقت بينهما المودة بعد ذلك فأصبحا من خيرة الأصدقاء » .

ولم أكد أصدق ما قرأت ، واتهمت جهلى بالفرنسية فاختلست فرصة من فرص السجن أعرضها فيها على زميلنا الأستاذ حسن النحاس ، فقال لى : اننى فهمت منها الصواب .

ان موضع العجب فى القصة أن فرنكلين لم يشتهر فى مجالسه بشىء كما اشتهر بلباقة الحديث والسمر وأفانين الكلام المستحب بين الجـد والفكاهة ، فما الذى ألجأه الى ذلك الصمت مع العالم الفرنسى الكبير ؟

(١) Hugo French Readings Simplified.

لا أعلم ، ولم أجد من سيرته مع هذا العالم أو مع غيره ما يجلو لى سر هذه « الصمتة » الغريبة ، ولكننى عرفت منها حقيقة لا ريب فيها : عرفت منها أن هذا الرجل يستطيع أن يشع من حوله جو المحبة والمودة وأن يمحو من ظن جليسه كل احتمال للجفاء والفتور ، ولولا ذلك لانصرف العالم الفرنسى من حضرته وهو عدو مبين ، ولم ينصرف — كما قالت القصة وقال التاريخ — صديقا من أخلص الأصدقاء المقربين .

ثم حان الأوان وشرعت فى كتابة هذه السيرة وأنا أحس كأننى جددت الصلة الفكرية بصاحب قديم ، وتبينت من مراجع السيرة كلما أمعنت فى تصفحها أنها بنت أوانها ، اذا كان لكتابة السير أوان مفضل عدا ما تستحقه كل سيرة من التسجيل والتحليل .

فنحن فى عصر التجزئة والتفتيت أحوج ما نكون الى مثال كامل لانسان لم يمزقه التخصص شلوا شلوا بين شواغل العقل وشواغل الحياة.

ونحن فى عصر الطغيان على « الشخصية » الفردية أحوج ما نكون الى مثال من غمار الناس لم يستغرقه الغمار ولم يمسح ملامحه المتميزة بين أمواج التيار .

ونحن فى عصر النبوغ العصامى نحتاج الى عظمة تقرب العصامية لمن يهابها وتيسر القدوة لمن تروعه هالات العظمة فى أعلام التاريخ فيحجم عن الاقتداء بها ويحسب نفسه من غير معدنها .

فالعظمة فى هذا العصامى من « طينة عامة » حيثما واجهتها كما قال فيه أصدق مترجميه . الا أنك تواجهه من جهات شتى فتلمح فى كل منها تلك العظمة التى تحسبها من الطينة العامة ، وتعرف كيف تكون العظمة الانسانية أحيانا « كالسهل الممتنع » فى بلاغة البلغاء ، يغريك بالمحاكاة والاقتداء ولا تعرف كيف يمتنع عليك الا وقد تمكن منك الاغراء .

وفيما لقى هذا الرجل العظيم من العرفان تشجيع أى تشجيع .

وفيما لقى هذا الرجل من الانكار عزاء أى عزاء ، وربما كان العزاء من سير العظماء أجدى وألزم من التشجيع .

لقد كرمته معاهد العلم فى أمم الحضارة بأشرف ألقابها ، وعرفت له أمته مآثره فى جهاده فاستقبلته كما يستقبل الفاتحون ، ومحضته من الاكبار والاعجاب ما يبسط العذر للحاسدين . فلا عذر لمن يحسد هذا الرجل الا أنه استحق الحسد بفرط ما استحق من اكبار واعجاب .

ولو أن عظيما بين أبناء آدم وحواء ينجو من الحسد لنجا منه هذا العظيم الذى غض من كبريائه باختياره فلم يدع فيه بقية لمن ينكر عليه الكبرياء ، ولو أنكر عليه عرفان العارفين بالقدر الكبير .

مات ولم يشكره مجلس الأمة الذى كان له فيه أنداد وزملاء ، ولبس عليه الحداد مجلس الأمة الذى لم يعرفه الا بالسماع . مجلس الشيوخ يضن عليه بالشكر ومجلس النواب يلبس السواد ثلاثين يوما حزنا عليه .

لعله لو لم يحسد هذا الحسد لقيل انه لم يبلغ من عرفان قومه غاية ما يستطاع .

واليوم وقد أخذ الفناء ما أخذ ، وأبقى الخلود ما أبقى ، لا يضارُّ المحسود بما أصابه كما يضار الحاسد بما أصاب ، ولو كتب لفرنكلين أن يعود الى الدنيا كما تمنى أن يعود كل مائة عام ، لما تمنى — بخبرة الحياة والموت — أن يتبوأ من دنياه مكانا أرفع مما تبوأه بعمله وذكراه.

بنجامین فرانکلین

نشر بالاشـــــتراك

مع

مؤســـسة فرانكلين للطباعة والنشر

